الرؤية الكونية الحضارية القرآنية

المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني

أ.د. عبد الحميد أبو سليمان

١٤٢٩/٨/٨هـ

٢٠٠٨/٨/٩م

سيرة ذاتية

الدكتور عبد الحميد أحمد محمد أبو سليمان

- من أبناء مكة المكرمة، ولد بها عام ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.
- تحصل في مكة على تعليمه الابتدائي والثانوي، وتخرج في مدرسة تحضير البعثات سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.
- حصل على بكالوريوس ا لتجارة في قسم العلوم السياسية عام ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م، من كلية التجارة بجامعة القاهرة.
- حصل على درجة الماجستير في العلوم السياسية من كلية التجارة بجامعة القاهرة، سنة ١٣٨١هـ/١٩٦٣م.
- وحصل على درجة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة بنسلفانيا بفيلادلفيا في الولايات المتحدة عام (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م).
- عمل أميناً لاجتماعات المجلس الأعلى للتخطيط بالمملكة العربية السعودية، ثم عضواً في هيئة التدريس بكلية العلوم الإدارية (كلية التجارة سابقاً) في جامعة الملك سعود بالرياض (جامعة الرياض سابقاً)، ورئيساً لقسم العلوم السياسية فيها.
- من مؤسسي اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، والاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية، ورئيس مجلس الإدارة الأسبق لمدارس منارات الرياض.
- الأمين العام المؤسس للأمانة العامة للندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض بالمملكة العربية السعودية، الرئيس الأول والمؤسس للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، والمدير العام الأسبق للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، والرئيس المؤسس لمؤسسة تنمية الطفل، والمؤسس والرئيس الأسبق لجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين بالولايات المتحدة الأمريكية وكندا، ومؤسس ورئيس تحرير سابق للمجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية.
- مؤسس ومدير الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا ١٩٨٨م -١٩٩٩م.
- رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٩م/١٤١٩هـ.
- صاحب ومدير عام مكتب دار منار الرائد للاستشارات التربوية والتعليمية (الرياض) ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

- له عدد من الكتب والأبحاث والأوراق العلمية والفكرية التي تهتم – من المنظور الإسلامي – بالتغيير وبالجوانب الإبداعية الإصلاحية للأمة في العقيدة والرؤية الحضارية الإسلامية، وفي الفكر والمنهج والثقافة، وفي التربية والوجدان المسلم.
- من مؤلفاته"
  - "نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة" (١٩٦٠م)، السياسة البريطانية في عدن والمحميات ما بين عام ١٧٩٩وعام١٩٦١م (رسالة ماجستير) ١٩٦٣م
  - "النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية: اتجاهات جديدة للفكر والمنهجية الإسلامية" (١٩٧٣م).
  - أزمة العقل المسلم" (١٩٨٦م).
  - بالاشتراك "إسلامية المعرفة: الخطة والإنجازات" (١٩٨٦م).
  - "العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي بين المبدأ والخيار: رؤية إسلامية" (٢٠٠٢م).
  - قضية ضرب المرأة وسيلة لحل الخلافات الزوجية!" (٢٠٠٣م).
  - "أزمة الإرادة والوجدان المسلم" (٢٠٠٤م).
  - "الإصلاح الإسلامي : الثابت والمتغير، تجربة الجامعة الإسلامية ٢٠٠٤م".
  - "الإنسان بين شريعتين ٢٠٠٥".
  - جزيرة البنائين: قصة عقائديه تربوية (للصغار والكبار)".
  - "كنوز جزيرة البنائين: قصة عقدية تربوية (للشباب والكبار)".
  - "إشكالية الاستبداد والفساد في الفكر والتاريخ الإسلامي ٢٠٠٧م".
  - "الرؤية الكونية الحضارية القرآنية ٢٠٠٨م".
- له إسهامات هامة في إقامة عدد كبير من المؤتمرات والندوات الفكرية والثقافية العالمية، والمحاضرة فيها، وتقديم الأوراق الفكرية وكتابة أوراق عملها، واقتراح الكثير من توصياتها.

الإهـــــــــــداء

إلى أبناء الإسلام

وإلى أبناء الإنسان

أملٌ ودعاء

أن تستعيد الأمة

وأن تستعيد الإنسانية

الرؤية القرآنية الفطرية

الرؤية الكونية الاستخلافية الحضارية

رؤية "القوة للحق"

رؤية العدل والإحسان

رؤية السعي والإبداع والعطاء

رؤية العلمية والعالمية

رؤية العزة والكرامة

رؤية الإخاء والتكافل

رؤية الرحمة والأمن والسلام

أمل ودعاء

لأجيال عاملة قادرة قادمة مبصرة

تقود ركب الريادة والقيادة

تستنقذ روح الإنسانية

نحو آفاق الإخاء والعدل

نحو بَـــرِّ الأمن والسلام

في يوم آتٍ قريب

إنه رحيمٌ سميعٌ مجيب الدعاء

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنَّ هَـــذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } الإسراء٩

{قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـــذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً} الإسراء٨٨

{الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّـــورِ بِـــإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} إبراهيم١

{وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} الأعراف٥٢

وصدق رسول الله (r)

عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، قال: قال رسول الله صلى اله عليـــه وسلم:(ستكون فتنة، قلت فما المخرج منها يا رسول الله، قال: كتاب الله فيه نبـــأ ما كان قبلَكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيـــره أضـــله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المـــستقيم، هـــو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلمـــاء، ولايَخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجـــن إذ سمعته حتى قالوا: "إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به" مـــن قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هَدى إلى صراط مستقيم)

رواه الترمذي

المحتويات

المقدمـــة

ما الذي دعاني إلى كتابة هذه المقالة البحثية التأملية المطولة عن الرؤية الكونيـــة الحضارية القرآنية؟ ولماذا الآن؟ ولماذا في هذه المرحلـــة مـــن سلـــسلة الكتـــب والمقالات المنشورة التي كتبتُها عبر السنين؟ فبدءاً من عام ثمانين وثلاثمائة وألف من الهجرة الموافق لعام ستين وتسعمائة وألف للميلاد، وكنت حينها ما أزال على مقاعد الدراسة في مرحلة دراسة الماجستير في كلية التجارة بقسم العلوم السياسية في جامعة القاهرة، أعددت كتاب "نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوســـائل المعاصرة" وهي غير رسالة الماجستير في العلوم السياسية التي لم تنشر، وكـــان عنوانها (السياسة البريطانية في عدن والمحميات بين عام ١٧٩٩ وعـــام ١٩٦١م) لتتلوها رسالة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة بنسلفانيا بمدينة فيلادلفيـــا في الولايات المتحدة الأمريكية عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف للميلاد؛ التـــي أصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ستة وثمانين وألف للميلاد في كتـــاب باللغة الإنجليزية، وترجمه ونشره بالعربية الأستاذ الدكتور ناصر البريـــك تحـــت عنوان "النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية: اتجاهات جديـــدة للفكـــر والمنهجيـــة الإسلامية".

وإلى جانب أهمية الدراسة عن نظرية العلاقات الدولية فـــي الإســـلام، فـــإن عندي لتلك الأطروحة والكتاب الذي احتواها أهمية خاصة؛ وهـــي أنهـــا كانـــت استخداماً وتطبيقاً للمنهجية التي نتج عنها كتاب "نظرية الإسلام الاقتصادية"، تلـــك النظرية التي فتحت أمامي آفاقاً لمنهجِ فهمٍ للنصوص والتراث الإســـلامي، أنـــتج نوعاً من التحليل والنظر، كانت له آثار ونتائج ورؤى فكرية لا يمكـــن تحقيقهـــا بالوسائل المنهجية التقليدية في معاهد الدراسات الإسلامية البحتة المعاصرة؛ وهذا ما دعاني إلى استخدام ذلك المنهج في معالجة قضية نظرية العلاقات الدولية، وهو منهجٌ مؤلفٌ من نصوص الوحي ومقاصده، ومن حكمة تنزيل الوحي على العهـــد النبوي، وحكمة تطبيقاته في صدر العهد الراشد، ومن دراسات الفطرة الإنـــسانية الاجتماعية والسنن الكونية، وفي واقع الزمان والمكان؛ بالتزامٍ منهجي موضوعيٍّ

استنباطيٍّ استقرائيٍّ منضبط، قدر الطاقة والإمكان، وفي ساحة علمية إن لم تكــن متحيزة فإنها حتماً[1] غير منحازة، وبذلك كان المنهج الذي اتبعتــه فــي معالجــة نظرية العلاقات الدولية هو ذات المنهج الذي أنتج نظرية الإسلام الاقتصادية قبــل ذلك، ولذلك أُتْبَعْتُ دراسة النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية وما ترتب عليها من نتائج علمية بدراسةٍ وتحليلٍ لتلك المنهجية؛ محاولاً توضيح الأسباب التــي تبــين لماذا أمكن بها أن تحقق هذه المنهجية تلك النتائج العلمية التي تحــاول أن تتنــزّل بأسلوب علميٍّ هدي نصوص الرسالة الإسلامية الإلهية على واقع العصر.

وقد كان من آثار هاتين التجربتين أنني تنبهت إلى أهمية قضية تجديد منهجية الفكر والبحث الإسلامي، وكان من آثار ذلك الوعي أيضاً، ولخبرتي في مجال الفصام العلمي بين مجال الدراسات الاجتماعية ومجال الدراسات الإسلامية، أن دعوت الإخوة الزملاء في اتحاد الطلبة المسلمين بالولايات المتحدة وكندا إلى إنشاء "جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين" للبدء بتنشئة أجيال من جيل صاحب الاختصاص العلمي الحياتي في مختلف مجالات العلوم الاجتماعية يكونون راغبين في التواصل مع العقيدة والمقاصد الإسلامية، ومع نصوصها لتوليد فكر إسلامي واقعي علمي فعَّــال، في مختلف المجالات الحياتية، تأخذ في الاعتبار عوامل الفطرة السوية والواقع الذي نعيشه وإمكاناته وتحدياته، في ضوء مقاصد الشريعة وهداية النصوص الصحيحة، وتنزيل مبادئها ومفاهيمها وقيمها على الواقع الزماني والمكاني المتغير بسقفه المعرفي وحاجاته وإمكاناته وتحدياته؛ ليقوم بعد إنشاء تلك الجمعية المعهدُ العالمي للفكر الإسلامي في عام واحدٍ وأربعمائة وألف للهجرة، الموافق لعام واحد وثمانين وتسعمائة وألف للميلاد، مؤسسة إسلامية فكرية مستقلة متفرغة لخدمة الفكر الإسلامي، من منطلق أن الأمة الإسلامية لا تنقصها الموارد ولا تنقصها القيم والأهداف السامية، ولكنها مع ذلك قد تدهورت وتخلَّــفت، وذلك لغزٌ ومعادلةٌ وحالٌ لا يمكن فهمه إلا بافتراض أن الفكر ومنهج الفكر قد أصابه خلل يجعله في قلب أزمة الأمة ويكمن في جذورها، وهذا ما يجعل الأمة كالطفل القاصر الذي لا يعرف كيف يفيد من إرثه، ولذلك فإن من الضروري، للبدء بالإصلاح الفعال، البدءَ بتتبع مسيرة الفكر الإسلامي ومسيرة منهجه، ومعرفة

الآفات التي أصابته والتشوهات التي لحقت به، وكيف حدث ذلك؟ ولماذا حدث؟ وكيف يمكن معالجة أزمة هذا الفكر وما أصابه من تشوُّهات وآفات؟ وأن يكون ذلك الجهد من أولى أولويات جهود الإصلاحيين، وجهود الإصلاح الفكري للأمة.

لقد كانت رحلة التأمل في أزمة انحطاط الأمة وتخلفها هماً مصاحباً لعقلي وقلبي منذ عهد الطفولة على مقاعد الدراسة في مكة المكرمة، وكان اللغز المحير والشغل الشاغل الذي لم أنقطع عن التفكير فيه خلال قراءاتي في مكتبة الأسرة التي حوت الكثير من كتب التراث وتاريخ الأمة، ومما كان يصدر مترجماً ولكبار الكتاب والأدباء والمفكرين في ذلك الوقت، وفي مصر خاصةً ، حيث لم يكن هناك سلوة ولا متعة في دار هادئة في ذلك الوقت إلا متعة القراءة، وكان من آثارها دراستي للعلوم السياسية، ثم كانت حصيلتها عام ستة وثمانين وتسعمائة وألف للميلاد كتابة حصيلة فكري وتجربتي عن "أزمة العقل المسلم" محاولة للفهم والتحليل، جمعت فيه شتات حصيلة ما كان لي من تأملات ومحاضرات وكتابات عن هذه القضية، ولإعادة تحرير كثير من قضايا كتاب المعهد العالمي للفكر الإسلامي عن "إسلامية المعرفة: الخطة والإنجازات"" الذي حرر طبعته الأولى الشهيد الأستاذ الدكتور إسماعيل الفاروقي، وقد سجل فيه منطلقات رسالة المعهد ونتائج المؤتمر الدولي الذي عقده المعهد في "إسلام آباد" عن إسلامية المعرفة، وإسلامية منهج الفكر والبحث العلمي المسلم؛ وقد قمت بمزيد من تحرير قضايا ذلك الكتاب، ولاسيما أهميةُ مجال التربية، إلى جانب أهمية مجال التعليم التي أفردها الأستاذ الفاروقي بالاهتمام وركز عليها، إضافة إلى استدراكات أخرى عديدة، وإلى مزيد من تفصيل خطة عمل المعهد؛ ليصدر المعهد الطبعة المعدلة في طبعتها الأولى بالإنجليزية والعربية عام ستة وثمانين وتسعمائة وألف، وهو العام الذي استشهد فيه الأستاذ الفاروقي وحرمه الدكتورة لمياء الفاروقي يرحمهما الله ويسكنهما فسيح جناته.

ومضت بي السنون في التدريس الجامعي والنشاطات الشبابية والفكرية الإسلامية، في جامعة الملك سعود بكلية العلوم الإدارية - قسم العلوم السياسية، وفي أمانة الندوة العالمية، وفي المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وفي الجامعة

الإسلامية العالمية بماليزيا؛ التي أمضيت فيها عشر سنواتٍ بذلت فيها جهدي لكي أجسِّـد رؤية منطلقات إصلاح الفكر والوجدان، والتي هي رسالة المعهد وغايته، وذلك انطلاقاً من مواجهة "أزمة الفكر الإسلامي" بواسطة تحقيق وحدة المعرفة الإسلامية نصوصاً ورؤيةً وقيماً ومفاهيم وعلماً اجتماعياً وحياتياً، وتجسيداً للفطرة الإنسانية السوية والسنن الكونية واقعاً زمانياً ومكانياً ، ومواجهة أزمة الإرادة والوجدان المسلم، والتي تكمن في مجال التربية ووجدان الطفولة؛ وذلك بالعناية بمجال "التربية الوالدية" وبرامجها وأدبياتها بالدرجة الأولى؛ فتبنَّـت الجامعة أسلوب التخصص المزدوج بين الدراسات الإسلامية والدراسات الاجتماعية، كما طوَّرت الجامعة مقرراً دراسياً بعنوان "الأسرة والأبوة" ومقرراً دراسياً بعنوان "التفكير الإبداعي وحل المشاكل" ومقرراً دراسياً بعنوان "قيام الحضارات وانهيارها"، كما طورت دبلوماً في قسم التربية لإعداد المدرسين لمقرر "الأسرة والأبوة" ودبلوماً لتخريج أساتذة لمقرر "التفكير الإبداعي وحل المشاكل" في قسم علم النفس في " كلية معارف الوحي الإسلامي والعلوم الإنسانية "حتى يمكن أن تصبح هذه المقررات - بعد توافر أعداد من الأساتذة المطلوبين لتدريسها على مستوى الجامعة - مطلباً جامعياً من كل طلاب الجامعة؛ لإعدادهم حتى يكونوا نواة ونماذج للآباء والأسر القادرة على تربية جيل معافى من الممارسات والمفاهيم العقائدية والفكرية والسلوكية التربوية المشوهة.

كما بدأت الجامعة الإسلامية العالمية تجربة مدرسة للتعليم العام، بدءاً من مرحلة الحضانة، وانتهاء بالمرحلة الثانوية، للبنين والبنات، وتكون خاصة بها وبمنسوبيها وبخطتها وإشرافها، ولتكون محضناً لهذه التجربة التربوية في منحى ومحتوى مناهجها ونشاطاتها.

ومن المهم الإشارة هنا إلى أنه إلى جانب ما أمكن تطويره من مناهج الدراسة في هذه المدرسة، وخطة بنائها ذات الطابع الإسلامي، والتي توفر حاجات الطلاب في مختلف المراحل على أفضل وجه، فقد تم تنظيم العلاقة بين الجنسين بما يحقق الغايات التربوية والأخلاقية والاجتماعية الإسلامية، وبما يوفر للطفل البيئة المتوازنة والنمو النفسي والاجتماعي السليم، في مختلف المراحل التي سيمر بها. فكانت

الخلطة تامة بين الجنسين من بدء مرحلة الحضانة إلى نهاية الفصل الثالث الابتدائي، ثم تم فصل الجنسين في فصول الدراسة؛ حيث يكون الذكور في فصل والإناث في فصل آخر، وتبقى خلطتهم في الفترات الحرة وفي مختلف النشاطات، فهم في انفصال وفي اتصال، ويمكن في حالة الأعداد المحدودة تصور أن يبقى الجنسين في فصل واحد، ولكن كل جنس على حدة؛ بحيث لا يؤثر وجودهم في فصل واحد إلى إزعاج بعضهم بعضاً، وتشتت انتباههم، فمن المعلوم أن الطفل يبدأ بإدراك الفرق بين الجنسين في هذه المرحلة، وكذلك ميل كل جنس في هذه المرحلة إلى ذات الجنس في مواجهة الجنس الآخر.

وفي المرحلة الإعدادية يبدأ عادة بلوغ الفتيات أولاً، ثم يلحق بهنَّ الفتيان على تفاوت؛ ولذلك يتم الفصل بينهم بحيث يكون كل منهما في مدرسة تخص جنسه، ولا يكون هناك مجال لتشتت الانتباه، أو توفير الظروف الخاطئة لبناء العلاقات الجنسية، وربما الجرأة الطفولية الجاهلة لمحاولة اكتشاف هذا العامل والحصول على اللذة والإشباع الجنسي، دون فهم ووعي حقيقي بالأبعاد والمسئوليات المتعلقة بممارسة الجنس وتبعاته، وهو ما نلاحظه في المجتمعات الليبرالية التي لا تلتزم الترتيبات والسلوكيات اللازمة لبناء القيم والأخلاق الدينية والإسلامية، خاصة في هذه المرحلة المبكرة التي إذا لم يتم تفهمها كان لها أسوأ العواقب، فيها وفيما بعدها من المراحل، وحمل القاصرات، وكل ما يتبع ذلك من آثار سيئة على أطراف هذه العلاقات في المجتمعات الليبرالية مما لا يحتاج إلى تفصيل.

ويستمر الانفصال بين الجنسين في المرحلة الثانوية التي هي أشد خطورة وتهوراً ومجازفة لما تتسم به شخصية المراهقين من استقلالية وميل إلى التمرد، ولنمو أجسامهم وما يترتب على ذلك من ضغوط جنسية ونفسية.

ويعود نظام الجامعة على مستوى الدراسة الجامعية إلى مفهوم ترتيبات خلطة الجنسين في صفوف الدراسة، ولكن يبقى كل جنس يجلس على حدة في جانب من جانبي الفصل الدراسي.

ويمكن للشباب من الجنسين في الجامعة اللقاء في فترات الراحة وصالات الطعام، وفي الوقت نفسه هناك الصالات الخاصة بالفتيات لمن شاءت منهن الانفراد بعيداً عن الجنس الآخر في أي وقت من الأوقات.

وقد شجعت الجامعة الشباب على الزواج من زميلاتهم، بل كانت تقدم المعونة المالية لهم، وتشجع أولياء أمورهم على دعمهم ومساعدتهم، ولذلك كانت هناك أعداد متزايدة للتزاوج بين طلاب وطالبات الجامعة.

هذا الترتيب في علاقة الجنسين مع التربية والتوعية (مقرر الأسرة والأبوة)، والأنظمة المتعلقة بنشاطات الطلاب والطالبات المختلطة كالنشاط الثقافي والاجتماعي، وغير المختلطة كالنشاط الرياضي، كل ذلك جعل الوقوع في الأخطاء أمراً نادر الحدوث، وعادة ما ينتهي الأمر بزواج الأطراف المعنية أيضاً.

وبعد انتهاء مهمتي في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، في مطلع عام تسعة وتسعين وتسعمائة وألف للميلاد، عدت متطوعاً متفرغاً كما بدأت، وكما كان الحال دائماً، لي ولزملائي مؤسسي جمعية الطلبة المسلمين والمعهد العالمي للفكر الإسلامي؛ وذلك لمتابعة مسيرة المعهد ونشاطاته، ولأتفرغ لإنجاز كتاب "أزمة الإرادة والوجدان المسلم" الذي جعل القضية التربوية الوجدانية قضيته الأساسية؛ لأنني أيقنت من تأملاتي وتجاربي وخبراتي، أن معرفة الصواب لا تكفي لسلوكه، وأن معرفة الخطأ لا تكفي لمجانبته، إذا لم يكن وجدان المرء يميل وينزع إلى ما يراه العقل، ووجدت في القرآن الكريم، في قصة بني إسرائيل في مصر، سنداً ودعماً وبرهاناً على ذلك، وذلك حين وجَّهَ الله سبحانه وتعالى نبيه موسى عليه السلام لإنقاذ بني إسرائيل الذين استُضعفوا واستُعبدوا على أيدي "الفراعنة"، وأراد الله سبحانه وتعالى أن ينقذهم وأن يمن عليهم، فخرج بهم سيدنا موسى إلى سيناء، فأنزل الله إليه الألواح فيها {مِن كُلِّ شَيْءٍ}الأعراف١٤٥ إصلاحاً لعقائد بني إسرائيل وفكرهم الذي حُــرِّفَ وتشوَّهَ بمضي الزمن، ليس ذلك فقط، ولكن كتب الله عليهم أيضاً التيهَ في صحراء سيناء أربعين سنةً؛ ليصلح تربيتهم ووجدانهم الذي دمَّــره الاستعباد، ولينشأ فيهم جيل من الأحرار أصحاب القدرة والقوة

والبأس، وعند ذلك فقط {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ} البقرة : ٢٥١ و {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ} البقرة : ٢٤٩.

وخلال هذه الرحلة الفكرية، كنت كلما واجهت قضية فكرية مهمة هي موضع حيرة وقلق وتساؤل، فإنني كنت أمعن النظر فيها بمنهج المعرفة العلمية الاجتماعية، وشمولية التعامل مع مجمل النص الديني الإلهي، وكنت دائماً أجد في كل ما واجهت من حالات أن تنزيل مقاصد النصوص ومفاهيمها وقيمها ومبادئها، بشكل علمي واقعي حياتي، يعطي رؤى إسلامية تهدي وترشد، بما يناسب توسع سقف معارف العصر وإمكاناته وحاجاته وتحدياته، وكان ثمرةُ تلك التطبيقات المنهجية عدداً من الأعمال العلمية في كتاب "العنف وإدارة الصراع في الفكر الإسلامي" وفي كتاب "الإنسان بين شريعتين" وفي رسالة "ضرب المرأة: وسيلة لحل الخلافات الزوجية!" وفي المقالة المطولة عن "نظام العقوبات الإسلامية: الثابت والمتغير" وفي المقالة المطولة عن "إشكالية الاستبداد والفساد في الفكر والتاريخ الإسلامي "، ووجه الإشكال في هذه النقطة أنه إذا كان الإسلام يقوم على العدل فكيف نفسِّر هذا القدر من الانحراف والفساد في أنظمة الحكم، وفي واقع حياة الأمة؟ وهي مقالة تقدم منظوراً وفهماً جديداً للإصلاح السياسي ونظام الحكم الإسلامي.

والقصد مما سبق هو توضيح أبعاد التجربة والمعاناة التي امتدت حتى اليوم، من عهد الطفولة وإعدادها ومعاناتها وتساؤلاتها ونشاطاتها وأحلامها، وخاصة منذ أن أخذت هذه التجربة والمعاناة لحوالي الخمسين عاماً الماضية في التبلور والتعبير المكتوب المنشور على امتداد نصف قرنٍ، أي منذ مطلع الستينيات من القرن الماضي، والتي بدأت بكتاب "نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة" الصادر عن مكتبة الخانجي بالقاهرة عام ١٩٦٠م.

واليوم مع قرب نهاية مشوار الحياة، والقدرة على العطاء، وعلى النظر والتحليل والتأمل والمحاضرة والكتابة عن "أزمة الفكر المسلم" و"أزمة الإرادة والوجدان المسلم"، وما سبق ذلك وما تلاه من كتابات وتأصيلات، وجدت أن هناك

عدداً من الأسئلة، وعدداً من القضايا المحيرة ما زالت عالقة وماثلة أمام ذهني تبحث عن إجابة.

لقد وجدت أن "أزمة الفكر والمنهج "تدل على الطريق، وتهدي إلى الأسلوب الذي يكون فيه التفكير سليماً، والذي هو وسيلة إدراك التشوهات، ومعرفة كيفية تنقية الثقافة.

كما وجدت أن "أزمة الإرادة والوجدان المسلم" تدل على إشكالات الأساليب والممارسات التربوية التي تعاني منها الأمة وبنيان أبنائها النفسي والوجداني، والأسلوب المطلوب لوضع حدٍّ للممارسات والأساليب الخاطئة في تربية الإنسان المسلم وتربية وجدانه.

ولكنني وجدت في ذات الوقت أن مجرد معرفةِ منهجٍ سليمٍ للفكر، وأسلوبٍ سليمٍ في التربية لا يكفي لحل أزمة تخلف الأمة، ولا لإخراجها من دائرة التهميش والسلبية، إلى دائرة الدفع والحراك والفعل والإيجابية، وإلى تحقيق الريادة الإنسانية الحضارية الإصلاحية؛ التي هي رسالتها، والتي هي أهلٌ لها، وتمتلك كل وسائلها ومتطلباتها.

وذلك أنه لا يكفي أن يكون لدى الإنسان الأداة إذا لم يكن له غاية أو هدف من حصوله على الأداة ووجودها بين يديه؛ لأن الوجود والحصول على الوسائل، إذا لم تكن هناك غاية أو هدف لمن هي في يده من وجودها، فإن الإنسان لن يحرك ساكناً، ولن يدفع وجودها تحركاً للإفادة منها، ولو أن الأداة تدفع وتحرك مَنْ لا غايةَ له ولا هدفَ، لتحرك المسلمون، ولكان لهم اليوم شأن آخر، لأنهم قد توافر في أيديهم الكثير من الوسائل والأدوات، ولكنهم لم يتحركوا ولم يبادروا مع علمهم بسوء حالهم، وبكثير مما هم في حاجةٍ إلى فعله، برغم توافر الكثير من الموارد والخامات، وكل ما يكفي من الوسائل لدخول حلبات السبق والإبداع والتفوق.

لقد سبق العالم الإسلاميّ بلاداً كثيرة، منها اليابان والصين وروسيا وسواهم من الأمم، في إدراك تحديات أوربا والغرب، والحاجة إلى مواجهة تلك التحديات وتعديات تلك الأمم.

ومع ذلك فإن كثيراً من الأمم أمكنهم أن يلحقوا، بل أن يتفوقوا ويبـــزّوا كثيراً من بلاد الغرب وإنجازاته وإبداعاته المادية ، أما الشعوب الإسلامية فإنها - مع كل الانبهار والتقليد والمتابعة لأوربا والغرب في كل وجوه الحياة المدنية وغير المدنية والعسكرية والاقتصادية والسياسية - لم تنته إلا إلى محاكاة قاصرة شكلية، وإلاَّ إلى مزيد من التخلف والقصور والمعاناة والمظالم، وإلاَّ إلى اتساع الهوة بين عالمنا وعالمهم.

وبعد هذه القرون من محاولات التقليد والمحاكاة الفاشلة أصبح واضحاً كوضوح الشمس أنه مهما توافرت الوسائل واشتدت المعاناة فإنه لن يتبدل الحال، ولن تستخدم الوسائل، ولن تستقيم الأمور ويعتدل الميزان، إذا لم تكن هناك رؤية كونية حضارية تعطي الإنسان المسلم معنى حقيقياً إيجابياً للوجود، وغايةً وهدفاً دافعاً لهذا الوجود، تكون بمنزلة المحرك والدافع للفعل والعطاء والحركة الإعمارية الإصلاحية.

هنا أدركت أن إشكالية الرؤية التي تحدد الغايات وتوفر الدافع هي الأساس الأول والأكبر لكل فعل وحراك إنساني وحضاري، وما لم يكن هناك رؤية كونية حضارية إيجابية توفر الغاية والدافع، فلن تتحرك الأمة، ولن يتحرك الإنسان، ولن تفيد الآلات والأدوات والوسائل والتهديدات والإرشادات والنصائح، مهما كانت وفيرةً، ومهما كانت جيدةً وفعالةً، مثلها في ذلك مثل آلة مفككةٍ إلى قطعٍ، فبالرغم من أن كل جزء منها غالٍ وثمينٌ، وفي حالة جيدة ، نهتم به ونقدره، فإنه لن يؤدي مهمته، ولن يثمر إنتاجاً، إذا لم يوضع في رؤية كيانه الكلي القادر على الإنتاج والحركة.

بل لعل أبلغ من ذلك حال الألوف من حملة الشهادات العليا في منهجيات البحث العلمي، وفي علوم التربية، الذين مع سواهم من ألوف الجامعيين المتخصصين، لافتقادنا الرؤية والدافعية، لم تنفعنا آلياتهم ولا أدواتهم ولا فنياتهم شيئاً لتحريك الأمة ودفعها إلى الفعل والحركة؛ لأن الفعل والحركة يرجعان إلى الرؤية والغاية والدافع الذي هو الجوهر والمحرك، فمن لا رؤية له ولا غاية ولا

مقصد فإنه لن يتحرك مهما توافرت له المعلومات والوسائل والآليات، ولن يفيد منها، ولن يحسن استخدامها، مثله في ذلك مثل التاجر ورجل الأعمال حين تحدثه عن محاضرة علمية قيِّــمة عن كشف أثري أو مخطوطة نادرة، ومثله في ذلك أكاديميٌّ في علم الحشرات أو الأفلاك حين تحدثه عن فرص جديدة في عالم التجارة والأعمال؛ فكل واحدٍ منهما لن يحركه إلا ما لـــه فيه غاية وهدف.

وهنا وجدت أن عليَّ أن أعطي موضوع الرؤية الكونية حقه من العناية والاهتمام، لعل ذلك يفيد في أن تستعيد الأمة دوافعها وغاياتها وحراكها الإسلامي الإعماري الحضاري الخيِّــر، وفي أن تستعيد بذلك قيادتها وريادتها للحضارة الإنسانية، على ضوء رسالتها الحضارية الحياتية الخيـــرة المقدسة؛ لتستنقذ ذاتها، وتستنقذ الحضارة والإنسانية من ورائها.

والسؤال هل كان ما سبق من جهد في معالجات أزمات الفكر والمنهج والوجدان والتربية هباءً وغير ضروري؟ وهل كان الواجب أو الأولى أن أبدأ بدراسة قضية "الرؤية الكونية الحضارية القرآنية "وتجليتها قبل أن أتصدى لدراسة قضية الفكر والمنهج، وقضية الإرادة والوجدان، وتجليتهما؟ .

والجواب أنه لم يكن لي أن أتصدى لقضية الفكر والمنهج وقضية الإرادة والوجدان لولا أنني كنت متلبساً - ولو بشكل غير واع ولا كامل - هذه الرؤيةَ الكونيةَ الحضاريةَ القرآنيةَ الحياتية الخيِّــرة.

كما أنه ما كان من الممكن، من غير أن أدرس وأحلل وأتتبع قضية الفكر وقضية التربية، أن أدرك خبايا قضية الرؤية الكلية، وكيف تشوَّهت، وكيف أثر ذلك على مسيرة الفكر والوجدان.

وهكذا فإن القضية قضيةٌ دائريةٌ تتبادل التأثر والتأثير؛ لتحقيق الوضوح والفهم والتفعيل.

إنني حين تصديت، مؤهلاً بفهم مسيرة الفكر والوجدان، وأسباب انحرافاتها وتشوهاتها، أمكنني فهم الرؤية الكونية الإسلامية ودلالاتها، وفهم أهميتها، وفهم قضاياها، وفهم تشوُّهاتها، وأسباب هذه التشوُّهات، وكيفية التصدي لها، وكيفية

التعامل معها، وهكذا لم يكن بدٌّ لفهم الرؤية الكونية والوعي بها، من فهم إشكالية الفكر والوجدان، كما أن الرؤية كانت ضرورية لفهم إشكالية الفكر والوجدان المسلم.

على أي حال؛ فإنني في نهاية الجهد والمجاهدة مع قضية الرؤية الكونية الحضارية القرآنية سُعِدْتُ أنه أمكنني الإجابة بشكل واع ومقنع عن عدد من القضايا الأساسية الوجودية التي شَغَلَت البال في فهم الذات، ومعنى هذه الذات، وعلاقات هذه الذات بالله، وعلاقاتها بالآخرين، وبالمبادئ والقيم والمفاهيم؛ التي هي أدوات هذه الرؤية وآلياتها؛ لكي تتحقق وتتجسد في واقع الحياة، لإسعاد الإنسان والإنسانية، وتحقيق السعادة والرضا والطمأنينة للإنسان السوي {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً*فَادْخُلِي فِي عِبَادِي*وَادْخُلِي جَنَّتِي}الفجر٢٧-٣٠، فذلك ولا شك عاقبة أصحاب الرؤى العاملة المهتدية في الدارين، بإذن الله.

أرجو أن يكون فيما سطَّــرتُ فائدة وطاقة خيِّــرة حياتية إيجابية للقارئ {إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ}هود ٨٨

كما أنني أرجو أن يتفاعل المفكرون والقادة الإصلاحيون مع قضية الرؤية الكونية الحضارية القرآنية بمزيدٍ من الدراسة والتعميق، واستبطان هذه القضية تربوياً وتعليمياً وممارسةً في نفوس أبناء الأمة وكوادرها، وتعليمهم وتربيتهم، وفي بناء مؤسساتها، حتى تنهض الأمة وتحمل رسالتها، وحتى تتحرك الأمة وتنجح وتزدهر وتثمر حضارة الروح والعدل والإخاء والتكافل والرحمة والأمن والسلام **{**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**}** الروم: ٤-٥.

وبالله التوفيق، وعليه التكلان، إنه سميع مجيب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

عبد الحميد أحمد أبو سليمان

الرياض في٨/٨/١٤٢٩هـ الموافق لـ ٩/٨/٢٠٠٨م

الرؤية الكونية القرآنية الحضارية

الرؤية الكونية القرآنية هي البنية الأساسية للإصلاح:

لكل منظومة حضارية رؤية كونية تخدمها وتفعّلها منهجيةٌ في التفكير، كما أن لكل منهجية مبادئ تهتدي بها وتحدد لها مخرجات هذا الفكر، وكلما كانت هذه المنهجية على شاكلة رؤيتها الحضارية واضحة إيجابية كونية منفتحة تعبر عن جوهر هذه المنظومة الحضارية ورؤيتها الكونية، كانت هذه المنهجية فعَّالة منتجة، ولهذا كان الاهتمام الحضاري والأكاديمي المعاصر بمنهجية التفكير كبيراً ومركزياً؛ لأن منهجية التفكير هي التي تحدد من الناحية العملية فعالية كل منظومة حضارية وطبيعة آثارها الإيجابية أو السلبية على الأمم والشعوب التي تنضوي تحت مظلة تلك المنظومة الحضارية، بل على إسهاماتها في مسيرة الحضارة الإنسانية بوجه عام.

ومن الإشكالات التي تواجه الدارسين للمنظومات الحضارية ما يعتري بعض المنظومات ورؤيتها الكونية من غموض وتناقض في بناء بعض تلك المنهجيات وما يترتب على ذلك من تعارض وتناقض بين المنطلقات النظرية وبين واقع الممارسة في حياة تلك الأمم.

ولأهمية الرؤية الكونية وما يترتب عليها من منهجية فكرية؛ فإنَّه يجب أن تتمتع الرؤية الكونية ومنهجيتها الفكرية بالإيجابية والتواؤم والانضباط ؛ لذلك فإنَّه لا بد للدارسين من الوقوف عند ظهور أية سلبية أو تناقض في بناء الرؤية الكونية أو منهجية فكرها؛ **لأنَّ أي** اختلال ببنيتيهما أو ببنية أي واحدة منهما لا بدَّ أن ينتهي بالأمة إلى السلبية الحضارية وعدم الفاعلية الحياتية بكل آثارها السلبية في تكوين عقلية الأمة وتشويه منظومتها الحضارية؛ لينتهي الأمر - بالضرورة - بالأمة إلى التخلف والانهيار الحضاري.

ولمـّا كانت منهجية التفكير ومبادئها وقيمها ومفاهيمها تؤثر وتتأثر بالرؤية الكونية؛ لأنَّ منهجية التفكير ليست في الحقيقة إلا أدوات لتفعيل الرؤية الكونية الحضارية للأمة، لذلك فإنَّه لا يمكن للمنهجية ولا لمبادئها وما يتعلق بها من قيم

ومفاهيم أن تتسق بنيتها وأن تكون فعَّــالة، إذا لم تكن تتبني على رؤيــة كونيــة حضارية سليمة البنية واضحة الملامح والقسمات والغايات مستقرة في بناء ضمير الأمة لا تعكرها سلبيات ولا تناقضات، لأنه بقدر ما تتمتع بــه الرؤيــة الكونيــة وبالتالي منهجية فكرها ومبادئ هذه المنهجية، من سلامة المنطلقــات ووضــوح الغايات، وتناسق البناء، تصبح تلك الرؤية ومنهجية فكرها مصدر قــوة الدافعيــة والسلامة النفسية والاجتماعية في كيان الأمة، التي هي أساس مــا تحققــه الأمــة ومنهجية فكرها من النجاحات والإيجابيات والإبداعات الإنسانية الحضارية.

لذلك فإن الحديث عن الرؤية الكونية الحضارية، وتجليتها، وإصلاح بنيتهــا، يجب أن يأتي أولاً وقبل أن نتحدث عن مبادئ منهجية التفكير عامةً والإســلامية منها خاصة، وقبل أن نعدد هذه المبادئ، بل وقبل أن نتعرف على أبعادها، لهــذا فإننا نبدأ بالتعرف على الرؤية الكونية الحضارية الإسلامية التــي هــي بمنزلــة الجذور التي تنبثق منها هذه المبادئ والمفاهيم والقيم، والتي تحدد طبيعتها، وتمثل مرجعيتها والغايات والمقاصد الكبرى التي تعمل على تجسيدها، والتي يجــب أن تنعكس بانضباط وبأسلوب علمي مقنــع علــى بنيتهــا، ثــم علــى اســتخداماتها ومخرجاتها.

إن قلة الاهتمام بالتعرف على الرؤية الكونية الحضارية للأمة؛ التي هي بمنزلة الأرض والتربة التي تنبثق منها المبادئ والمفاهيم والقيم التي هي فــي الحقيقــة ليست إلا بمنزلة الزهرات التي تعطِي بها جذور الأشجار ما يتفتق عن زهراتهــا من ثمار، أو التي هي بمنزلة الأدوات والآليات التي تحقق بها الآلة منافعها، ومن ثم فإن عدم الوعي ببنية الرؤية الكونية الإسلامية وما تعبرعنه مــن المنطلقــات والمبادئ والقيم والمفاهيم التي تجسدها منهجية الفكر، وما بينها من علاقات؛ فإنه يصعب كشف ما يكون قد لحق بمنهجية الفكر من سوء الفهم والتشوهات وكل ذلك ولا شك يعد من أهم الأسباب التي أدت وتؤدي إلى جمود المنهجية، وإلى هامشية استخداماتها ومنتجاتها الفكرية، وإلى عدم فاعلية المبادئ والمفاهيم والقيم المنبثقــة منها في واقع فكر الأمة وواقع حياتها حياة الأمة، على الرغم من وفــرة تــراث

الأمة وأدبياتها من هذه الأدوات والآليات المنهجية، **ومن** هـذه المبـادئ والقـيم والمفاهيم الحضارية.

ولما كانت جذور منهجية فكر الأمم الإسلامية والتربة التي تنبت منها مفاهيمها وقيمها إنما هي تنبثق - ولا شك - من رؤية الأمة العقدية القرآنية الكونية، أو ما يدعى "رؤية العالم" لأنها هي التي تحدد فهم الإنسان فرداً وأمةً وجنساً لـذواتهم، ولمعنى وجودهم، وللغاية من هذا الوجود، وعلاقاته بالـذات وبـالآخر وبالعـالم وبالكون في كل أبعاد هذا الوجود، ومآل هذا الوجود، فإن هذه الرؤية هي الجذور والتربة والمنبع الذي يمثل القوة الدافعة العقدية التي تحدد طبيعة القوة الوجدانيـة المحركة للإنسان وللمجتمع، والتي تحدد توجهـاتهم وفـاعليتهم وترسـم وجهـة مسيرتهم في الحياة، ومدى قوة هذه المـسيرة الإنـسانية وفاعليتهـا الإعماريـة الحضارية في الوجود والتاريخ.

ولذلك كلما كانت هذه الرؤية واضحة جلية وإيجابية وسـهلة الفهـم والتمثـل والإدراك، وكلما كانت بعيدة عن التناقض وعن الخرافية والأوهام وكلمـا كانـت بعيدة عن السفسطة والتعقيد وبعيدة عن الإغراق في لغة التجريد والتنظير وفرض المسلمات القهرية التي تخفي العجز والتناقض، كلما مثَّـلت هـذه الرؤيـة قـوةً ضميريةً عقديةً تربويةً فاعلةً محركةً للفرد والمجتمـع، ومفعلـة لمنهجيـة فكـر المجتمع وكل ما لدى الفرد والمجتمع من أدوات الفعـل والحركـة وضـوابطها؛ المتمثلة في مبادئ منهجية فكره، وما تنطوي عليه هذه المنهجية من مفاهيم وقـيم وضوابط.

أما إذا كانت الرؤية غائمة قهرية تجريدية سلبية خرافية فإن ثروة الأمة مـن المبادئ والمفاهيم والقيم – والتي هي أدوات تفعيل الرؤية الكونية وضـوابطها - تظل كلماتٍ رنانة جوفاء تُـرَدَّدُ في المعابد والمحافل، وتبقى عزيزة مقدسة علـى الأرفف وفي بطون الكتب، لا تعبر إلا عن مجرد أحلام ومأثورات ومـواعظ لا تساوي في واقع الحياة والممارسة أكثر من حبر على ورق، بحيث لا تكاد تـرى لها أثرًا في حياة الأفراد، ولا في أداء المجتمعات، ولا في منهج تفكيرهم، ولا في فاعلية حركتهم وسلامة تعاملاتهم، مثلها في ذلك مثل قطع الآلة المفككة المتنـاثرة

على الأرفف، فهي برغم ما تحمله كل قطعة من قطعها من قيمة كامنة فيها، تظل في الواقع مجرد قطع مفككة ليس لها قيمة فعلية إنتاجية ما لم تجمعها رؤية وهيكلية كلية شاملة تجعل من تلك القطع آلة فعَّالة منتجة، تفعل تلك القطع الثمينة المتناثرة، وتحولها إلى أداة وآلة منتجة.

وهكذا فإن ما نرى ونلمس في حال الأمة المسلمة من عدم الوعي المستنير، وضعف الاهتمام العلمي المتعمق بالرؤية الكلية الكونية الإسلامية أو "رؤية العالم الإسلامي" وضبابية هذه الرؤية وتسطيح فهمها، وسلبية هذا الفهم وتشوهه ومحدوديته، فإن كل ذلك يُعَدُّ من أهم الأسباب الأساسية العميقة التي تسببت، وما تزال تتسبب، والتي تفسر ما تعانيه الأمة الإسلامية وشعوبها وأفرادها، وبشكل متعمق ومتسارع في عصورها المتأخرة حتى اليوم من تيه وسلبية وتدهور وتفكك وتخلف.

إن انبهار مثقفي الأمة بالنموذج الغربي القادر المنتصر؛ بسبب إنجازاته العلمية المادية، وبسبب موروث جمود الفكر، إلى جانب سيطرة روح التلقي والمحاكاة لدى مثقفي الأمة المتتلمذين، في هذه الحالة، على الحضارة الغربية؛ هذا السبب الذي جعلهم يتبنون، بوعي وبدون وعي، منهجية الفكر الغربي؛ بما يحمله في طياته من رؤية للحياة والكون، فلا ينصرفون بجدية علمية إلى إصلاح فكر أمتهم بالنظر والدراسة الناقدة لتراثهم ولمنهجية فكر أمتهم، وقبل كل ذلك، وبعد كل ذلك، لرؤية أمتهم الكونية؛ التي سبق أن جددت منطلقات الحضارة الإنسانية، وحققت للأمة أمجادها التاريخية، وكيف ولماذا تراجعت تلك الرؤية وتراجع معها فكرُ الأمة وبناؤها الاجتماعي وأداؤها الحضاري.

ولذلك؛ فإنه إذا لم يفق المثقفون المسلمون، بكل ألوانهم وتوجهاتهم، من غفوتهم، أو من انبهارهم، وإذا لم يفتح المفكرون والتربويون والإصلاحيون – بجدية وروح علمية نقدية بنَّاءة - ملفات تراثهم وحضارتهم، فلن يستطيعوا أن يتصدوا بفاعلية لهذا القصور والتخلف والتدهور الذي أصاب أمتهم، وهمَّش وجودهم. ومن المهم أن يدرك هؤلاء أن الملف الأول الذي يجب أن يُفْتَحَ من بين هذه الملفات هو ملف الرؤية الإسلامية، وحقيقة ما أصاب هذه الرؤية الكونية؛

لأنها هي القاعدة والمنطلق الذي يمثل الأساس العقدي والدافع الفكري والوجداني المحرك لدى الإنسان، وما لم يدركوا الأسباب التي أدت إلى غيمومة رؤية الأمة الكونية وتشوهاتها وسلبيتها، فلن يمكنهم أن يسهموا في استعادة الأمة لرؤيتها الكونية الحضارية؛ بإيجابياتها وفاعليتها وقوتها الدافعة المحركة في حياة الفرد والأمة، وفي تفعيل ثروات الأمة وأدوات حركتها وعلاقاتها من المبادئ والمفاهيم والقيم؛ بما يحقق ذات الإنسان المسلم ويحقق رسالة الإسلام ورؤيته الكونية الروحانية الإعمارية؛ لأن هذه الرؤية، وتبعاً لذلك منهجية فكرها هي القاعدة الأساس من البناء، ومن الجذور المغذية للحركة وللنمو، والتي هي مصدر طاقة الأزهار لنماء الأشجار.

وهكذا فإن السؤال المهم الذي كان يجب منذ بداية إرهاصات صحوة الأمة أن نلتفت إليه، وأن نوليه العناية الفائقة، وألا نمرَّ به مرور الكرام، فلا يقرَّ لنا قرار قبل أن نجيب عنه الإجابة الشافية أولاً، حتى قبل أن نتحدث عن تراث الأمة من المبادئ والقيم والمفاهيم، إن هذا السؤال هو السؤال المتعلق بماهية الرؤية الكونية للأمة الإسلامية ومنظومتها الحضارية، ولماذا تشوَّهت وهُمِّشَتْ؟ وكيف؟.

كيف تشوهت الرؤية الكلية الكونية الإسلامية؟:

بدءًا، نحن نعلم ما كان من أمر أمسنا المجيد، من تاريخ العهد النبوي، وصدر عهود الأمة الحضارية، كما نعلم أيضاً، ما كان من الحال المؤسف، في عهد الأمة اللاحق، وفي عالم اليوم؛ ولذلك فإنه لا يمكننا تفسير إنجازات العهد النبوي وصدر عهد الخلافة الراشدة (أبو بكر الصديق t وعمر الفاروق t) وشموخ رجاله، وعزم صفوفهم، وروعة أدائهم وإنجازاتهم التي تدفقت بها دماء نقية جديدة في شرايين حياة العالم وحضارته الإنسانية، ما لم يكن لذلك العهد وأولئك الرجال وإنجازاتهم التي غيرت العالم وجددت الحضارة الإنسانية، التي كانت حضاراته منها ما شاخ، ومنها ما أفلس، ومنها ما أدى مهمته وطواه الفناء، ما لم يكن لذلك العهد وذلك الجيل وأولئك الرجال، رؤية كلية كونية حضارية حيَّة فعالة، أمدتهم بالإيجابية والدافعية والقوة الفكرية والوجدانية التي مكنتهم من روعة الأداء الذي

بهر عالمهم المعاصر، وبقيت سيرته ومآثره وأداؤه في ضمير الأمة حتى اليـــوم؛ بحيث لم يقف الأثر المبهر لذلك التغيير الذي أحدثه ذلك الجيل في ذلك العالم، عند حد تغيير العقيدة والثقافة والهيئة والملبس للأمم والشعوب التي انطوت تحت لوائه، بل تعدى كل ذلك إلى بعد غير مسبوق ولا ملحوق حتى اليوم، وهو بعد تغيير لغة تلك الشعوب لتصبح العربية القرشية لغة بلاد شمال الجزيرة العربية وبلاد شمال القارة الإفريقية وجزء كبير من بلاد شرق إفريقيا حيثما وطئت الأرض أقدام ذلك الجيل وامتد في الأفق نفوذهم.

ولذلك؛ فإن السؤال الذي نحن والإنسانية اليوم في أشد الحاجة إلـــى معرفـــة جوابه هو: ما حقيقة تلك الرؤية التي تحلى بها ذلك الجيل وعرفها ذلك العهد؟ وما مصدرها؟ وكيف تأتتْ؟ وذلك بقدر ما نحن في حاجة إلى معرفة: لماذا؟ وكيـــف؟ على مدى القرون والعهود، بهتتْ وخفتتْ، وفقدتْ تأثيرها وفاعليتها ودافعيتها في أمة الإسلام، حتى أصبحت أمتها الوارثة في عالم اليوم، وبين الأمم، ضعيفةً سلبيةً مضطهدةً تفتقد الإيجابية والفاعلية والدافعية؛ ولتصبح مستضعفة استهلاكية ينهشها الجهل والفاقة والتخلف، ولا تستطيع أن تذود عن حياضها، ومهمشة ليس لها دور حضاري تؤديه، وحتى يؤول أمرها إلى الحال المزري الذي نراه ونشهده في عالم اليوم؟!

ومن المهم قبل أن نجيب عن هذه الأسئلة، وأن نحاول توضيح الرؤية الكونية الحضارية الإسلامية، أو ما يسمى أيضاً "رؤية العالم" أن نعلم، وأن نـــدرك، وأن نسلم، أن رؤية جيل الصدر الأول لا يمكن أن تكون - وحالنا هي النقـــيض مـــن حال صدر تاريخ الأمة - هي ذات الرؤية الكونية التي نتمثلها اليوم كإرثٍ ثقيـــلٍ من عهودنا المتأخرة، والتي هي في مجملها وتأثيرها رؤية كونية نظريـــة ســـلبية تكاد لا يعبر جُلُّ الرائج من خطاباتها إلا عن ترهيبات وذكريات وادعاءات وأحلام وأوهام لا تمثل إلا أعباء ومسؤوليات تُلْقَى على عاتق الإنـــسان المـــسلم بـــشكل عشوائي إملائي، وتتطلب – مستعينة بخطابات الترهيب - ما يكـــاد يـــصل فـــي خطاب الإنسان المسلم إلى حد "إلغاء الذات" لتحقيق تلك الرؤية الفوقية الإملائيـــة الترهيبية واستيفاء شروطها وإملاءاتها.

إن رؤيةً وخطاباتٍ بهذه المواصفات هي في كثير من جوانبها رؤيــة ســلبية، ومدعاة – بشكل واعٍ وغير واعٍ - إلى إحساس بالقهر والسلبية والتهميش؛ وهــذا يورث في النفوس فقدان الدافعية والحماسة لطلب المعرفة واستلهام السنن الكونية، والإسهام الإيجابي، في مشروع الاستخلاف والإعمار الحضاري الخير، ولا يمكن لهذه النفسية إلا أن تخلف وراءها، في مجملها، أمــةً ســلبيةً اتكاليــةً، مهمَّــشة مستضعفة غير فاعلة أو مؤثرة، تفتقد الغاية والدافعية والحماسة، ويتسم أفرادهــا ومجتمعاتها بالأنانية والسلبية وضعف روح التكاتف والتعــاون وانعــدام الــروح الجماعية، ولذلك فإنه لا عجب أن ينتج خطاب "إلغاء الذات" الإملائي الترهيبــي، إعراضًا، ورد فعل سلبياً، باللجوء إلى الدفاع غير الواعي عن الذات، وذلك بتلبس حالة "مركزية الذات" (النفس الحيوانية الطينية الأمارة بالسوء) التــي تتــسم فــي مجملها بالفردية الانطوائية السلبية والملتوية الأنانية، حتــى لا تــصبح ومــضات "الإحسان" وحسن الأداء إلا مجرد تعبير رمزي فطري عن مكنون دوافع الفطــرة الروحانية الكامنة في ضمير الإنسان (النفس الروحانية الضميرية اللوامــة)، وإلا استجابة سلبية أنانية لخطابات الإملاء والترهيب.

أما رؤية "العالم" أو "الرؤية الكونية القرآنية الحضارية الإسلامية" فما كان لها أن تحقق ما حققت في عهودها السالفة إلا لأنها – بالــضرورة - كانــت رؤيــة إيجابية تتسم بالدافعية و"تحقيق الذات" بأبعادها الفردية والجماعية؛ فيتفوّق فيها دافع الحب والرغبة والإيجابية والاقتناع **[وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّــهِ]** البقــرة١٦٥علــى مشاعر التخويف والترهيب والسلبية؛ وبذلك يحقق الإنسان في مشروع الحياة ذاتَه ومعنى وجوده، وذلك من خلال الفعل والإعمار الحضاري الخيِّــــر، والحماســة للأداء الحياتي في أبعاده الفردية والجماعية، المادية والروحية، أي أن الإنسانية في رؤية ذلك الجيل القرآنية الإعمارية الحضارية، تستجيب لدوافعها الفطرية الروحية وحاجاتها المادية، لا بدوافع النزعات المادية الآنية الأنانية العدوانيــة الحيوانيــة "الأمارة بالسوء"، القائمة على القهر والتظالم، حيث "الحق للقوة"، ولكن تــستجيب لفطرتها وحاجتها المادية بالأسلوب والوســائل والــدوافع والنزعــات الفطريــة الضميرية الروحية السوية، القائمة على قيم العدل والإحسان والإخــاء والــسلام

بأشمل المعاني، وحيث "القوة للحق" (النفس الروحية الضميرية "اللوامة")؛ بــذلك يحقق الإنسان ذاته ورضا خالقه سوياً فطرياً، ويستجيب بشكل حضاري إعمــاريٍّ خيرٍ وبناء؛ لتلبية حاجاته الروحية والمادية، وبناء مجتمعاته الحضارية الإعمارية، يقول الله سبحانه وتعالى: [فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَــرَ النَّــاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ] (الـروم: ٣٠) {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ }التكوير٢٧-٢٨. {لاَ يُكَلِّــفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّــسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَــا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا}البقرة٢٨٦، {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا}الطلاق٧، {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ}يوسف٥٣، {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ*وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} القيامة ١-٢، {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى*فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}النازعات٤٠-٤١، {يَــا أَيَّتُهَــا الــنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً* فَادْخُلِي فِــي عِبَــادِي* وَادْخُلِــي جَنَّتِي}الفجر ٢٧-٣٠، {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَــحَ مَــن زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} الشمس ٧-١٠، {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}الرعد١١، {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّــاسَ شَــيْئاً وَلَـــكِنَّ النَّــاسَ أَنفُــسَهُمْ يَظْلِمُونَ}يونس٤٤، حدَّثَنَا حَاجِبُ بْنُ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَرْبٍ، عَنِ الزُّبَيْــدِيِّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ كَــانَ يَقُــولُ: قَــالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: " مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَــى الْفِطْــرَةِ فَــأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِــنْ جَدْعَاءَ" رواه مسلم، الحديث ٦٩٢٦، {أَنــشَأَكُم مِّــنَ الأَرْضِ وَاسْــتَعْمَرَكُمْ فِيهَــا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ }هود٦١، {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِــي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }القصص٧٧، {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ }الأعراف٣١، {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}الأعراف٣٢، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا

يُحْيِيكُمْ}الأنفال٢٤، {مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}الإسراء١٥، {إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}التوبة١٢٠، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً }مريم٩٦، {وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}هود٩٠، {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ *وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}البروج١٣-١٤

وجاء في الحديث الذي رواه وابصة بن معبد أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: " ياوابصة أخبرك ما جئت تسألني عنه أو تسألني؟ فقلت يا رسول الله فأخبرني؟ قال: جئتَ تسألني عن البر والإثم. قلت: نعم. فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها في صدري ويقول: ياوابصة استفتِ نفسك، البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس. قال سفيان: وأفتوك"[1]

ولقد بدأ هبوب رياح الضبابية التي خيمت بشكل سلبي تدريجي على الرؤية الكونية الإسلامية من بعد العهد النبوي وصدر الخلافة الراشدة، بحكم اضمحلال جيل جماعة "الأصحاب" الذين رباهم القرآن الكريم على يد حامل الرسالة والمعلم والداعية الأمثل؛ وشهدوا النموذج النبوي، وحكمة تنزيل النبوة للرؤية والمبادئ والقيم والمفاهيم القرآنية الإسلامية على واقع العصر بأبعاده الزمانية والمكانية؛ وذلك بأثر السن والوفاة والاستشهاد وبحكم الضرورة العسكرية في مواجهة ثورة الأعراب الجاهلية المضادة، ثم بعد إخمادها، مع تكبُّد جيل الأصحاب الكثير من الأرواح بسببها، ثم في مواجهة إمبراطوريات العصر الفاسدة المعتدية الغاشمة الفارسية شمالاً وشرقًا والرومانية شمالاً وغربًا؛ وهذا أدى إلى تجنيد القبائل في جيش الفتح، وهم الذين لم تكتمل تربيتهم بعد، الأمر الذي نتج عنه غلبة القبائل العربية من "الأعراب" على جيش الأمة الإسلامية وقوتها العسكرية وحياتها السياسية تبعًا لذلك، وذلك لحداثة عهد هذه القبائل بالإسلام، وترسب مفاهيم القبلية العنصرية الحيوانية النافية للآخر في نفوسهم وقيمهم وتقاليدهم الاجتماعية، ولعدم توافر إمكانات محو تلك الآثار الجاهلية بالكامل، وبالتالي إعادة تربية هذه القبائل، وإعادة بناء مفاهيمهم وقيمهم الاجتماعية العنصرية الجاهلية؛ وذلك بسبب جسامة

ما فرض على الدولة الإسلامية الناشئة من صراعات مبكرة من قبل الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، وأيضاً لقسوة حياة الصحراء وصراعاتها القبلية على الموارد الطبيعية الضئيلة، كل ذلك لم يمكِّن ولم يعمق حتى اليوم، في كثير من الوجوه، مفاهيمَ القبلية الإسلامية الاجتماعية التضامنية التي تمثل حلقة من حلقات المؤسسات التضامنية الإسلامية، كالأسرة، وأخوة الرضاع، والجوار، والمواطنة (ميثاق المدينة) والأمة والدولة [لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ]الحجرات(١٣).

ومن المهم أن ندرك معنى غلبة "الأعراب" على الحياة السياسية للأمة الناشئة، وسيطرة السياسي على الديني، وتوظيفه لمصالحه الخاصة، وما ينجم عن ذلك من حتمية الاستبداد والفساد، وهو ما عبَّـــر عن كثير من تنبؤات الرسول صـــلى الله عليه وسلم عما سيكون بعده من انحرافاتٍ وفتنٍ، وما سيكون لذلك من أثر خطير على مسيرة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأمة، وأهم من ذلك تأثيرها الجوهري على الحياة الفكرية وعلى الرؤية الكونية الإسلامية.

فقبائل الأعراب، وبسبب طبيعة الجزيرة العربية القاحلة، كانت فـــي الجاهليـــة وقبل الإسلام، تعاني بطبيعة الظروف البيئية، "قصورًا حضاريًا"، في عزلتها فـــي جبال الجزيرة الشاهقة وصحاريها الواسعة، وهذا أوجب إنسانيًا، واستثناء، علـــى أمة الإسلام ودولته، العملَ - للمصلحة الإنسانية لهذه القبائـــل، وبكـــل الوســـائل المناسبة الممكنة، كأي "قاصر" - على إدخالهم في نظام إنساني حضاري تضامني غير عنصري حيواني هو مجتمع "الإسلام" فإما "حرب أو إسلام"، وذلك كمرحلـــة أولى من مراحل التأهيل الحضاري الاجتماعي التضامني التي لابد – إنـــسانياً - منها لتلك القبائل العنصرية المتوحشة البدائية، ولم يكن ذلك في الحقيقـــة إرغامًـــا لتلك القبائل على عقيدة الإسلام، ولكنه شكم وترويض إنساني مثله مثل شكم الخيل البرية الوحشية التي لا بدَّ لها من أن تشكم حتى تروَّض وتستأنس، ومثل الطفـــل الذي يأبى العلاج [قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] (الحجرات: ١٤).

ولذلك لم يكن التشديد على العقيدة والإيمان، بل كان التشديد على "الصلاة" و"الزكاة" التي تصنع لبنات أساس بناء الجماعة الانسانية الاجتماعية روحياً ومعنوياً لبلوغ أولى درجات النضج والأهلية الاستخلافية الحضارية الانسانية.

فالصلاة تمثل جماعة انتماء روحي عقدي وجداني فكري تتسم في ترتيبها ونظامها بالأداء الجماعي المنظَّم المتوافق الذي يتسم بروح الإخاء والمساواة دون تفرقة من قبيلةٍ أو لونٍ أو لسانٍ أو مكانةٍ اجتماعيةٍ، وهي صفات وترتيبات من أهم صفات الجماعة الإنسانية الحضارية الروحية الحقة وترتيباتها.

والزكاة هي تعبير اجتماعي عن روح الإخاء والتكافل الاجتماعي المنظَّم الضروري لقيام أي جماعة إنسانية حضارية.

وأما الإيمان بالله الواحد الأحد وبرسالة السلام والعدل والتراحم والإخاء الإنساني والاستخلاف الغائي الأخلاقي الحضاري التي جاء بها محمد بن عبدالله (عليه الصلاة والسلام) عن الله سبحانه وتعالى، وما يتبعها من ألوان التعبُّد لله "الحق" العدل الرحيم؛ أي تعبيد النفس والقلب اقتناعاً وإيماناً وطواعية، من صيام وحج وقصد الخير والعدل وإتقان الأداء وإخلاص العمل، وهو السبيل والرؤية الكونية الروحية الحضارية التي لا يدانيها رؤية كونية أخرى من تراث بقايا الأديان الجزئية الغابرة المحرَّفة، فالعلم والدعوة والزمن كفيل ببلوغ الإيمان بالله ورسالة العدل والتراحم والإخاء والسلام إلى القلوب والعقول الواعية.

وليس عبثاً ما جاء في مقولة الخليفة الحكيم الصديق (رضي الله عنه) حين همت قبائل الأعراب بالنكوص عن جماعة الإخاء والتعاون والتكافل والعودة إلى حياة قطعان ذئاب الصحراء صراعاً وغزواً وعدواناً وسلباً ونهباً وعنصرية قبلية وقطعاً للطرق: {والله لأقاتلن من فَرَّق بين "الصلاة و"الزكاة"}.

ولذلك لم يكن التشديد على العقيدة والإيمان، في تلك المرحلة بل كان التشديد على "الصلاة" و"الزكاة" التي تضع لبناتِ أساسِ بناءِ الجماعة الإنسانية الاجتماعية

روحيًا ومعنوياً، ولبلوغ أولى درجات النضج والأهلية الاستخلافية الحضارية الإنسانية الروحية[1]

وآيات سورة الأنفال والتوبة توضح معالم بدائية هذه القبائل وتوحشها وقصورها الاجتماعي وحاجتها إلى التأهيل الاجتماعي الإنساني الحضاري يقول الله سبحانه وتعالى: **[**كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ**]** (التوبة: ٨-١٢)، **[**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**]** (التوبة: ٩٧-٩٨)، {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}الجمعة٢

وظهرت الآثار السلبية لغلبة قبائل "الأعراب" على الحياة السياسة الإسلامية بانهيار الخلافة الراشدة وقيام (الملك الأموي العضوض)، كما كان من آثار ما بقي عالقاً بهم من البدائية والمفاهيم العرقية الجاهلية، سببًا في بدء غبش الرؤية الكونية الحضارية القرآنية التي تجسدت روعتها في أداء جيل "الأصحاب" من "المهاجرين" و"الأنصار" لتحل تدريجيًا محلها رؤية أعرابية "جل مصدرها خطابٌ خليطٌ أملته خاصيَّة أحوال قبائل الأعراب" والذي وجهه الرسول r إليهم بما كان يناسب حال تلك القبائل على عهده والذي نلمس فيه قسمات تلك الأحوال في بقايا "تقاليد" جاهلياتها و"عصبياتها" ، وفي أوصاف الأعراب في القرآن الكريم، وفي أحاديث الفتنة، إضافة إلى ما كان يستشرفه الرسول r ويحذر منه، من حال الأمة من

---

[1] - التصور الاجتماعي الحضاري هو الوجه الطفولي للقصور الجماعي الحضاري الإنساني، والمقابل للتصور الطفولي الفردي، فكلاهما يكون الفرد والجماعة فيه فاقدين للأهلية ومطلوباً تنميتهما؛ لتحصل مرحلة الرشد التي يتمتع فيها الإنسان بالحد الأدنى من القدرة على الخيار وتقرير المصير.

بعده بتأثير "الأعراب" وسواهم من الشعوب التي ستنضوي تحت لواء دولة الإسلام، في ظروف الصراعات الهائلة المنتظرة مع الإمبراطوريات الفاسدة العدوانية المحيطة بجزيرة العرب.

ومجمل الوصف النبوي لقسمات ذلك العهد، الذي قضى فيه لاحقاً قبائل "الأعراب" وقيادة الأمويين فعلاً على "نظام الخلافة الراشدة"، والذي حول تلك الروح القرآنية، وذلك النظام الشوري الراشد، إلى "نظام ملك وراثي مستبد عضوض" استبيحت فيه "المدينة المنورة" وهدمت فيه الكعبة، وقتل فيه الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، وأُبعد فيه ورثة جيل "الأصحاب" ومدرسة نهج الخلافة "الراشدة"، وأُلزموا المساجد بعيداً عن الحياة السياسية العامة، وقد حوَّلهم ذلك إلى نظريين مَدْرَسِيين، وحصر دَوْرَهُمْ – إلى حد بعيد - في خاصة شؤون الذكر، وشؤون الفرد والأسرة، وفي فتاوى عقود البيوع والمعاملات الفردية؛ وهذا أدى في واقع الحياة ونظامها السياسي إلى تسرب الانكفاء والغبش على الرؤية الكونية الإسلامية وتشوهها في كثير من جوانبها، وساعد ذلك بدوره تدريجيًا على توظيف الدين لمصلحة الحكام وأتباعهم، وعلى تدهور المؤسسات العامة وعلى تمكين الاستبداد، وتفاقم الفساد ومظالمه في الحياة العامة وفي بناء المجتمع بكل ألوانه: السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

وبهذا الإرث القبلي الجاهلي المبكر الموبوء، وبمواصلة المسيرة التاريخية للأمة الإسلامية والمجتمع المسلم، ودخول كثير من الشعوب إلى مجتمع أمة الإسلام بما خالط ثقافاتها ورؤيتها وإرثها الحضاري من موروثات الحضارات السالفة التي أفلست أو ماتت وأدت مهمتها في تاريخ الحضارة الإنسانية، ولاسيما الحضارة الإغريقية الصورية (المنطق) الأسطورية الرؤية (العقائد)، فازداد بذلك التخبط الفكري العقائدي في كثير من جوانبه، بمضي الوقت، وأدى إلى مزيد من غبش الرؤية الكونية الإسلامية، وتشوهها، وهذا بدوره أدى إلى مزيد من ضعف روح الأمة الإسلامية، وبدا ذلك واضحاً مع نهايات الحكم الأموي، في تمزق رقعة نظام الأمة السياسي، وتراجع منطلقاتها؛ التي جاءت وتنزلت في أصلها الصافي لتجديد الحضارة الإنسانية، ودفع عجلتها إلى الأمام برؤية الاستخلاف، ومبدأ

التوحيد، وغائية الخلق، وسننية الفطرة، وأخلاقية الأداء، والتـزام مبـدأ العـدل والإخاء والشورى والحرية، والمسؤولية، وسعي التسخير والإعمار.

وهنا فإن من المهم أن ندرك أنه لا يغير من حقيقة ذلك التراجع الاستخلافي الروحي التراكم الحضاري المادي الذي تحقق بمضي الوقـت، مـن موروثـات الشعوب من أعمال المهن والحرف، ولذلك لم يكن من الممكن، بمضي الوقت، أن تُخْفِي واجهةُ التراكم المادي، ظاهرةَ التراجع الروحي النوعي الـذي لحـق الأداء الإسلامي الحضاري، وتكلُّـس نظام مجتمع الأمة، وفساد ممارسـاته، وانهيـار مؤسساته، إلى أن بلغ التشوه العقدي والفكري والحضاري حدًا بعيدًا من التـشوه والسلبية، ومن تفشي الأمراض الحضارية الخطيرة من الخرافة والشعوذة، وبتأثير اكتساب مشروعيتها من محرف النصوص ومجتزئها وموضوعها، ومن تـسرب الخرافات الإسرائيلية والغنوصيات الباطنية؛ ليتنـامى غـبش الرؤيـة الكونيـة الإسلامية حتى أعتمت رؤية الأمة وتلاشت الغائية والدافعية في روحها لتتوقـف عجلة التقدم والإبداع والإعمار، وليتناهى الضعف، ولتفقد بذلك الأمة في فكرهـا ووجدانها مقومات الإيجابية الاستخلافية الحضارية؛ فانهـار عنـد ذلـك البنيـان الحضاري وانهدم العمران، وخيمت الخرافة والشعوذة، واختلطت الخطابات، وعلا خطاب القهر والترهيب، وعم التواكل والعجز، واستـشرى الـصراع والتفكـك والتخلف وانهيار المؤسسات، إلى الحد الذي رأينا منذ قرون عديدة، وما نزال نرى حتى اليوم، من حال التدهور المؤسف في حال الأمة الإسلامية حتى مـا عـادت أنظمتها المستبدة الفاسدة المهترئة المتكلسة على امتداد الأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط – إلا ما ندر - تستطيع حماية شعوبها من الاستغلال والقهر والسحق.

إننا لو أحسنا التأمل في مسيرة الفكر الإسلامي التاريخية لوجدنا أنه كان لكـل تلك العوامل مجتمعة، وخاصة صورية منطق الفكر الإغريقي وأسطورية عقائـده وفلسفته، والتي كان يجب التنبه لها، للإفادة من الجوانب الإيجابية فيهـا، وتلافـي الجوانب السلبية فيها، على ضوء منظومة الأمة العقائدية القرآنية الحضارية، فكان لتلك الغفلة في التعامل مع ذلك الفكر الإغريقي والحضارة الإغريقية أسوأ الأثـر على تلك المسيرة ووجهتها العقائدية والفكرية والحضارية؛ لتستنزف تلك الأخطاء

طاقة العقل المسلم باستخدامه وتوظيفه سياسيًا في سفسطات عقدية غيبية لاهوتية وهمية، ولتصرفه عن مهمته الحضارية التسخيرية الإبداعية الحياتية الإعمارية، وذلك فيما عرف بقضايا خلق القرآن الكريم وما شاكلها من أمور الغيب وقضايا القضاء والقدر وسواها من عقيم قضايا علوم الكلام والفلسفة، وغير ذلك من قضايا لا تتعلق بشؤون إدارة حياة الإنسان، ولا نفع يرجى من ورائها، واستنزفت في أوارها عقول العلماء والفلاسفة من علماء السنة والاعتزال، وعلماء الكلام والتصوف والتشيع، وفلسفات الإلهيات وضلالات الغنوصيات والخرافيات والشعوذات؛ فكان ذلك لسوء الحظ سوء استثمار وسوء استخدام للعقل المسلم وصرفه عن غاية فطرته السوية في خدمة الحياة، ووضعه في غير موضعه.

تعارض العقل والنقل: وهمٌ أم حقيقةٌ:

ولعل من أخطر الانحرافات والتشوهات التي أملتها ظروف تاريخية، أوقعت الفكر الإسلامي دون وعي في معركة ردِّ الفعل على أرضية فكر الآخر الصورية السفسطائية التي أصابت الرؤية الإسلامية الكونية الحضارية في الماضي، والتي ما زالت تعاني منها الأمة حتى اليوم، وهي أزمةَ تعارض "النقل والعقل" التي هي – من منطلقات الإسلام ورؤيته الكونية السننية - أزمة زائفة أوقعت الأمة الإسلامية في معركة فلسفية سفسطائية وهمية صورية لا وجود لها في الفطرة والواقع ولا معنى؛ لأن أي تعارض بين الوحي والعقل إنما هو – في الحقيقة - تعارض وهمي، لأن وظيفة العقل بأولياته في هذا المجال إنما هي في الجوهر بمنزلة آلة "الميزان"، الذي يقوم بمهمة المقارنة والموازنة بين كفتين من المعطيات والقضايا، فيتحقق من مدى توازن الكفة بالأخرى.

وكفتا التوازن فيما نحن بصدده هنا هما ليستا ذات العقل والنقل، وإنما هما "نصوص الوحي" "النقل" من ناحية، و"حقيقة الفطرة والسنن" من ناحية أخرى، أما العقل هنا فإن مهمته تحرير مدى التوافق والتناسق بين "النقل" و"الفطرة" التي فطر اللهُ الخلقَ عليها، والتثبت من أن الوحي (المسطور) يعبر عن الفطرة والسنن (المنظور) وأن "الوحي" الذي هو المقصود "بالنقل" يحقق غايات الفطرة ويوجهها،

أي أن النصَّ "النقلَ" يوافق "السننَ" ويرشدها ليحقق مصلحة الإنسان ويغني حياته، أو أن "نصوص الوحي" تعارض تلك الفطرة والسنن، وتعيق أداءها.

من الواضح هنا أن التعارض لا يمكن أن يكون بين الوحي (النقل) والعقل (الميزان)، ولكن التعارض يمكن تصوره، أن يقع – نظريًا - بين "الوحي" (النقل) وبين "الفطرة والسنن"، ومهمة العقل (الميزان) أن يحقق في قضية العلاقة بين "الوحي" و"الفطرة" و"هل علاقة الوحي بالسنن والفطرة" علاقة توازن وتآزر؟ أو هي علاقة تنافر وتعارض؟

وفي حالة التعارض يأتي هنا دور أوليات العقل في البحث والدرس والنظر العلمي العقلي لتحرير قضية التعارض، ولماذا شال الميزانُ ومالَ؟ وما هي الأسباب؟ وأين وجه الحق والصواب و"المصلحة" في الأمر؟ أهو قصور في فهم دلالة "الوحي" المنزل من الخالق سبحانه أم هو خطأ في فهم حقيقة "الفطرة" ومدلول "السنن" الكامنة في المخلوق؟[٢]

ولما كان الوحي من عند الخالق والفطرة والسنن حقائق من صنع الخالق فإنه، كما حقق العقل وبرهن على مدى التاريخ، لا مجال عند المراجعة العلمية الموضوعية، للتعارض والتنافر الحقيقي بين دلالة الوحي وهدايته وتوجيهه، وحقيقة الفطرة والسنن ومقاصدها؛ لأن الوحي لكل نظر علمي محقق منصف، هو تعبير عن الفطرة والسنن وترشيد لهما في سبل "تحقيق الذات" الإنسانية السوية، وتحقيق حاجاتها وغاياتها الحياتية كما خلقها الله وفطرها {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}الروم٣٠، يتساوى في ذلك - عند الله وحبه ومرضاته - متعة المعاشرة الزوجية والسعي للرزق الحلال والسعي لطلب المعرفة والعلم النافع، والدفاع والاستشهاد في سبيل نصرة الحق، وفي سبيل حماية الأمة، وحماية الأنفس والأموال والأعراض، ودفع عدوان المعتدين.

لقد كانت قضية "تعارض النقل والعقل"، التي وقع فيها العقل المسلم، من دون قصد، بتأثير المنطق الصوري الإغريقي، تمثل منعطفاً خطيراً في مسيرة فكر الأمة ورؤيتها الكونية ومسيرتها الحضارية، وما لم ندرك ما تنطوي عليه هذه القضية، وما ترتب ويترتب عليها في فكر الأمة ومسيرتها الحضارية من آثار

سلبية خطيرة على وحدة فكر الأمة، ووحدة مقاصدها، ووحـــدة صـــفها وصـــفاء رؤيتها الكونية الإسلامية، فإن الأمة لن تستطيع أن تعيد وحدة صفها وبناء فكرها، ولا أن تستعيد رؤيتها ودافعيتها وقدرتها وريادتها الإعمارية والعلمية الحـــضارية، وهذا ليس فقط خدمة يقصد بها استنقاذ الأمة، بل إن القصد من وراء ذلك أيـــضًا وضع الحضارة الإنسانية مجددًا على جادة العدل والإخاء والـــشورى والإعمـــار والسلام.

إنَّ الفلسفة الأسطورية السفسطائية ومنطقها الصوري الإغريقـــي كـــان فـــي جوهره منهجًا أسطورياً نظريًا وترفاً عقلياً للسادة المترفين "الأحرار" لا ينتمي إلى علم الواقع والفطرة والسنن الكونية، ولا إلى البحـــث والنظـــر والتأمـــل العلمـــي الموضوعي في الكون وحقائقه، سبيلاً وأسلوباً إلى تسخير الكون وإعماره، بل كان فكرًا مترفاً غارقًا في الذاتية والأسطورية والرؤى النظرية التي تستنفد طاقة الفكر في شؤون قد لايكون لها وجود أصلاً ولا طائل تحتها، وتنطلـــق مـــن التـــأملات الذاتية لجلسات السادة وشطحاتهم وأوهامهم (تهافت الفلاسفة)، وبذلك تسمح تلـــك الرؤية وذلك الفكر وذلك المنطق، بتشتت الرؤى واخـــتلاف المواقـــف وتمـــزق التوجهات؛ لا لأن الحقائق تملي ذلك بتعددها، بل لأن الأمر يعود إلى تعدد أهـــواء الفرقاء ومواقفهم، وكل ما يعنٌّ لهم من ســـقيم تـــأملاتهم وأحلامهـــم وأوهـــامهم وصحيحها، وإلى تعدد زوايا الرؤى الذاتية وشطحاتها وأهوائها التي ينطلقون منها ويتأثرون بها، في تأملاتهم على ما يناسب أهواءهم، من دون انـــضباط منطلـــق فكرهم وتأملاتهم بالواقع الموضوعي والحقائق العلمية للفطرة والـــسنن الكونيـــة؛ وهذا يفتح الباب واسعًا أمام اختلاف الأهواء والأغراض الذاتية، وينجم عن ذلـــك اختلاف المواقف والرؤى، فيكون ذلك المنهج الفكري بابًـــا مـــشرعًا للخـــلاف والشقاق لغير حاجة أو ضرورة، وعلى غير هدى ولا دليل موضـــوعي حقيقـــي، سوى التأملات الذاتية وفقًا لرغبات النفوس وأهوائها وأطماعها، وهو مـــا رأينـــا كيف استشرى أثره في أمة الحق وفي أمة التوحيد والتوحـــد مـــن تعـــدد الفـــرق والطوائف والنحل على غير هدى ولا أساس موضوعي، إلا – فـــي الجـــوهر – انطلاقاً من اختلاف الرؤى الذاتية واختلاف الأهواء والأغراض وتلبيسها ثياب

الحق والقداسة الزائفة، ولو رَدَّ هؤلاء المتخالفون المتشاكسون جلَّ قضايا خلافاتهم إلى صحيح نصوص الوحي من دون اختلاق ولا تجزيء ولا سوء تأويل، وإلـــى حقائق الفطرة والنواميس والسنن لذابت جُلُّ تلك الاختلافات - واعتصموا إخوة - بوحدة الحقِّ والحقيقة، ولم يتمزقوا إرباً وطوائف وعرقيات، ولم تتفرق بهم السبلُ لمصلحة أعدائهم.

ولما كانت غاية الإسلام والقرآن الكريم إحداث النقلـــة الحـــضارية العالميـــة بالرسالة الكاملة الخاتمة؛ لترشيد الإنسان، وتحقيق ذات فطرته الروحية والاستجابة البناءة الخيرة لحاجاته الإعمارية الحياتية بالعلمية السننية الأخلاقية، فإن احتـــضان الفكر الإسلامي لموروثات عرقية القبلية الجاهليـــة ثـــم احتـــضان الإســـرائيليات والغنوصيات والأسطوريات، واحتضان المنطق الصوري في صوره المختلفة، كل ذلك كان في الحقيقة نوعاً من الردة الفكرية والغبش العقدي، وعودةً إلى الـــوراء، أدت بالضرورة إلى انحراف الفكر واستنزاف طاقاته الإبداعية، وإلى غبش الرؤية الكونية الإسلامية، وتخبط مسيرة الأمة الحضارية بـــين العلـــم الـــسنني الغـــائي الأخلاقي الذي هو العنصر الإيجابي في بناء الحـــضارة الإســـلامية وتوجهاتهـــا وإنجازاتها، وبين النعرات العرقية الجاهلية والسفسطات النظريـــة، والغنوصـــيات الباطنية، والخرافات الإسرائيلية، والشعوذات المدمرة؛ التي مثلت في مجموعهـــا العنصر السلبي الذي نخر في أساس كيان الأمة وأساس بناء الحضارة الإســـلامية وهمش، بمضي الوقت وتراكم الانحرافات، دورها الحضاري الإعماري في عالم السنن والعلم والعالمية، وغيَّبَه، وأجهض مسيرته.

وثالثة الأثافي أن ما انتهى إليه منهج فكر الأمة من تشوّه وانحراف قد فتح بابًا واسعاً للخلاف الديني الذي سلك مسالك سفسطائية، وتهويمات فلسفية، وتخريفات باطنية وشعوذات كهنوتية، ومصالح ذاتية، وموروثات جاهلية مزقت وحدة الأمة، وعدَّدت سبلها، وقطعتها إلى فرق ومزق، وإلى طوائف وشيع لا تحتكم إلى العلـــم والنظر والتدبر الشمولي العلمي السنني الموضوعي المنضبط، فلم يبق للأمة بذلك أساس جامع من الوحي والفطرة والسنن، يكون فيه التعـــدد والاخـــتلاف تعـــددًا واختلافًا جامعًا في الأحوال الزمانية والمكانية المختلفة وينطلق على تعدده وتنوعه

من مشكاة واحدة لتحقيق مقاصد مشتركة على أساس من الحاجة، في ضوء ترشيد الوحي والاستجابة السوية للفطرة والسنن، بحسب كل حالة من حالات تعدد الواقع والحاجات الإعمارية الحياتية في الزمان والمكان.

وهكذا فإن "النقل" أو "الوحي" لا يمكن أن يتعارض – في الحقيقة - مع العقل؛ لأن العقل هنا الذي هو بمنزلة الميزان، ويقصد به البدهيات العقلية، وهو بذلك وسيلة الإنسان الأساسية والمبدئية للإدراك والفهم والقياس والتركيب، وهو بذلك أداة وليس موضوعًا، ودون هذه الوسيلة التي هي "بدهيات العقل" لا يمكن للإنسان أن يدرك أو أن يحكم أو يوازن أو يبرمج؛ لأن العقل هو وسيلة الموازنة والحكم والتركيب، وإلا فإنه لا مجال لإدراكٍ ولا موازنةٍ ولا حكمٍ، ولا إبداع وتركيب، وإنما يكون فكراً ورؤىً هي أقرب إلى الهذر والجهل والهوس، لا يقول به إنسان واعٍ مدرك عاقل؛ لأن أي خلاف في أي أمرٍ إنما يتم تحريره باستخدام العقل العلمي لقياس الدعوى وموضوعها والموازنة بينهما بكل الوسائل المنطقية العلمية الممكنة، بحسب طبيعة كل موضوع، وعندها فقط يمكن تحرير وجه الخلاف، ومعرفة وجه الحقيقة، وهل تتفق الدعوى في نهاية المطاف مع الحقائق الموضوعية؟ فإن أمكن الاتفاق والتوفيق، وأمكنت الموازنة العلمية، أمكن إدراك وجه الصواب في الأمر، وإلا كان الأمر في حاجة إلى مزيد من تمحيص القضايا، والحقائق لمعرفة أوجه الخطأ والقصور، واستدراكها، فيتوحد المنطلق وإن اقتضى الأمر وسائل وأساليب تعدد المعالجات لاختلاف القضايا والظروف.

ومما يجب ألا يغيب عن البال في هذا الصدد أننا لا نجد المصدر الأساسي للدين الذي هو القرآن الكريم ومفردات رؤيته الإسلامية الحضارية القرآنية تتحدث عن "العقل" ذاته، فكلمة "العقل" لم تذكر ولا مرة واحدة في القرآن الكريم، وما ذلك إلا لأن العقل ليس موضوعًا في ذاته ولكنه مجرد أداة ووسيلة للوعي والإدراك والموازنة والتركيب، وفقاً لمعطيات الحقائق والسنن الكونية؛ ولذلك فإن القضية التي تعني الإنسان بشأن "العقل" لا تتعلق بموضوع "العقل" ذاته، ولا ببدهياته، فهي حقيقة وفطرة لا تتغير ولا تتبدل، ولكن القضية تتعلق باستخدام "العقل" وقدراته، وتتعلق بسلامة ذلك الاستخدام حتى يمكن بواسطة أداة "العقل"

إدراك الواقع ومحاكمة الدعاوى والفرضيات إلى الحقائق والسنن العلمية الموضوعية للقضايا موضع الموازنة والتحرير، فإن تمَّ التوافق كان الصواب، وإلا فإن هناك قصوراً وخطأً في الإدراك يحتاج إلى مزيد من البحث والفكر والنظر؛ لمعرفة وجه الصواب في الأمر، ولذلك نجد القرآن الكريم يتحدث عن التفكر والتدبر والتعقل "يتفكرون" "يتدبرون" "يعقلون" "يبصرون".

ولذلك حين واجه العلماء المفكرون الأوائل مشكلة أن الفهم اللغوي المنطقي للنصوص قد تنتهي إلى ما يتعارض في فهمهم مع ما فيه المصلحة، ولاسيما حالة الأحداث المستجدة حين تقاس على سوابق مثيلاتها من "النصوص"، فكانوا يأخذون بما تقتضيه المصلحة وما يتفق مع روح الشريعة (الاستحسان)، حتى يتم معرفة وجه الخطأ فيما قاموا به من قياس.

وقد تطور هذا المنهج إلى ما عرف بـ"المقاصد"، وهو النظر في الجزئيات في ضوء الكليات لتحقيق روح الشريعة في واقع حياة البشر، ورعاية مصالحهم الدينية والدنيوية، وهي غاية رسالة الإسلام العليا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ) الأنفال ٢٤

ومن أهم أسباب إشكالية قياس حال حادث على نص حال سابق؛ أن عنصر الزمان والمكان لم يكن واضحاً، الأمر الذي جعل القياس جزئياً، برغم أن كليات الحال والمجتمعات في تغير وتطور مستمر لا ينفع معها القياس الجزئي.

وهكذا فإنه لا مجال للتعارض بين "المسطور" و"المنظور"، ولكن الإشكال والتعارض قد ينشأُ من قصور فهم "للمسطور" أو "للمنظور"، وهنا يكون تغليب الكليات والمقاصد حتى يتضح وجه الخطأ والقصور، من دون الإضرار بالناس ومصالحهم، فيما هو عدل و"معروف" و"إحسان".

إن حقيقة العقل كالآلة الحاسبة الإلكترونية "الكمبيوتر"؛ تعتمد مخرجاته على مدخلاته، فإن صحت المدخلات صحت المخرجات، وإن صح التصور وصحت الدعوى صح الفعل وعبَّر عن الواقع والحقيقة، وإلا كانت المدخلات سفسطات وشعوذات وأهواء وتهويمات، وكانت المخرجات مزيدًا من السفسطات والشعوذات والخرافات والأهواء والتهويمات، ويضيع السعي الإنساني الحضاري الحق

ويوظف العقل المسلم "صورياً" و"أسطورياً" في تحرير حسابات ثمن أوزان لـــبن البط والغربان وبيض الماعز والخرفان وقضايا "الحرية والجبر" و"خلق القرآن".

فإذا جعلنا في بؤرة وعينا أن خطاب القرآن الكريم إنما هو بكل بساطة تعبيـــر عن الفطرة الإنسانية السوية الغائية الإعمارية الأخلاقية، وعن سنن الفطرة والكون من حولها، والتي ليست هي إلا حقائق الخلق وجوهره، والتي جاء الوحي "النقل"، لا ليتجاوزها، أو ليتنكر لها، أو ليغيرها، وإنما جاء لكي يجعل جوهر هذه الفطرة السوية الإنسانية والسنن الكونية في بؤرة وعي الإنسان، وفي بؤرة إدراكه، وذلك لكي يرشِّد فطرة الإنسان، ويهدي مسيرته في سعيه لتحقيق ذاته وفطرته الإنسانية الروحية السوية، والاستجابة لحاجات فطرة خلقه ونوازعه التسخيرية الإعماريـــة الحضارية، وبالأسلوب والوسائل البنَّـــاءة الصحيحة، وبذلك يهتدي سعي الإنسان ويتمكن من حسن استخدام سنن الكون من حوله، وتسخيرها بالأســـلوب الكـــفء الخيِّر البناء لتحقيق فطرة ذاته الروحية والحصول على حاجات فطرته الماديـــة؛ فيرتقي بوجوده، ويحقق ذاته وسعادته روحيًا وماديًا، في هذه الحياة، وباتجاه الملأ الأعلى والوجود الأسمى، وذلك بالسعي بالإصلاح والإتقان والتسخير والإعمـــار، وبالعطاء والبذل، لأن قيمة الإنسان الحقيقية ونفعه ورضاه عن ذاته إنمـــا يتحقـــق بالسعي والقدرة والإبداع والنفع والعطاء، لأن آفاق الإنسان في الإبـــداع والنفـــع والعطاء لا حدود لها، في حين حاجاته المادية الحقيقية إن سعى حقيقة مـــن أجـــل إشباعها فقط، ما أقلها وأيسرها، ولذلك فإن قيمة الإنسان الحقيقية تكمن في النفـــع والإصلاح والعطاء، والإبداع، والخسارة والعناء تكمنـــان فـــي الأنانيـــة والـــشح والاكتناز {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْـسَنُ عَمَـــلاً وَهُـــوَ الْعَزِيـــزُ الْغَفُورُ}الملك٢، {وأَنفقوا خَيْراً لِّأَنفُسكُمْ وَمَـــن يُـــوقَ شُـــحَّ نَفْـسه فَأُوْلَئِـــكَ هُـــمُ الْمُفْلحُونَ}التغابن ١٦ ، {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفقُواْ ممَّا تُحبُّونَ وَمَا تُنفقُواْ من شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ به عَليمٌ }آل عمران٩٢، {وَمَا تُنفقُواْ منْ خَيْرٍ فَلأنفُسكُمْ وَمَـــا تُنفقُـــونَ إِلاَّ ابْتغَاء وَجْه اللّه وَمَا تُنفقُواْ منْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُـــونَ }البقـــرة٢٧٢ ، {وَأَنفقُواْ في سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْديكُمْ إِلَى التَّهْلُكَـــة وَأَحْـــسنُوَاْ إِنَّ اللّـــهَ يُحِـــبُّ الْمُحْسنِينَ}البقرة١٩٥ ، {مَنْ عَملَ صَالِحاً فَلِنَفْسه وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـــامٍ

لِّلْعَبِيدِ}فصلت٤٦ ، {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً}النساء١٢٤، {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}القصص٧٧

ومن هنا فإننا لو تمعّنا في حقيقة الرؤية الإسلامية القرآنية لوجدنا أن "الوحي" (المسطور) يعبر عن الفطرة والسنن (المنظور)؛ لأن الوحي يعبر عن حقيقة الفطرة ويضعها في بؤرة وعي الإنسان، ومن ثم يرشد سعي الإنسان وإرادته حتى يتمكن الإنسان من هدايتها وترشيدها؛ لتحقيق ذاته وغايته الإبداعية التسخيرية الإعمارية الخيِّرة، وبذلك يحقق "حبّ الله ومرضاته" بتحقيق فطرته السوية التي من أجل تحقيقها خلقه الله واستخلفه وفطره عليها، {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ*سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}فصلت٥٢-٥٣

وهكذا فإن الفهم الصحيح للوحي لا يمكن أن يكون قهرًا ولا قسرًا ولا إلغاءً للفطرة، ولا إضافة أعباء وتكاليف لا أساس لها في معنى وجود الإنسان وفطرته، أي إن الوحي لا يمكن أن يكون تشويهًا ولا "إلغاءً" للفطرة الربانية، ولا للذات الإنسانية، وبذلك لا يكون الوحي الإلهي الحقيقي إلا ترشيداً لمسيرة الإنسان الحياتية، ويهدف إلى "تحقيق الذات الإنسانية السوية" والاستجابة لحاجاتها ونوازعها بالأسلوب السوي الإيجابي المبدع الرشيد.

فالوحي حين يقرر مثلاً أن الإنسان خلق خليفة في الأرض فهو لا يكلف الإنسان هذه الوظيفة، ولا يحمّله بهذا التقرير عبئًا إضافيًا، لكن كل ما في الأمر أنه يضع هذه الحقيقة الفطرية في بؤرة إدراك الإنسان؛ لأنه بالفعل خلق خليفة قادرًا متصرفًا في شؤون الأرض والدنيا، وهو مؤهل بالقدرات والأدوات والوسائل اللازمة لهذا التصرف والاستخلاف، فيرشده الوحي بالوعي الصحيح بفطرته، ويجعل هذا الفهم والإدراك الصحيح في بؤرة وعيه، وبالتالي يبصره بما يرشد سعيه ويهدي مسيرة حياته؛ ليحقق ذاته وسعادته في الدارين.

ومثل ذلك أيضاً ما يقرره القرآن الكريم من أن الإنسان حُمِّلَ الأمانـــة، فهـــو أيضاً لا يقرر ولا يكلف الإنسان أمرًا ليس حقيقة هو في أصل خلقـــه وفطرتـــه، فالإنسان يدرك ويعلم ويحس بفطرته وفي قرارة نفسه وضميره، نوازع الإصلاح الروحية، ونوازع الإفساد الطينية المادية، ونوازع العدل ونوازع الظلم، ونـــوازع الخير ونوازع الشر، ويحس ويدرك فطريًا أن في وسعه، أي في حـــدود معينـــة، القدرة على التصرف والخيار، وأن الأمر إنما يعود إلى الإنسان، وإلى إرادته في أي السبيلين يسلك؟ وأي الطريقين يختار؟ والوحي يحث الإنسان على إعمال إرادة الخيار، ويرشِّـــد خياره، وهو يعلم في قرارة نفسه أن ما يحثه عليه الـــوحي هـــو القرار الصحيح الرشيد، والوحي في ذات الوقت يطمئن الإنسان إلى عدل الله، وأن مسؤوليته تقع في حدود قدرته، وفي حدود إدراكه وإمكاناته [لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ] (البقرة: ٢٨٦) [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّـــى نَبْعَثَ رَسُولاً] (الإسراء: ١٥).

والقرآن الكريم حين يطلب – على سبيل المثال - من الإنسان القـــراءة مـــثلاً ويغريه بها (اقرأ) فهو لا يكلف الإنسان أمراً ليس في أصـــل فطرتـــه وطبعـــه، فالإنسان قد "قرأ" قبل أن يُنَزَّل القرآن، وسيظل الإنسان - بغض النظر عـــن أي اعتبار آخر – يقرأ؛ لأن ذلك في أصل فطرته، ولأنـــه دون القـــراءة والكتابـــة، بصورها المختلفة لا يكون الإنسان خليفة وحضارة وإعمارًا، فالقراءة - ولا تكون قراءة من دون تدوين وكتابة - هي وسيلة أساسية فطرية لقيام الحضارة الإنسانية وتوارثها وبقائها ونمائها ولذلك فإن القرآن بهذا التقرير بصيغة الطلب أو الأمـــر (اقرأ) إنما يضع هذا الأمر الجـــوهري لإنـــسانية الإنـــسان وأدائـــه الحـــضاري الاستخلافي في بؤرة وعيه واهتمامه، لكن هذا التقرير إنما هـــو بغايـــة ترشـــيد استخدام هذه الأداة، وهذه القدرة؛ لتكون وسيلةَ خيـــرٍ، ومـــن منطلـــق الإيمـــان والإعمار والغائية الأخلاقية والموضوعية، يقول الله سبحانه وتعالى: [قَـــالَ رَبُّنَـــا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى] طه: ٥٠، [فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ] الروم: ٣٠.

[اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى] العلق: ١-٨.

[وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ] البقرة: ٣٠-٣٣.

وهكذا، فإن الرؤية الإسلامية الكونية الحضارية، حين تُجَلَّى صورتها القرآنية، وتَستصحب الذاكرة معها، ما تحقق بها على عهد النبوة وحكمة تنزيل النبوة، لهذه الرؤية في ظروف ذلك العهد الزماني والمكاني، وبذلك التنزيل والتطبيق في واقع حياة الإنسان تقوم الحجة الدامغة على إمكان تطبيق هذه الرؤية في واقع الحياة الإنسانية، ويتضح أنه لا مجال في هذه الرؤية للتعارض مع الفطرة والسنن، وما على الباحث إلا أن يلتزم المقابلة والموازنة العقلية العلمية الموضوعية بين الوحي والفطرة، أما أوليات العقل، وأدواته من الحواس فهي الوسيلة الإنسانية والميزان لتحقيق تلك المقابلة والموازنة؛ بهدف الوصول إلى الحقيقة.

ولما كانت الفطرة والسنن والواقع الكوني هي حقائق موضوعية فإن معرفة موضع الصواب والخطأ في أي قضية إنما يتم في علاقة ذلك بالوحي بتحرير الحقيقة الموضوعية، في الفطرة والسنن الواقع من ناحية، ومن ناحية أخرى حسن إدراك الرؤية القرآنية في الأمر ووجه التوحيد والإرشاد بصددها، فإن ثار خلاف أو مظنة في تحقيق المصلحة، فإن المطلوب هو مزيد من تحرير الفهم والإدراك في فهم الوحي، أو معرفة الحقيقة العلمية بشأن الواقع والسنن حتى يصبح وجه الحقيقة في موضوع الخلاف بيناً يتجلى فيه وجه الحق والباطل، ووجه الخير والشر، ووجه الإصلاح والفساد، دون غبش أو سفسطة، وما وراء ذلك ليس تعدداً

للحقيقة، ولكنه اختلافٌ للمواقع والزوايا في الحالات، في الزمان والمكان؛ وهذا إذا أُحْسِنَ فهمه فإنه يوحِّـــد ولا يفرِّق؛ ذلك لأنه وحدةٌ في تنوُّع، وتنوُّعٌ في وحدة.

الرؤية الإسلامية بين الأصحاب والأعراب:

لو التزم المسلمون بعد جيل "الأصحاب" "الرؤيةَ الكونية القرآنيـــة"، وأدركـــوا العلاقة الموضوعية بين "الوحي" و"الفطرة" (المسطور والمنظور) لحفظنا وحـــدة الأمة، ولسبقنا إلى بناء العلوم الاجتماعية الإسلامية، ولما كان هناك مجال حقيقي للتفرق والتمزق شيعًا وأحزابًا متناحرة، ولما كان بإمكان نقابات "الفراعنة" ونقابات "الكهان" بطلاءات علمانية ليبرالية ديموقراطية أو شموليات مادية أو دينية، تضليل جمهور الأمة وتمزيق صفها ووحدتها، وتلبيس الحق بالباطل، وتلبيس الأغـــراض الذاتية لباسَ الحق والمنطق، بعيدًا عن مصلحة الإنسان المسلم والأمـــة المـــسلمة، وبعيداً عن الحقائق الموضوعية، ولما أمكن جعـــل الخيـــارات الذاتيـــة الزائفـــة، والمسلمات والفرضيات غير المحققة، وغير المبرهنة وغير المطابقة، من وجـــه الحقيقة العلمية السننية، وكأنها حقائق ومسلمات حقيقية موضوعية، فيضيع معهـــا الحق، والمصلحة، ويتمزق الكيان، وتتفرق السبل.

لو أن الفكر الإسلامي التزم الرؤية القرآنية الكونية الحضارية، والتزم مفاهيم القرآن، ولم يقف عند ذلك الجزء من الخطاب النبوي "الحديثي" الموجـــه – علـــى وجه الخصوص - إلى "قبائل الأعراب"، لأدرك حكمة تنزيل خطابه – فيما يخص أولئك الأعراب- على قدر أحوال تلك القبائل وحاجتهم ومداركهم في تلك المرحلة الحضارية التي كانوا يمرون بها، وهو مما حُذِّر منه بالقول (خاطِبوا الناس علـــى قدر عقولهم)[٣]، **وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود أنه قال: (ما أنـــت بمحـــدثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنةً)**، وهذا أدى في منهج الفكر إلى عدم الوعي، وعدم إدراك طبيعة خصوصية ذلـــك الخطـــاب النبـــوي، الزمانيـــة المكانية، وسهَّل لاحقاً مهمة الانزلاق إلى تقبل كثير مما تـــمَّ دسُّـــــه - لأهـــداف ووسائل لا حصر لها - في الأدبيات الإسلامية من المفاهيم والتقاليد والموروثات القبلية والإسرائيليات والغنوصيات والشعوذات والتخريفات، فلبَّست الرؤية القرآنية

الكونية بغبش دواعي تلك الظروف والموروثات؛ وهو ما أضعف على المدى زخمَ مسيرة الحضارة الإسلامية، وروحهـا، ودافعيتهـا ومـنهج فكرهـا ومبادئهـا، ومفاهيمها، في التزام التوحيد الجـامع والغائيـة الأخلاقيـة والعلميـة الـسببية والتسخيرية الإعمارية، حتى طغت بمر القـرون تلـك الغـشاوات والتـشوهات والانحرافات، وحجبت كثيراً من هدايات الرؤية القرآنية الكونية الحضارية، التـي هجرت في الواقع؛ ليصبح القرآن الكريم للتبرك وطلب الأجر بالتلاوة والحفـظ، فينعدم الاجتهاد، ويسود المبالغة في طلب نصوص التطبيقات التاريخيـة، وبفهـم لغوي، ولتركن الأمة إلى التواكل والجمود والـسلبية والخرافـات والسفـسطات، وتتعدم – في عصورها المتأخرة - الدافعيةُ الحضاريةُ الإعماريةُ؛ لينهـار نظـام اجتماعها وبنيان حضارتها، وينهدم ركن العلم والقوة فيها، وليخبو في كيانها نـور التدبر والنظر والإبداع والتسخير.

إن غلبة رؤية "الأعراب" وما حملته معها من تقاليدها ومفاهيمها الاسـتئثارية الأنانية التسلطية العرقية القبلية، ثم ما تلا ذلك من رؤية الـشعوب التـي دخلـت الإسلام، وما حملته معها من تقاليد ومفـاهيم مـن سـالف تاريخهـا وثقافاتهـا وحضاراتها التسلطية الاستبدادية، وبسبب عدم التفرقة الدقيقة بين الخطاب القرآني اللازماني واللامكاني وبين الخطاب النبوي التطبيقي الموجه إلى الأعراب الوثنيين وظروفهم الزمانية المكانية الذي يركز على أساسيات الأركان، وبنـاء الجماعـة والمجتمع (الصلاة والزكاة) {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْـلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}الحجرات١٤،ولإخـراجهم مـن حـالتهم البدائيـة الاجتماعية الحضارية، إلى أساسيات منطلقات آفاق المجتمع الإنـساني القرآنـي الحضاري العالمي (إمـّا حرب أو إسلام)، فكان لكل تلك العوامل – ومنها غلبة القبلية العرقية ثم الشعوبية الاستبدادية السياسية - أثرهـا فـي تـشويه الرؤيـة الإسلامية القرآنية التي حملها "الأصحاب"، وهذا أدّى إلى غلبةِ خطـاب الوعيـد والترهيب الموجه للمنكر المعاند المعادي، وبالتالي - وبتأثير كل تلـك الخلفيـات وتخليط الخطابات بين المؤمن والمعاند، وبين المخطئ والمصرّ، وبـين الـضّال

والمنكر المعاند المعادي- أمكن لاحقاً تراجع فكر الأمة وأدائها الحضاري أمام ما واجهته من تحديات وتطورات.

ولذلك فإن من المهم هنا التفرقة بين "رؤية الأصحاب" الكونية القرآنيـــة التـــي بهرت العالم من حولهم، وبين "رؤية الأعراب" التي عبَّـــرت خطاباتها عن الحـــد الأدنى من توجيه الخطاب النبوي لتلك القبائل البدائيـــة بحكـــم دوره فـــي موقـــع السلطان في المجتمع ، والذي هدف من ورائه (إمـــّا حرب أو إسلام) إلى إرساء بنية أساسية لمجتمع حضاري إنساني بين تلك القبائل الوثنية البدائيـــة فـــي أدنـــى صوره الاجتماعية الحضارية وأبسطها، وذلك بالتركيز علـــى أركـــان الإســـلام، ولاسيما ما كان منها يتعلق بـــ "جماعة" الصلاة و"تكافل" الزكاة.

وشتان بين رؤية "الأصحاب" القرآنية الإيمانية الحـــضارية، ورؤيـــة قبائـــل "الأعراب" البدائية وخطابهم "على قدر عقولهم"، قال تعالى: {قَالَوا آمَنَّـــا قُـــل لَّـــمْ تُؤْمِنُوا ولَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا}الحجرات١٤، وقال أبو بكرٍ الصديق رضـــي الله عنـــه مقولته الشهيرة: (والله لأقاتلنّ من فرّق بينَ الصلاةِ والزكاة).

كان الأصحاب حول الرسول صلى الله عليه وسلم تلامذة على القرآن الكريم، ورؤيته الكونية الكلية الحضارية، من بدء خلق الإنسان، حين استخلفه الله تعـــالى في الأرض : {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}البقـــرة٣٠، إلـــى أن يبلـــغ الوجـــود الإنساني غايات وجوده في التسخير والإعمار، وأن يبلغ الغاية في الإبداع والزينة والتسخير والإمتاع والإعمار حين يرث الله الأرض ومن عليها [حَتَّىَ إِذَا أَخَـــذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا] يونس: ٢٤، فقد كان الأصحاب، تلامذة القرآن الكريم، يجلسون إلى كـــل عـــشر آيات من القرآن، لا يتجاوزونها، إلا أن يتعلموها ويعملوا بها، وليتم ذلك على عين المصطفى r معلمًا ونموذجًا ومرشدًا "خلقه القرآن" [وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ]القلم: ٤. [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ] الأنبياء:١٠٧ [إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ] الحجرات:١٣ [الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً] الملك:٢.

فلا عجب أن تكون الكتابةُ استثناءً يأمر به رسول الله r كلَّ من كتـــب مـــن حديثه شيئًا "أن يمحوَه"؛ لذلك لم يحظَ الحديث في العهد النبوي والراشد بالـــضبط

والدقة التي حظي بها القرآن الكريم، وما هذا إلا لأنَّ لأن القــرآن الكــريم هــو مصدر الرؤية الكونية الحضارية اللازمانية واللامكانية، وهذا لا يتعــارض مــع أمره(صلى الله عليه وسلم) لقومه أن يسمعوا ويطيعوا أوامره وتوجيهاتــه لكونــه "سلطانًا" ورئيس دولة، وألا يتهاون في طاعة أوامره أحدٌ من الرعية بحجة أن تلك الأوامر ليست في القرآن؛ لأن ذلك النوع من التنزيل والتفصيل ليس مــن مهمــة القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم دستورٌ ورسالةٌ خالدةٌ ودعوةٌ وشــريعةٌ ورؤيــةٌ كونيةٌ حــضاريةٌ عبــر الزمــان والمكــان ، {طــسم * تِلْــكَ آيَــاتُ الْكِتَــابِ الْمُبِينِ}الشعراء١ - ٢،{مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ}الأنعام٣٨،{كِتَــابٌ أُحْكِمَــتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}هود١، {الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّــاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّــورِ}إبــراهيم١،{بَــصَائِرُ لِلنَّــاسِ وَهُــدًى وَرَحْمَــةٌ لِّقَــوْمٍ يُوقِنُونَ}الجاثية٢٠،{اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ}الشورى١٧، وهو أمر غير أمر تعليمات (قوانين) إدارة المجتمع، وتدبير شؤونه في الزمان والمكان فــي ضوء الرؤية والمبادئ والمفاهيم القرآنية بأبعادها اللازمانية واللامكانية، وحكمــة تنزيل النبوة في الزمان والمكان {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِــكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}البقرة١٢٩، وهو أيــضًا ما يفسر تحرج الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ومنعه الأصحاب الــذين أخــذوا ينتشرون في الأمصار، يحدثون الناس أحاديث رسول الله r ، وأَمْرَهم بالعودة إلى المدينة؛ لأن أهل المدينة من الأصحاب يعلمون ما تعنيه هذه الأحاديــث، والغايــة منها، والظروف التي صدرت عنها.

بل إننا لو تمعنا في تاريخ سيرة علماء الأمة، لرأينا أثر تسلط السياسي القبلي والشعوبي على مقاليد الأمة، بعد هزيمة ورثة مدرسة المدينة، وعزلهم عن شؤون الأمة العامة وصرفهم إلى شؤون الأفراد (الذِّكْر والأحوال الشخصية)، فإننا نجــد أن رأس جيل المَدْرَسِيين الإمام أبا حنيفة النعمان، صاحب مدرسة الــرأي، كــان القرآن الكريم والرأي والتدبر في القرآن الكريم، وحكمة تنزيل النبوة على الزمان والمكان، هما عمدة منهجه الفكري، واكتفى في الجملة في الاستدلال بالنزر اليسير من روايات سنة الرسول r ، وهذا لا يعني أنَّ نصوصَ السنة وحكم تنزيلهــا لــم

تكن حاضرةً في ذهن الإمام أبي حنيفة وسواه من الأئمة المجتهدين ، ولهذا نجد أنَّ الإمامَ مالك أيضاً في موطئه مثله مثل الإمام أبي حنيفة يوثِّق القليل من الأحاديث التي حررها واستبقاها في كتابه الموطأ (خمسمائة حديث)، وكان إلى ذلك في توخيه للسنة يعتمد "عمل أهل المدينة" إذا خالفته الروايات؛ ذلك لأن عمل أهل المدينة عنده يمثل أكثر من سواه ما جرى عليه العمل في العهد النبوي؛ ولكن الإمامَ أحمد بن حنبل آخر الأئمة الأربعة الكبار؛ الذي تباعد، في العراق الذي كان مهد عدد من الحضارات البائدة، وفي ظروف تحولات خطيرة في بناء الخلافة العباسية بعد نكبة البرامكة وصراع الأمين والمأمون، واختلال توازن الفرس والعرب لصالح فئة واحدة هي جند الترك على عهد المعتصم، وهذا باعده أكثر من سواه من أئمة المذاهب عن طبيعة مجتمع العهد النبوي وظروف تطبيقاته، ولذلك نراه يجمع حوالي أربعين ألفاً من روايات الحديث النبوي في مسنده، والتي فيها الكثير من الضعيف[٤]، اختارها من مئات الآلاف من الأحاديث والروايات التي يعلمها، وذلك ليستعين بها في مواجهة أزمة الفكر المتصارع المنفلت؛ وهذا العمل قد ساعد وجعل ظاهرة جمع الأحاديث وموسوعاتها ومستدركاتها تتفاقم، ليس للإفادة بالدرجة الأولى بحكمة التنزيل، ولكن لتكون قداستها – للأسف - لمن سيأتي بعد ذلك في عهود التقليد – وفي أغلب الظن من دون قصد، سنداً يستخدم القداسة – دون عناية مناسبة بنقدِ المتنِ وضبطه بمفاهيم القرآن ومقاييسه؛ لمزيد من تحرير أداة السند وفرز الصحيح من الضعيف والموضوع - ليكون أداة قهر وترهيب في مواجهة هجمات تأثير الفلسفات والثقافات والغنوصيات الوافدة من ناحية، وما نجم من آثارها في فكر الفلاسفة المسلمين والمتصوفة وحركات الاعتزال والتشيع السياسي وعلم من ناحية أخرى، وبسبب ضعف القدرة على الاجتهاد والتجديد، وعدم القدرة على تنزيل المفاهيم القرآنية على متغيرات الواقع في الزمان والمكان؛ وذلك بفعل تأثير طول عزلة العلماء، وضعف معارفهم العلمية في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية وسواها فتكون النصوص التطبيقية التاريخية التراثية أداةً حاضرة ومخرجاً سهلاً لعجزِ الفكر وعدم القدرة على توليد فكر التجديد والاجتهاد.

كل ذلك أسهم في مزيد من ضعف العلاقة الفكرية بالقرآن الكريم والرؤية القرآنية الكونية الحضارية، والقدرة على التعامل المفاهيمي الكامن فيها، وتنزيلها على الواقع المتغير والمتطور (عامل الزمان والمكان)؛ ليورث هذا القصورُ الأمةَ غبشاً في الرؤية، انتهى بجمهور علماء الأمة إلى التركيز على شؤون "الذِّكر"، الذي أطلق عليه "العبادات" في حين أن جميع أفعال المسلم، إذا صح القصد منها، هي كلها عبادة، وكذلك التركيز على "قوانين" الأحوال الشخصية وفتاوى المعاملات والعقود الفردية التجارية، التي هي في جُلِّ الأحوال تكرارٌ بمفهوم لغوي لسالف ما جرى منها، ولم يبق للشأن العام وإدارة شؤون الأمة ومصالحها العامة في الجملة إلا قليل من كتب النصح – وخاصة - النصح بالعدل، والمهداة إلى من لا يسمع من سلاطين الاستبداد والغصب، فلا غرابة بعد هذا أن تتشوَّه الرؤية الكونية الإسلامية لتترك المسلم من دون مرشد ولا دليل إيجابي محرك في معنى حياته وغاية هذه الحياة المتطورة بكل أبعادها وعلاقاتها وطاقاتها وقدراتها وتحدياتها، ولتعم ظاهرة عدم التوازن في طروحات هذه الرؤية وتشوهها، والمبالغة في خطابات التهديد والوعيد والترهيب؛ بفرضية حتمية جهل الناس – والذي أصبح المقصودُ بهم المسلمين – وحتمية ضعف إيمانهم ونزوعهم إلى الشر والعصيان، وهي خطابات وفرضيات تمكن السلطان والحكام من القيام بدور الوصاية الجائرة على الأمة وارتداء ثوب القداسة الزائف، والتي عبر عنها الخليفة العباسي المنصور بأنه "خليفة الله في الأرض" وبالتالي أصبحت الخطابات الإسلامية كأنها تهدف إلى "إلغاء الذات" و"إلغاء العقل" وتمكين الخضوع والخنوع لوصاية سلاطين الغصب المستبدين المفسدين وأعوانهم وزبانيتهم، وذلك بإهدار حق الأمة الأصيل في الوصاية على الحاكم (السلطان) في وجوب سعيه لمصالح جماعتها، وإمضاء قرارات شوراها ورقابتها.

هذه الحال الفكرية المزرية التي انتهت إليها الأمة، وانتهت إليها رؤيتها الكونية الحضارية في عصور تخلفها النوعي الروحي، كان طبيعيًا أن ينجم عنها، كرد فعل لخطابات "إلغاء الذات" حالة "مركزية الذات" فردية وعنصرية وأنانية وسلبية مرضية، بدلاً من "تحقيق الذات" (الفطرة السوية) إنساناً وأمة؛ فبدلاً من العمل

والإتقان والإبداع والإصلاح والعطاء والبذل، كانت الحيرة والخـوف والـضياع والسلبية والخنوع والانتهازية وكانت الأنانية والاستهلاكية وتـدهور الأخلاقيـات وانهيار المؤسسات العامة، لتنتهي الحال لما نرى من ضـياع الأمـة وتهميـشها وتمزقها إلى قبليات وعنصريات ومذاهب وفرق وانهيار العمران الإسلامي.

ومن المهم هنا أن نذكر ونشير إلى أن طبيعة الخطاب النبوي r لأصحابه كان خطاب حب وإعزاز وتكريم وذكر لمنـاقبهم ومزايـاهم، وتقـدير لشخـصياتهم وإسهاماتهم، وليس خطاب تحقير أو ترهيب أو تسفيه أو إذلال، وتلك هي الرؤيـة القرآنية في خصوصية مكانته الكونية الحضارية {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ }المنافقون٨، ولهذا يجب أن يكون الأصل فـي خطـاب المسلم إعزازه وتكريمه وترشيده وتذكيره.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يدخل الجنةَ من كان في قلبه مثقال ذرة من كبـرٍ. قال رجلٌ: إن الرجل منا يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: إن الله جميلٌ يحبُّ الجَـمال، الكِـبرُ بطر الحقِّ وغمط النـاس"[5]

ما هي الرؤية الكونية القرآنية الحضارية؟:

بعد أن تبينا مما سبق خطورة حال الأمة ومدى الحاجة إلـى تلمـس أسـباب العلاج في أسسه الكامنة، وهي الرؤية الكونية الحـضارية القرآنيـة، والتعـرف بجوهرها؛ لتستعيد الأمة عافيتها ودافعيتها، وتواصل مسيرة حـضارتها الروحيـة القرآنية الإعمارية الخيـرة، نستطيع أن نقول في وصف الرؤية الإسلامية الكونية أنها رؤية توحيدية غائية أخلاقية إعمارية خيرية حضارية تعبـر عـن الفطـرة الإنسانية السوية، وهي بذلك، وبالضرورة، رؤية علمية سننية تسخيرية تهدف إلى جعل عناصر الفطرة الإنسانية السوية في بؤرة الوعي الإنساني؛ لتهـدي مـسيرة الحياة الإنسانية، وترشدها؛ كي يحقق الإنسان ذاته السوية فـي أبعادهـا الفرديـة والجماعية ويستجيب في وسطية واعتدال لحاجاتها ومتعها، على مدى أفق الوجود الإنساني بكل أبعاده الروحية والإبداعية العمرانية.

{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}النحل٩٧، {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}طه١٢٣- ١٢٤{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ}يونس١٠٨، {هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ}آل عمران١٣٨

ولما كانت هذه الرؤية القرآنية هي رؤية كونية خيرية سننية إعمارية؛ تعبر عن الفطرة الروحية السوية وترشِّدها، فهي بالضرورة رؤية تزود الإنسان بالدافعية والطاقة الوجدانية اللازمة لبناء الحياة الخيِّرة والحضارة وإعمار الأرض؛ لأن الاستخلاف والحضارة في جوهره هو الوعي والحضور الإعماري الخيِّر في الزمان والمكان، والذي هو غاية الرؤية القرآنية الكونية الحضارية.

وهكذا فإن الرؤية القرآنية الكونية الحضارية، هي رؤية بناءة إيجابية "تحقق الذات الإنسانية السوية"، وليست رؤية سلبية هدامة "تلغي الذات"، حتى حين تتطلب الرؤية الإسلامية الكونية التضحية، فإن ذلك لا يكون إلا تحقيقًا لدوافع فطرية سوية كامنة يسعى إليها الإنسان ويطلبها بفطرته رحمة وتكافلاً إنسانياً، أو حميَّة ودفاعاً ضد العدوان؛ عن النفس والأهل والأعراض والحقوق والحرمات، وهي من المشاعر الإنسانية التي لا تهنأ النفس الإنسانية الحرة الكريمة من دون أداء حقوقها وواجباتها.

ومن هنا فإن الرؤية الإسلامية الكونية الحضارية، على عكس ما تصورها بعض الخطابات المشوهة التي تجعل منها وكأنها رؤية تهدف إلى "إلغاء الذات"، **وأنه لا قيمة لعملٍ إلا إذا كان لإرضاء الآخر، ولخدمته، وتعبيراً عن المذلة والخضوع والخنوع وتمثل قائمة طويلة من** الواجبات والتضحيات الإملائية الفوقية الثقيلة التي يضحي فيها الإنسان بذاته وحياته على مذبح الخوف والخضوع الأعمى لإملاءات **هذه** الخطابات الفوقية؛ **لتطويع الرقاب لاستبداد الحكام ورجال السلطة والسطوة وفسادهم**، وهو أمر يتنافى ويتعارض مع حقيقة الرؤية القرآنية

الإيجابية؛ لأن الفطرة السوية التي يتساوى عندها التضحيةُ بالحياة في سبيل رد العدوان ونصرة الحق وحفظ الكرامة الإنسانية، مع متعة الاستجابة المشروعة لدافع الطبع والمتعة "وفي بُضع أحدكم صدقة"، ولذلك فإن المرء في الرؤية الإسلامية يؤجر في الحالين ومثل ذلك السعي والتسخير الحلال لكسب العيش للنفس أو لمن يعول، ومثله السعي لطلب العلم والمعرفة دينيةً كانت أو حياتية؛ لأن جميع هذه الإعمال لا تهدف إلى سوء أو شر أو عدوان؛ ولأن كل ذلك وما كان على منواله إيجابي خيِّر يحقق معنى الحياة ومقاصدها الفطرية السوية؛ لأن "الأعمال بالنيات"؛ وهذا يجعل قيمة الأعمال في نهاية المطاف يرتبط في فطرة الإنسان السوي الراشد بالجوهر في معنى الحياة وغاياتها، وهل هي في سبيل الخير أم في سبيل الشر؟ وهل هي في سبيل الإصلاح أم في سبيل الإفساد؟ لأن هذه هي المعاني التي تتعلق بها الرؤية القرآنية الكونية الحضارية التي تهدف لكل خير فيه تحقيق "الذات" و"الفطرة السوية"، وفيه صلاح الحياة، وسعادة الدارين؛ لأن قانون الوجود التوحيدي الأخلاقي هو في نهاية المطاف "إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر". **[فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ]** آل عمران: ١٤٨ {بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}الروم٢٩-٣٠

وهكذا فإن الرؤية القرآنية الكونية لمن عرف القرآن وألفه، إنما هي رؤية فطرية إيمانية توحيدية خيرية إعمارية إيجابية، يحقق الإنسان بها ذاته، وينال بها حبَّ الله ومرضاتَه؛ لأن حب الله ومرضاته في الرؤية القرآنية الكونية الفطرية هو في "تحقيق الذات" كما فطرها الله، وفي تحقيق الحياة الإنسانية الطيبة الكريمة الخيرة بكل أبعادها الروحية والمادية كما أرادها الله سبحانه تعالى.

ولما كان الله سبحانه وتعالى في الرؤية القرآنية هو الخالق، وهو الحق، وهو الخير، وهو العدل، وهو السلام، وهو الكمال والنقاء، ولأن الشر والشيطان في ذات الرؤية هو الفساد، وهو الظلم، وهو القسوة، وهو العدوان، كان المسلمُ، إذا صحت رؤيته الكونية القرآنية الفطرية، إنساناً في جوهره، خيِّراً، ولذلك فإنه لا

بد أن يكون محباً لله الذي هو الكمال والنقاء، والذي هو الحق والعدل والرحمة والسلام، وهو لا بد أن يكون في جوهره كارهاً للشر وللشيطان؛ لأن الشيطان هو الشر، وهو الضر، وهو الظلم، وهو الفساد، وهو القسوة، وهو العدوان، وهذه الصفات الشريرة، وهذه المعاني الكريهة هي الصفات والمعاني التي يكرهها الله ويحذر منها، والتي لا بد أن يكرهها الإنسان المؤمن، والإنسان السوي في جوهره وقرارة نفسه، وفي أشواق روحه وسريرة ضميره؛ ولذلك فالمؤمن محب لله وللخير، كاره للشيطان وللشر، وهو بذلك يحقق ذاته، ويحظى بحب ربه ورضاه.

وهكذا فإن الرؤية القرآنية الكونية التي يجب أن نغرسها في قرارة وجدان صغارنا وقرارة وجدانهم هي رؤية حبٍّ وكرامةٍ وسلامٍ، لحمتها عقيدة التوحيد، وسداها علمية المعرفة وتزكية الوجدان، ينعم فيها الإنسان بحبه لله، وبحب الله له، وهو بذلك يعبد نفسه لله بإرادته الحرة؛ لأنه في الحقيقة بفطرته السوية محب لله الذي هو الحق والعدل والرحمة، وهو الذي بكل ما منحه من منح ونعم وقدرات يحبه ويرعاه، وهو الذي يقيل عثرته، ويقبل توبته، وهو الذي يمحو سيئاته، ويضاعف حسناته، وهو الذي يرشِّد مسيرته ويسعد مآله، فهو - لو تمعن الإنسان - منبعُ الخير والحب، وهو أهل الخير والحب.

إن الإنسان المسلم لو تدبر حقاً جوهر علاقته بالله، لكان حبه لله أعظم الحب، وأكثر من حبه لأي أحدٍ، ولو كان هذا الحب لوالديه؛ ذلك لأن تعلقه بوالديه وحبه لهما، وعاطفته تجاههما، إنما هو بسبب ما محضوه من حب وعناية ورعاية، ولأن الله سبحانه وتعالى - بما أولاه للإنسان الخيِّر المؤمن من حبٍّ ورعاية وتسخير - يفوق أي حبٍّ وأية عناية وأي تسخير يمكن أن يوليه للإنسان أحدٌ في الوجود؛ لأنه هو الذي خلق وأحب وأنعم وسخَّر وكرم، وهو مَنْ وهب الولد للوالد، وسخَّر الوالد للولد؛ ولذلك فالعاطفة والحب وعرفان الجميل وطلب الرضا إنما يكون أولاً لله؛ لأنه سبحانه أولى بالحب وطلب الرضا من أي أحد في الوجود، بمن في ذلك الآباء والأبناء، بل ومن ذات النفس؛ لأن النفس لا وجود لها، ولا معنى لها من دون حبٍّ الله، ومن دون حبها لله، ومن دون حب الله وعنايته ورعايته وكرمه، ولو أن الإنسان السوي رأى في نفسه اعوجاجاً ورغبة في الشر

فإنه لا يحب ذلك من نفسه، ولا يرضى عنها إلا أن تنتهي عن ذلك، وهـذا هـو معنى حبّ الله، أي حبّ الكمال، وحبّ النقاء، وحبّ الخيـر، وكره الشر والفساد، وعدم الرضا – حتى عن النفس – إذا انحرفت وقارفت شيئاً من الـشر والظلـم والفساد.

ومعنى ذلك أن حبَّ النفس السوية لله الذي هو الخير والحق والرحمة والسلام أعظم من حبها لذاتها؛ لأن الإنسان لا يرضى مـن نفـسه إلا حـبَّ صـفات الله والرغبة في تمثلها، فحب النفس السوية هو في الحقيقة حبٌّ فطريٌّ روحيٌّ خالصٌ؛ ولذلك يجد الإنسان في قرارة نفسه أن رضاه عن نفسه لا يكتمل إلا حين يتطهـر من كل معاني الشر ورغباته، وإلا إذا أخلصت نفسه ظاهراً وباطناً لصفات الحقِّ والخير، أي لله سبحانه وتعالى، وهو في ذات الوقت يخشى أن يقع فيمـا تبغـضه نفسه، وتشمئز منه فطرته السوية، ويبغضه الله سبحانه وتعالى.

وهذا هو معنى قول رسول الله (r) في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عـن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليـه وسـلم قال: "... ولا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين"[٦] وهو معنى ما رواه زهرة بن معبد عن جده، من أن عمر بن الخطاب رضـي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيده: "والله يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا نفسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. قال: فأنت الآن والله أحب إليَّ من نفـسي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الآن يا عمر"[٧]، وهذا يعني أنـه لا يكتمـل إيمان المرء إلا إذا أخلص الحبَّ لله، أي أخلص في دنياه الحبَّ للخيـر والحـق، ولأن من المعلوم أن حبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من حـبِّ الله؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو المثل الإنساني الأمثل الأعلى لمعاني حـبِّ الله، وهو التحلي بحب الخير والحق، وهو ما يتمثل في أخلاق رسول الله (r) وصفاته وسلوكه، {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ}القلم٤، {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}التوبة١٢٨، {يَا أَيُّهَـا النَّـاسُ قَـدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ}النساء١٧٠، {مَّـنْ يُطِـعِ الرَّسُـولَ فَقَـدْ أَطَـاعَ

اللّهَ}النساء٨٠، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}الأنفال٢٤، وعن سعد بن هشام قال: سألت عائشة رضي الله عنها فقلت: "أخبريني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: كان خلقه القرآن"[٨].

فمن أحب الله، وأخلص في حبه وحبِّ صفاته، أحبَّ رسوله وما تمثله صفات رسوله، وأحب من نفسه ما وافق صفاته، وكره من نفسه ما خالف صفاته. وهذا يوضِّح أنه إذا اكتمل إيمان المرء كانت روحه معلقة بحبِّ الله ورسوله. من ذلك يتضح أيضاً أنه ليس في حبِّ رسول صلى الله عليه وسلم، وحبِّ أهل بيته الذين عاشروه ونشَّأهم في بيته من أزواجه وبناته وأحفاده وقرابته، ومن أصحابه الذين آمنوا برسالته وتبعوه وتعلموا منه وأخلصوا في إيمانهم وجهادهم، ليس في حبِّ المؤمنين لهم شبهة "عبادة الأشخاص"، ولكنه حبُّ المعاني والصفات والقيم والمبادئ والصفات النبيلة، وغير ذلك ليس إلا زيغاً عن الجادة ومجانبة الصواب ووقوعاً في شراك عبادة الأشخاص وعنصرية الدماء والأعراق والأنساب؛ التي شوَّهت رؤية الأمة القرآنية الحضارية (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)، وكلَّستْ بناءها الاجتماعي والمؤسسي، مما مكَّن للاستبداد والفساد، وأوهن الحسَّ الجماعي لأبناء الأمة، وأسهم في انهيار الحضارة الإسلامية.

ومن هذا المنطلق كان معنى الذكر والصلاة التي هي شعائر الذكر؛ لأنها تمثل التواصل مع الله سبحانه وتعالى، محببةً إلى رسول الله (r)؛ لأنها تواصلٌ مع الله سبحانه، واستعانةٌ به وبألطافه، وتقربٌ منه، واستغفارٌ عن الخطايا البشرية والزلات، يجد فيها المرء لقاء المحب لمن يحب ولمن يهو ى رضاه، وهذه المعاني عبَّر عنها رسول الله (r) بقوله: (يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها)[٩] {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ}البقرة ١٦٥،{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣، {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}طه١٤، {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ}النور٣٧، {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ }العنكبوت٤٥، {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ* وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} البروج ١٣ – ١٤، {وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ }هود٩٠، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً}مريم٩٦، {وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً}النساء١١٩، {فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}الأنعام١٤٧، {وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١١٠، {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}الأنعام١٦٠،{فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}الأنعام٥٤، {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى}طه٨٢، {وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}النحل١٠٦، {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}الشورى٢٥.

ولمركزية مشاعر المسلم تجاه الله، خاصة في خضم التأثيرات الفكرية والثقافية السلبية المنبثة في الحياة والحضارة المادية المعاصرة؛ فإن من المهم توفير الدراسات النفسية والاجتماعية التي يمكن بها تمثل الرؤية القرآنية الكونية ومركزية حب الله الحميد الودود اللطيف الكريم التوَّاب الرحمن الرحيم فيها؛ وذلك من خلال أدبيات التربية الوالدية والمدرسية، والتي تعتمد في خطابها حبَّ الله للمسلم وللطفل، أما في خطاب البالغ ففي التفكر والتدبر في نِعَمِ الله ورعايته وتكريمه للإنسان (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله:(لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح)[١٠].

ومن المهم أن نوضح هنا أن الذكْر والتواصل مع الله هو أساسٌ فطريٌّ وجداني يحقق به الإنسان ذاته، ولكن على المسلم أن يعلم أن هذا الحب لله وذكره والتواصل معه ليس حقيقياً، ولا معنى له، إذا لم يؤت ثمرتَه في قيام الإنسان

بمهمة الاستخلاف في التسخير والإعمار للأرض؛ بالعلم والعمل الصالح والإتقان والإبداع، وإلا كان الجماد والحيوان خيراً من الإنسان؛ لأنها جميعاً تسبح لله وتتصرف وفق ما أنيط بها من وظيفة وجودية وحياتية {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}الإسراء٤٤، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ}النور٤١، {لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}الأعراف١٧٩، {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ* فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} الماعون ١-٧، {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}العنكبوت٤٥، {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}الشمس ٧-١٠. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ربَّ صائم ليس لــه من صيامه إلا الجوع، وربَّ قائمٍ ليس لــه من قيامه إلا السهر)[١١] ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّــوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم، قد غفر الله لــه ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أُفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم لــه، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[١٢] .

وروى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمرو بــن العــاص رضــي الله عنهما قال: قال لي رسول الله: (يا عبدالله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قلت بلى يا رسول الله. قال: فلا تفعل، صمْ وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليــك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً...)[١٣]. وروي عن عبدالله بــن

مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قــال: (هلــك المتنطعون قالها ثلاثاً)[١٤] ، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رســول الله صلى الله عليه وسلم قال: "...إن الله جميلٌ يحبُّ الجَــمال..."[١٥].

كل ما تقدم يوضح أن الرؤية الإسلامية الكونية الحضارية هي رؤية شــمولية علمية سننية، وهي رؤية إيجابية ورؤية حب وخير وتسخير وإعمار، وهي تمثــل أساس تفعيل القوة والدافعية الإعمارية لدى الإنسان المسلم؛ الــذي تتــضافر فــي تكوينه وفطرته السوية وفقًا للرؤية القرآنية قوى الحب والضمير والعقل والمعرفة، وقوى الإرادة الخيِّــرة، والوجدان السليم، وقوى العقيــدة الــصحيحة، والإيمــان الصادق؛ ليجسد الإنسان المسلم فطريًا كل ذلك فــي واقــع المجتمــع وعلاقاتــه التوحيدية التكاملية وفي بناء صرح الحضارة الإنسانية الإعمارية الروحانية الخيرة

من هذا المنطلق فإن من المناسب أن نتصور انعكاسات الرؤية القرآنيــة فــي مختلف جوانب الحياة ومؤسساتها من خلال المفاهيم القرآنية اللازمانية واللامكانية المتعلقة بمختلف جوانب الحياة بدءًا بمفاهيم شورى الأمــة والعــدل والإحــسان والمعروف والتزكية، ومفهوم الظلم والبغي والعدوان والمنكر، وسواها من المفاهيم التي يزخر بها القرآن الكريم، التي تمثل الأبعاد المؤســسية الحاكمــة المرشــدة لمجالات الحياة الإنسانية الحضارية الخيِّــرة، وإنهاء النظرة السطحية إلى القرآن الكريم ليكون كتاب تلاوة للتبرك والأجر، ووضعه موضــعه الــصحيح مــصدراً للرؤية الكونية الإعمارية الروحية الخيِّــرة، ومصدراً للهداية والإرشاد والتوجيه؛ لتحقيق غائية الفطرة السوية وأخلاقيتها وإيجابيتها، وضابطاً للمقاصد والغايــات، ولنصوص المتون والروايات والاجتهادات والتأويلات ومعانيها ودلالاتهــا، فمــا وافق القرآن صحَّ، وما خالفه لم يصحّ.

ومن الأمثلة المهمة التي تخوضها - في هذه الأيام - المعاركُ الفكريةُ والثقافية التي تدور رحاها؛ بقصد الاستلاب الحضاري، وطمس الهوية، وتهميش الشخصية الإسلامية الحضارية، والقضاء على إمكانات إسهاماتها الإبداعيــة الإصــلاحية؛ لتصحيح مسار الحضارة المادية المعاصرة، وما يشوهها من انحرافات وأخطــار،

تهدد الوجود والاجتماع البشري، قضيةُ المرأة وما يتعلق بها من العلاقات الاجتماعية التي تمثل البنية الأساسية للمجتمع في الأمومة والأسرة.

وخطورة هذا المجال أنه يتعلق بمؤسسة الأسرة التي اختص بالتعامل معها في الماضي علماء الدين؛ وذلك لصلتها القوية بالشريعة الإسلامية، ولذلك حافظت الأسرة المسلمة على مهمتها وكيانها، وعلى أبعادها الأخلاقية، برغم كل ما أصاب الفكر الإسلامي في الماضي من آفات الضمور والجمود؛ فكانت المرأة والأسرة المسلمة، برغم كل إشكالاتها وما أصاب الأمة وفكرها ونظامها ومؤسساتها العامة من آفات، هي المؤسسة التي أبقت على كيان الأمة، في وجه أعاصير فساد الحياة السياسية وانهيار مؤسساتها العامة.

ولذلك إذا أمكن، في وجه هجمة الفكر المادي في أبعاده الحيوانية غير الأخلاقية[١٦]، أن يكون رد فعلنا بدلاً من استنقاذ الحياة العامة وإعادة بناء قواعدها ومؤسساتها **في وصاية الأمة على سلطات الحكم وبناء أجهزة الرقابة الفعالة؛ بما يضع حداً للاستبداد والفساد واحتكار السلطة والثروة في المجتمع، ويمكّن من التعددية وتداول السلطة؛ بما يحقق مصالحها الحياتية، على أساسٍ من عقائد الأمة وقيمها، أو أن نخفق في ذلك، وتستمر أنظمة الحكم ترزح بالأمة في مستنقعات الاستبداد والفساد، ونزيد على ذلك بتحطيم نظام الأسرة المسلمة التي أبقت بأخلاقياتها على ما تبقى من الإيجابيات في كيان الأمة، بفعل الهجمة الغربية على المرأة المسلمة، وعلى** مؤسسة الأسرة المسلمة **لتصبح** على نمط نموذج الحضارة "المادية" "الليبرالية" **اللادينية** المعاصرة التي حطمت الأسرة الغربية وأخلاقياتها، وقطَّعت **أواصر** العلاقات الإنسانية **الأسرية** الاجتماعية **بين أبنائها**، وانتهكت **بحيوانيتها** حرمة المرأة، وأنهكتها، وعبثت بكرامتها، من دون مراعاة لخصوصياتها، وخصوصيات أمومتها، وخصوصيات طفلها المادية والنفسية والبيولوجية والاجتماعية، **ولو استمرَّ بنا الحال مقصرين في إصلاح نظام الأسرة، وفي إصلاح نظام العمل، بما يراعي حكمة الخلق قي التكامل بين أدوار المرأة والرجل، في مختلف مراحل العمر، في بناء الحياة والأسرة، وحمل مسؤولياتها، فإن ذلك – لا قدَّر الله** - يكمل دائرة الضياع والانهيار للأمة

الإسلامية وشعوبها، ويضاعف صعوبات إمكانية نهوضها، وإعادة بناء قواعـدها، وآمال إسهاماتها في ترشيد مسار الحضارة الإنسانية المعاصـرة، ودرء أخطـار مساراتها المدمرة للوجود الإنساني والعلاقات الإنسانية.

ومنطلق القوة والرشد الذي تمليه الفطرة الإنسانية السوية في أمر المرأة ومـا يلحق بها من شؤون الأمومة ومحضن الأسرة هو أمر يتعلق بمنطلق أساسي فـي الرؤية القرآنية الحضارية، ويعبر عن بناء الفطرة في الوجود الإنساني والكـوني ويتضح بشكل لصيق بالحياة والإنسان أكثر من سواه وهو منطلـق الغائيـة ومـا يتعلق به في بناء الفطرة وسنن الكون من مفاهيم التوحيدية فـي غائيـة الخلـق وتكامليته.

فالعلاقة بين المرأة والرجل في الرؤية القرآنية، كما هي في الفطرة الـسوية، هي علاقة تكامل، وليست علاقة تماثل، فمن خلال وحدة الجنسين التكاملية يتـسق ويمتد الوجود الإنساني، ويتكامل البناء الجسدي والنفـسي والاجتمـاعي للرجـل والمرأة (الذكر والأنثى) ليكوِّن الاثنان معاً كياناً تكامليًا؛ فعلى الـرغم ممـا بـين الجنسين من تماثل فإن لكل جنس طبيعته المتميزة في بعض جوانبها عن الجـنس الآخر، {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُـم مِّـن نَّفْـسٍ وَاحِـدَةٍ وَجَعَـلَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا لِيَـسْكُنَ إليها}الأعراف١٨٩، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجـاً لِّتَـسْكُنُوا إِلَيْهَـا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}الروم٢١، وهذا الأمـر يجعل الجنسين في وحدة تكاملية بديعة، وليست تماثلية، وبـذلك تفعَّـل الحيـاةُ، وتفعَّل على عكس المفهوم المادي الحيواني المعاصـر الـذي - بـرغم ادعائـه الانطلاق من العلمية الموضوعية - نجـده يتنكـر للفطـرة الإنـسانية الـسوية ويعارضها، ويتخبط بفعل الأهواء والنزوات الحيوانية، ليتجاهل اعتباطيـاً حقيقـة الفطرة وواقع السنن الكونية، التي تحكم طبيعة العلاقة النفسية والجسدية الإنسانية بين المرأة والرجل؛ فيفكر ويتصرف على أساس التماثل، لا على أساس التكامـل بين الرجل والمرأة.

إن تخبط الحضارة المعاصرة بشأن المرأة والأسرة مثال صارخ على فحـش الرؤية الكونية للحضارة الحيوانية المادية المعاصرة وتشوّهها؛ وذلك حـين يـتم

تجاهل وجوه الاختلافات الجوهرية العضوية والنفسية والاجتماعية فـــي تكـــوين الرجل والمرأة (الذكر والأنثى)، واعتبار هذا التباين والاختلاف وكأنه أمر عبثـــي لا معنى ولا غاية لـــه، ولا فائدة منه؛ لتنتهي هذه الرؤية العبثيـــة غيـــر العلميـــة الجائرة إلى ظلم المرأة وانتهاك كرامتها، وتدمير مؤسسة الأسرة وهـــدم أســـسها (الإنسانية الاجتماعية) الأخلاقية البنَّـــاءة، وارتكاب أفظع التعديات علـــى حقـــوق الطفولة الإنسانية النفسية والمادية والاجتماعية، وهذا ما نرى آثاره المدمرة فـــي المجتمعات الغربية، ونعلم أبعاده المدمرة ومدى خطورة الجريمة التي ترتكب في حق الطفل والمجتمع، والتى لا تخفى على كل من له دراية بعلم نفس الطفل.

ولذلك ليس غريبًا ما نقرؤه ونشاهده من التخبط والانحرافات والآثار الـــسلبية الناجمة عن انهيار الأسرة وانهيار أخلاقياتها في عالم الحضارة الغربية، أو بتأثير مفاهيمها، ونلمس أثره في حيرة المفكرين ومرِّ شكواهم وتشاؤمهم من آثار الحال الذي بلغته آثار هذا الانحراف الفكري بشأن علاقات المرأة والرجـــل فـــي بنـــاء المجتمع الإنساني، والذي شقيت فيه المرأة وأصبحت تتحمل الكثير من الأعبـــاء، التي كثيرًا ما تصرفها حتى عن الاستجابة إلى فطرة الأمومة في كيانها، أو تحملها وحدها جلَّ تكاليف هذه الفطرة مادياً ونفسياً؛ وهذا ما أخلى مـــسؤوليات الرجـــل، وأطلق عنان فساده، وحول الرجل إلى ذكر حيواني مـــاجن فـــي نـــوادي الليـــل ومجتمعات العاهرات ومواخيرهن، كما حُرِمَ الطفلُ رعاية الأبوة؛ فـــألغي عمليـــاً اعتبار المرأة أُمَّاً وزوجةً وابنةً، بل جُعِلَ منها في الحقيقة ســـلعة متعـــة عـــابرة لنزوات الرجل وشهواته.

وللأسف فإن غياب الوعي عن الرؤية القرآنية وأبعادهـــا الاجتماعيـــة وبنـــاء منظومتها الحضارية، سهل مهمة هذا الغزو والاستلاب الحضاري الرديء بسبب الانبهار بالإنجازات العلمية الفيزيائية المادية للحضارة المعاصرة، ولنفاذ أســـلحتها وإستراتيجياتها في الغزو الثقافي، باستخدام وسائل الترفيه المحبوكـــة المنـــسوجة الماجنة عبر الفضائيات والإلكترونيات، مع غياب وسائل المناعة والمقاومة العقدية الفكرية والتربوية الوجدانية الرشيدة لأبناء الأمة؛ وذلك بسبب ضـــعف وســـطحية

الحركة الفكرية والتربوية، وغياب أبحاثها الذاتية الأصيلة التي تتعامل مع واقع الشخصية المسلمة وظروفها في إيجابياتها وسلبياتها في بلاد الأمة الإسلامية.

إن مفهوم التوحيدية وما يترتب عليه من مفهوم الغائية والأخلاقية ينتج عنه مفهوم التكاملية، وهو يفسر بشكل إيجابي ما بين الرجل والمرأة من تماثل وتخالف، وبالتالي تنظم العلاقة الإنسانية والاجتماعية بين الرجل والمرأة، وما يترتب عليهما من حقوق وواجبات على أساس الفطرة السوية، وفي ضوء مفاهيم القرآن في "المودة" و"الرحمة" وفي "المعروف" و"الإحسان"؛ ليتمكن كلٌّ واحدٍ من أطراف هذه العلاقة الإنسانية الاجتماعية من تحقيق ذاته الفطرية، وإنصافه وعونه على أداء دوره في مختلف الأحوال والمجالات والمراحل التي يمر بها كل واحد من الجنسين.

إن غبش الرؤية القرآنية في الفكر الإسلامي المعاصر وعجز هذا الفكر وجموده في حدود النماذج التطبيقية التراثية التاريخية، وخاصة ما نحن بصدد الحديث عنه، وهو العلاقات والتشريعات الأسرية التي تم وضعها في ظروف زمانية ومكانية سابقة، تختلف عما هو كائن في هذا العصر من حيث إمكاناته وحاجاته وتحدياته؛ يوجب فهمًا عميقًا للرؤية القرآنية وما يتعلق بها من المفاهيم، لا في العلاقة الزوجية المباشرة بين المرأة والرجل فقط، بل يجب أن يمتد ذلك إلى إعادة الصياغة التطبيقية التي تضمن حقوق المرأة والرجل في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتربوية؛ بحيث تتناسق جميعاً وفق المفاهيم والمبادئ القرآنية، وتكون بذلك منظومة متكاملة ضمن المنظومة الاجتماعية العامة للمجتمع؛ بحيث تحقق غايات الفطرة السوية في كيان المرأة والرجل، كما خلقها الله وقدرها؛ وبحيث تمكِّن كلَّ واحد من الزوجين من أداء الوظائف الأساسية المنوطة به، خاصة في أوضاع عالم اليوم؛ بحيث تنصف المرأة، خاصة في صدر حياتها وفترة ضعفها بالحمل والإرضاع والتربية؛ لأن وظيفة الأمومة منوطة بها، وليس من أحدٍ سواها يمكن أن يؤديها.

هذا مثال واحد من أمثلة قضايا المجتمع المسلم المعاصر التي يجب أن يخوض الفكر الإسلامي المعاصر غمارها، وبكل استنارة وقوة على ضوء الرؤية القرآنية،

وما ينبث في صفحات القرآن الكريم من المفاهيم والقيم التي تفعل الرؤية القرآنية الإعمارية الحضارية وتجسدها في واقع المجتمع وعلاقاته ومسيرته الحضارية في الزمان والمكان.

وباختصار فإن الرؤية الكونية القرآنية الحضارية هي رؤية توحيدية إعمارية، وغائية أخلاقية خيِّــرة تفعِّل الفطرة السوية وترشِّدها، وتعتمد العلمية السننية فــي إدراك الفطرة والسنن الكونية وبلورة الوعي بها، وترشيدها، وهي رؤية تسعى إلى تحقيق السعادة البشرية والحياة الخيرة الطيبة في الدارين، وذلك من خلال تفجيــر القوة الوجدانية المنبعثة من طاقات الفطرة السوية من منطلق الرغبــة والاقتنــاع؛ ليتحقق بها في حياة الفرد والجماعة إيجابية العمل الإعماري، وســداده المعرفــي الموضوعي، وصلاحه الروحي الأخلاقي، وإبداعه العلمي السنني.

ومن المهم أن نلحظ أيضًا أن الجماعة أو الأمة في الرؤية القرآنية الكونية هي جزء لا يتجزأ من فطرة الوجود الإنساني الذي يتكامل فيه الوجود الفردي وأداؤه مع وجود الجماعة، فلا وجود للفرد الإنساني، ولا معنى لــه من دون الجماعــة، ولا وجود للجماعة الإنسانية أصلاً من دون أفرادها، وسلامة الفرد ورفاهه يعتمد على قوة الأمة والجماعة وسلامة بنائها كما تعتمد قوة الجماعة ورفاهها على إتقان أداء أفرادها وإخلاصهم وتفانيهم ومشاركتهم وعطائهم، ولذلك فإن خطاب القرآن الكريم للإنسان وللناس هو خطاب للفرد، وهو أيضاً خطــاب جماعــةٍ وخطــاب جنس.

إن فاعلية الرؤية الكونية القرآنية الحضارية تتأتى من توافر شروط الفاعليــة والإيجابية، التي تتحقق بتوافر قوة الاقتناع، وبالتالي توافر قوة الإيمان، وســلامة القصد، وغائيته وأخلاقيته، وفاعلية الأداء الناتج عن صلاح منهج الفكر وعلميتــه وجدية العمل؛ الذي يقوم على التوافق مع الفطرة السوية، وعلى طلــب أســباب التسخير والإبداع والإتقان بالعلمية السننية الشمولية.

[وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنــكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِــي الْــأَرْضِ] النور: ٥٥، [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا] الكهف ٣٠، {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}التوبة١٠٥، {وَأَن

لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}النجم٣٩، {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً* فَأَتْبَعَ سَبَباً}الكهف٨٤-٨٥.

فالآيات السالفة توضح ثلاثة أركان للأداء الإنساني الناجح في الرؤية القرآنية الإعمارية الحضارية، وهي أولاً قوة اليقين و"الإيمان"، وثانياً إنتاجية "العمل"، وثالثاً فاعلية العمل بصلاحيته، وذلك بالتزام الموضوعية العلمية السننية، وهو ما عبرت عنه الأمة بـ "الصلاح"؛ ولذلك كان للمخطئ في إدراك وجه الفطرة والسنن في العمل أجرٌ أخروي واحدٌ، وهو أجر "الإيمان" بالنية والقصد، وللمصيب أجران، هما أجر النية في الآخرة، وأجر "الصلاح" الموضوعي السنني في الدنيا، فمن أخطأ العلمية في كيف يحفر بئراً وأين يحفره، فله أجر النية والقصد الخيِّر الأخروي، أما إن أصاب العلمية وحقق المطلوب فله أجر النية الأخروي، وله الأجر الدنيوي بحصول الماء الزلال.

إذا أرادت الأمة وإذا أراد الإنسان المسلم تفجير الطاقة الوجدانية، في كيانه، فعليه أن يتدبر الرؤية القرآنية الكونية، وأن يستعيدها ويستعيد قيمها ومفاهيمها في عقيدته وفي وجدانه وفي نظره في عالمه، ومعنى وجوده، ملتزمًا في أدائه وفكره وسعيه المنهجية العلمية السننية، ليحقق ذاته وفطرته الإنسانية الروحانية السوية، وليرشد خياره الإعماري الحضاري، وما أروع تعبير ابن الخطاب (t) عن رؤيته ورؤية الأصحاب القرآنية وعقليتهم السننية المبرَّأة من التواكلية والخرافية، والذي سرى وما يزال يسري بالرؤية القرآنية العلمية في مسمع الزمان حينما قال: {أفر من قدر الله (نواميسه وسننه) إلى قدر الله (نواميسه وسننه)}[١٧].

[وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا] الشمس ٧-١٠.

الأنا والآخر في الرؤية القرآنية الكونية:

إذا كانت تلك الرؤية القرآنية الكونية الحضارية، وما تمثله من دافعية وهداية ورشد للأمة، فماذا لدى هذه الرؤية للآخر؟ ومن هو هذا الآخر؟ وما الذي يحكم العلاقة بين الأنا والآخر في هذه الرؤية القرآنية؟ لأن الرؤية لا تكتمل من دون

وضوح هذا الجانب الإنساني المهم من جوانب الرؤية الكونية القرآنية الحضارية، وهنا يتبدى وجهٌ آخر لروعة الرؤية القرآنية الكونية؛ يكشف عن البعد التوحيدي التكاملي الكوني لهذه الرؤية؛ حيث يتبدى الآخر تكاملياً مع كل أنا، ويتبدى الأنا تكامليًا مع كلٍّ آخر، وكل ذلك في الرؤية القرآنية الكونية عبارة عن دوائر متداخلة في نسيج حضاري توحيدي إعماري بديع، يقوم على الغائية والتكامل والتناسق والتفاعل الإعماري البناء؛ الذي يتحقق به في مجتمع الإنسان معنى الفرد، ومعنى الجماعة، ومعنى الإنسانية، في بيئة حضارية من قيم العدل والتسامح والإخاء والسلام.

فالأنا والآخر في الرؤية القرآنية الكونية والخطاب القرآني ذكرًا أو أنثى أسود أو أبيض، مؤمنًا أو غير مؤمن، فهم جميعاً (إنسان) يجمعهم ويوحِّد بينهم انتماء وحدة الكل الإنساني، فالأنا والآخر الإنساني، أياً كانت هوية هذا الإنسان العرقية أو الثقافية أو الحضارية، فالإنسان والإنسانية، في منظور الرؤية القرآنية الكونية، كائنٌ وكيانٌ واحدٌ خلقوا إخوة سواسية في الأسرة الإنسانية الكبرى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً }النساء١.

والأنا والآخر في الخطاب القرآني "رجالاً" و"نساءً" هم أفرادٌ، وهم أناسٌ، وهم جماعةٌ، وهم وحدةٌ إنسانية تنتمي إلى نفس واحدة، ويتفرعون منها "رجالاً ونساءً" ليتكاملوا "أزواجًا" وشعوباً وأمماً إنسانية، تجمعهم في الإنسانية أواصر "المودة والرحمة"، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}النساء١

والأنا والآخر هم أناس ينتمون ويتفرعون "شعوبًا وقبائل" في منظوماتٍ بشرية تحقق – في وحدتها - التنوعَ؛ حتى يتم التفاعل والتعارف والتكامل بين البشر؛ لأنه لو تماثلت الأجزاء لما كان هناك مجال للتكامل والتفاعل بين متماثلين؛ لأن التكامل شرطٌ للتفاعل، ولذلك فإن التفاعل لا يتم بين موجبين، أو بين سالبين، إذ لابد للتفاعل في لغة الطبيعة وفطرتها الكلية من التعاون والتكامل؛ لذلك كان

الإنسان في كليته، شعوبًا وقبائل، ذكورًا وإناثًا، وقدراتٍ وطاقاتٍ مختلفة؛ ليتفاعل ويتعارف ويتكامل {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}هود٦١، {وَهُوَ الَّـذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَـا آتَـاكُمْ} الأنعام١٦٥، "لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً" الزخرف٣٢، {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنـدَ اللَّـهِ أَتْقَاكُمْ} الحجرات١٣، وبذلك؛ فالاختلاف والتنوع في الرؤية القرآنية ليس عنصريةً ولا استعلاءً، ولكنه وحدة وتكامل إنساني إعماري خيِّـر ضروري لوجود الفـرد ووجود الجماعة.

والأنا والآخر يختلفون ويتمايزون "ألوانًا وألسنةً" تتبدى بها "آيـات" الإبـداع والجمال في الخلق، بدءًا بالأفراد، وانتهاءً بالأجناس والشعوب والقبائل، أما فـي الجوهر الإنساني "فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبـيض علـى أسـود، إلا بالتقوى"، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ }الحجرات١٣، {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ الـسَّمَاوَاتِ وَالْـأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ }الروم٢٢.

والأنا والآخر قرآنياً هم على كل المستويات فرداً وجماعةً وإنسانيةً عبارة عن دوائر متداخلة؛ فهم نسبٌ، وقربى، وجوار، وإنسانية، وشائجها العـدل والـسلام والمودة والرحمة والتسامح والتعاون والتآزر، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّـوَدَّةً وَرَحْمَـةً إِنَّ فِـي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِّقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}الروم٢١، [وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا] الإسراء: ٢٦، [وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ] البقرة: ٨٣ [رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ] إبراهيم: ٤١، [وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا] النساء: ٣٦. {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّـهِ مِـسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً}الإنسان٨-٩.

والأنا والآخر يختلفون ويتمايزون قدرات وطاقات [لِيَتَّخِـذَ بَعْـضُهُم بَعْـضًا سُخْرِيًّا]الزخرف: ٣٢، وليس هذا التمايز للتسلط والاستعلاء، ولكـن ليتعـاونوا ويتكاملوا في وحدة إنسانية تسخر الكون، وتوفر الحاجات، وتبتـدع الحـضارات

والثقافات، فهو ضرورة ونعمة لكل فردٍ إنساني، ومن دونه لا وجود ولا بقاء لأي إنسانٍ وحده، أياً كان جنسه، أو لونه، أو لسانه، أو قدرته، من دون جماعة الآخر الإنساني. {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} المائدة٢، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} الحجرات١١، {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} الحجرات١٣.

والأنا والآخر "دعوة بالحسنى" إلى الخير، و"تعاون على البر والتقوى"، وترشيد الأمر بالحكمة دعوةٌ للمعروف، ونهي الرفق والإخلاص عن المنكر {بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}النحل١٢٥. {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ}يونس٩٩ {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}النحل١٢٥ .

والأنا والآخر وإن اختلفوا إنسانياً في الرؤى والتوجهات فهذا في أصل "الخلق"، تنوُّع في وحدة، ووحدة في تنوع، دماؤه وأمواله وأعراضه حرامٌ، ولا تكون علاقاته إلا علاقة التسامح والبر والقسط والعدل {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ }يونس٩٩، **[**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**]** الممتحنة: ٨.

والأنا والآخر بحكم الوحدة والانتماء والإخاء الإنساني، فإن العدل وحده هو الذي يحكم البينية حتى في حالة العداء والتنافر، ومن دون العدل على كل الأحوال لا تكون لرابطة الإنسانية وانتمائها، ولا لمسؤولية الاستخلاف، معنى **[**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }المائدة٨، {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}الممتحنة٨.

والأنا والآخر بحكم الوحدة الإنسانية والإخاء الإنساني لا يكون الظلم، ولا يكون العدوان، ولا مجال عند رد العدوان والدفاع عن المظلوم لأكثر من ردِّ العدوان ودفع الظلم، وإلا فإن العفو أولى عند المقدرة، {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} الممتحنة ٧-٩، {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ}البقرة١٩٠، {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً}النساء٧٥، {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}المائدة٢، {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}النساء٩٣، {إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً}الفرقان ٧٠-٧١وليس عبثاً في اللغة القرآنية أن يدعى رد العدوان عدواناً {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}البقرة١٩٤؛ ذلك لأن "التصارع" و"التناحر" بين إخوة الإنسانية يعني تجاوز خطٍّ أحمر، ولذلك أطلق القرآن الكريم على الحق المشروع في رد العدوان حين تقتضيه الضرورة "عدواناً"؛ تنبيهاً إلى خطورته، وإلى كرامة الدم الإنساني، ولذلك تختم الآية بمزيد من التحذير بوجوب تحري التقوى {لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}المائدة٢٨.

والأنا والآخر "دعوة بالحسنى" إلى الخير، و"تعاون على البر والتقوى"، وترشيد الأمر بالحكمة والموعظة الحسنة دعوة للمعروف، ونهي الرفق والإخلاص، عن المنكر {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ

عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ}آل عمران١١٠، {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}آل عمران١٠٤ .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من قاتل تحت راية عُمِّيَّة يغضب لعصبة، أو يدعو لعصبة، أو ينصر عصبة، فقتل فقتلته جاهلية"[١٨]

والأنا والآخر في الرؤية الإنسانية تنوُّع في وحدة، ووحدة في تنوع، فالبشر مختلفون في الرؤى والتوجهات، غير أن ذلك هو في أصل "الخلق"، ولا تكون علاقاته إلا البر والقسط والعدل **[**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**]**الممتحنة: ٨، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ }يونس٩٩، {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ}البقرة٢٧٢.

والأنا والآخر بحكم الوحدة والانتماء والإخاء إنسانيون، والعدل وحده هو الذي يحكم العلاقة البينية، حتى في حالة العداء والتنافر، ومن دون العدل على كل الأحوال لا يكون لرابطة الإنسانية وانتمائها معنى، فالأنا المسلم عادل معتدل، قوَّامٌ بالقسط، تحكم تصرفاته نحو نفسه ونحو الآخرين قيمُ العدل، وهي في ذات الوقت قيم الاعتدال وغاياته، فلا معنى للحياة ولا للإنسان، فيما مُنِحَ للإنسان في هذه الدنيا، إذا لم يكن العدل والاعتدال غاية الإنسان في علاقته بالحياة والأحياء؛ إنساناً وحيواناً وبيئةً، فالمسلم إنسان عادل معتدل غير مسرف، بل هو إنسانٌ إعماري محسنٌ متقنٌ.

إنه لا وجود للعدل دون الاعتدال، بل إن العدل إنما هو نتيجة وثمرة للاعتدال في كلِّ شيءٍ، فهو عدل واعتدال في كل شيء؛ في الرضا وفي الغضب، وفي العطاء والأخذ، أخوَّةٌ إنسانية في السلام، ومسئولية وعزةٌ وكرم في رد العدوان.

إذا لم يقصد الإنسان المسلم إلى العدل والاعتدال في حياته وعلاقاته وتعاملاته ومواقفه فإن دعوى إسلامه وإيمانه دعوى واهية واهمة زائفة، يحتاج معها الإنسان المسلم إلى مراجعة جادة و تمحيص وتصحيح، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ}النساء١٣٥، {إِنَّ اللّهَ

يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء٥٨، {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}النحل٩٠ .

{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}المائدة٨، {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}الممتحنة٨ – ٩ .

ويقول الله سبحانه وتعالى {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ }الأنعام٨٢ {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}الروم٥٧، {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً}الكهف٥٩ {وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون}هود ١١٣، {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ} يونس٥٤ {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ، وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}الشورى ٣٧-٤٣.

وفي الحديث القدسي عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه: (قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)[١٩] ، ويقول رسول الله r في خطبة حجة الوداع في الحديث الذي رواه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: (كنا نتحدث في حجة الوداع ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين أظهرنا، لا ندري ما حجة الوداع. فحمد

الله وحده وأثنى عليه.... ثم قال: إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا : نعم . قال: اللهم اشهد)[٢٠]، وجاء عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تكونوا إمَّعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّـــنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا...)[٢١] أخرجه الترمذي ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله **r** : (ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قلت: بلى. قال: فلا تفعل، قم ونم، وصم وأفطر، فإن لجسدك عليك حقاً، وأن لعينكم عليك حقاً وإن لزوجـــك عليك حقاً)[٢٢] وعن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: (...أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم لـــه، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[٢٣] وعن الأحنف بن قيس عن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هلك المتنطعون قالها رسول الله **r** ثلاثاً)[٢٤] ، وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا ينزع من شيءٍ إلا شانه)[٢٥] .

ويقول الله سبحانه وتعالي:

{وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}المائدة٢{فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}البقرة١٩٤{وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ}البقرة١٩٠{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} المجادلة٩ {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥، {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}الحج٧٨.

{لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}البقرة٢٨٦، {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }القصص٧٧، {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـــهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ

رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ}هود٦١ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}الأنفال٢٤، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ}النور٥٥ {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ}هود٥٧.

ويقول الله سبحانه وتعالى:

{الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} الفجر١١- ١٤، { تِلْكَ الدارُ الآخرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً والعاقبةُ للمتقين}القصص٨٣، {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ}البقرة٢٠٥، {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ}هود١١٦، {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}محمد٢٢.

ويقول الله سبحانه وتعالى:

{وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}غافر٤٣، {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ} الشعراء١٥١، {وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ}يونس٨٣، {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً}الفرقان٦٧، {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}الأعراف٣١، {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً}الإسراء٢٦ – ٢٧، {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}الأنعام١٤١.

ويقول الله سبحانه وتعالى:

{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً}المائدة٣٢ {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ

أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}الأنعام١٥١، {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَق وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً}الإسراء٣٣.

ويقول الله سبحانه وتعالى:

{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}آل عمران ١٠٣- ١٠٤.

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}البقرة١٤٣ {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ}آل عمران١١٠

والآخر وأنا كيان نفسي واحد في كل فرد؛ لأن الأنا في حقيقة تركيب الذات الإنسانية ليست تركيباً يسيراً، بل هي كيان مركب، فهي الذات الإنسانية الكلية، وهي النفس الأمارة، وهي النفس اللوامة، وهي كيان متعدد الانتماءات والامتدادات في داخله، ويتكون من كيانات وأبعاد لا تنفصم عن الفرد، ولا يُستغنى عنها، بدءًا بالإنسانية (فالأنا هي الإنسان، والإنسانية جزء لا يتجزأ من الأنا) إلى الأمة والقوم والعشيرة، وانتهاء بالقربى والجوار؛ لأن الأنا الإنسانية هي انتماء إلى كل هؤلاء، وهم جزءٌ من هذه الأنا الإنسانية، وهي جزء منهم.

فالآخر وأنا في طلب الحاجات في داخل كل ذات وكل نفس كيان موزع بين نوازع طينية عدوانية حيوانية يحكمها قانون الغاب حيث "الحقُّ للقوة" (النفس الأمارة بالسوء)، وتطلعات وأشواق روحانية طلباً للعدل والرحمة والسلام يحكمها قانون العدل حيث "القوة للحق" (النفس اللوامة)؛ وهذا ما يجعل الفرد الإنساني كياناً موزعاً بين نوازع قانون الغاب وتظالم الحيوان، حيث الحق للقوة وروحانية عدل الرحمن، حيث القوة للحقّ وتأتي الرؤية الكونية القرآنية لتجعل الفطرة السوية في

بؤرة وعي الإنسان لترشّده؛ وهو الأمر الذي يجعل نفس الإنسان تتطلع وتنزع نحو قيم الحق والعدل، وتنكر على نفس الإنسان ما يخالجها من نوازعه الطينية المادية العدوانية والعنصرية الحيوانية، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}الأنفال٢٤.

وأنا والآخر المسلم إخوة هوية وعقيدة ورؤية، هي جوهر الذات الإنسانية في حياتها ومآلها، لأن جوهر الوجود الإنساني ليس شكلاً ولا طيناً ولا مادةً، فكل ذلك وسائل وأدوات للوجود الإنساني في الأرض؛ فهو يسخرها، ويعبِّر بها عن فحوى إرادته ورؤيته وقيمه ومبادئه، فبدون المادة وتسخيراتها وإبداعاتها وجمالاتها لا يكون في عالم الإنسان وجود {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}الملك٢، وبذلك تكون أخوة الآخر المسلم السوي، أعزَّ وأغلى رفقة وأخوَّة إنسانية؛ ذلك لأن العقيدة هي أعمق رابطة روحية إنسانية {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}الحجرات١٠، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ*وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}آل عمران١٠٢-١٠٤، {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}التوبة٧١، وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه...)[٢٦] ، وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه قال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[٢٧] ، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)[٢٨] ، وعنه صلى الله عليه وسلم قال: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[٢٩] ، ويقول عليه

الصلاة والسلام "وأحب لأخيك ما تحب لنفسك"[30]، ويقول عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع: "يا أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال اللهم هل بلغت"[31]، وعن عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس بالمؤمن الذي يبيت شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه)[32] ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: ...والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...)[33] ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله)[34] ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن ربكم واحدٌ، وأباكم واحدٌ، ولا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لعجمي على عربيٍّ، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى)[35] ، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . فقال رجلٌ: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره)[36]، وقد روى حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من لم يهتم للمسلمين عامة فليس منهم" رواه الحاكم في مستدركه.

فأخوَّة الإسلام هي أخوة خير وحق وعدل وبر ورحمة، وهي أخوّة تكافل وتعاون على البر والتقوى، ولذلك فهي أغلى وأسمى وأعز لون من ألوان الإخاء والانتماء الإنساني، لو أدرك المسلمون في عالم اليوم أبعاد هذا الإخاء وهذا الانتماء، وأحسنوا تَمَثُّلَ الرؤية القرآنية الكونية، لكانوا حقاً أمةً واحدةً ويداً واحدة، وكياناً واحداً، وسبيلاً مستقيماً عزيزاً واحداً، يقود ويرشد، ويبني ويبدع، ويعمر.

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} الفاتحة ٥-٦، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}البقرة١٤٣، {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}فصلت٤٦، {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}الإسراء٧، {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}فصلت٣٣ .

والآخر وأنا في الرؤية الكونية القرآنية الحضارية الإعمارية انتماءات متعددة كلها "أنا"؛ لأن الأنا انتماءٌ دماً ونسباً وجنساً وإنسانيةً، والأنا انتماءٌ عقيدةً وفكــراً، والأنا في كل ذلك هي كلٌّ واحدٌ مكونٌ من كل هذه الانتماءات، وكلّ واحدٍ من هذه الانتماءات تجعل الأنا هي الــ"هُمْ"، وتجعل الــ"هُمْ" هي الأنا.

فالآخر وأنا، وأنا والآخر، في الرؤية القرآنية الكونية في الحقيقة كــلٌّ واحــدٌ متعدد الجوانب والانتماءات، وذلك هو الإنسان قرآنياً، وحدة في تنوع، وتنوع في وحدة، لا تفاضل إلا في مدارج تحقيق الذات الإنسانية السوية، التي هــي أصــل الفطرة، وغاية وجودها، ومناط مسؤوليتها واستخلافها في هذه الحياة الدنيا.

والأنا والآخر؛ كلنا بشر، وجميعنا بفطرتنا مستخلفون في الأرض، وكل واحدٍ من المسلمين عليه أن يؤدي واجب الأمانة ومــسئولياتها وصــفاتها والتــصرف المسؤول عنها، بقصد الإصلاح والبعد عن الإفساد في الأرض؛ فيلتزم العدل فــي علاقاته، ويلتزم الاعتدال في تصرفاته، ويلتزم الإصلاح في سعيه، وهو لا يعتدي ولا يظلم ولا يسرف ولا يبذر، وهو صادقٌ لا يكذب، ويفي إذا عاهد أو وعد، ولا يخون إذا أؤتمن.

ومن هنا؛ فإن أمانة الاستخلاف تستوجب على المسلم الاتــصاف بكــل هــذه الصفات الإصلاحية الإعمارية.

والمسلم الصادق إن أخطأ في شيء من مسؤوليات أمانته تجاه نفسه، أو تجــاه سواه، ندم وتاب وأصلح

وهذه الصفحات الاستخلافية تستدعى صفات شخصية نوعية تجعل تلك المهام والصفات الاستخلافية حقيقة في حياة الإنسان وسلوكه وعلاقاته.

وإذا لم يجد الإنسان نفسه قادراً على أن يتصف بها، وينجذب إليهــا، وينــأى بنفسه عن أضدادها، فليعلم أنه ليس أهلاً لأداء أمانة الاستخلاف.

وقد فصل القرآن الكريم هذه الصفات، فإذا لم يجد الإنسان المسلم نفسه متصفاً بها في ذاته، وفي أدائه، وفي علاقاته مع الآخرين، إنساناً وحيواناً وبيئةً، فعليه أن يعود إلى نفسه، وأن يحاسبها، وأن يأخذ بها إلى ما يؤهله لحمل الأمانة التي هي معنى وجوده وقرار مصيره.

فأداء الأمانة يقتضي صفة الصدق والبعد عن الكذب، ويقتضي الوفاء وعدم الحنث بالعهود، ويستوجب العدل وعدم البغي والعدوان، ويتطلب التواضع وعدم الكبر، ويحثّ على الإحسان وعدم البخل، وعلى الإصلاح وعدم الإفساد، فإذا وجدَ الإنسانُ المسلمُ في نفسه ميلاً إلى القسوة والعدوان، وإذا وجد في نفسه ميلاً إلى الإسراف والتبذير، وإذا وجد في نفسه ميلاً إلى الكذب وحنث الوعد وخيانة الأمانة، فليعلم أن إيمانه كذبٌ، وأن ذكره رياءٌ، وأن عليه أن يواجه نفسه، وليعلم أنه فــرَّط في أمانته، وأن عليه ليكون مسلماً حقاً أن يرجع عن غيِّه، وأن يصلح أمره قبل فوات الأوان، حين {لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}الشعراء٨٨-٨٩.

وقد فصل القرآن الكريم والتوجيه النبوي هذه الصفات، ودعا المسلمين والناس جميعاً إلى التحلي بها، وقد وضح القرآن الكريم وسيرة النبي الكريم أن من لا يتحلى بهذه الصفات فإن ذلك يدل على زيف إيمانه، وأنه لم ينتفع بما يقوم به من ذكر الله، ولا من صلاته وصيامه وقيامه.

يقول الله سبحانه وتعالى:

{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}الأحزاب٧٢، {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ}النساء٥٨، {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً} الإسراء٣٤، {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ}المؤمنون٨، {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}البقرة٢٨٣، {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}الأعراف٣٣، {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}النحل٩٠، {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}الشورى ٣٩، {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ}الشورى٤٢، {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ

السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ}الأعراف١٦٢، {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}هود١٠٢، {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً}طه١١١، {وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}الرعد٢٥، {وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}هود٨٥، {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}الأعراف٣١، {وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ}يونس٨٣، {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً}الإسراء٢٧، {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ}الشعراء١٥١، {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}غافر٢٨.

{وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}آل عمران١٨٠، {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء٣٧، {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً}الإسراء٢٩، {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}الحشر٩، {وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}الليل٨ – ١١، {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}الماعو١ – ٧.

{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ

أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}البقرة١٧٧، {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ}آل عمران٩٢، {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}النور٣٣، {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}النساء٣٦.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}الزمر٣. {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ}النحل٢٣، {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً}الإسراء٣٧، {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً}الفرقان٦٣، {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}القصص٨٣، {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}لقمان١٨، {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}غافر٣٥.

{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}النحل١٢٥، {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ}النحل١٢٦، {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}لقمان١٧، {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}الأحزاب٣٥، {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}فصلت٣٤، {وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}الشورى٤٣، {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}البلد١٧، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}العصر٣.

{وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}البقرة٢٢٤، {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}النساء١١٤، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}الحجرات١٢، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}الحجرات١١، {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}الحشر١٩، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً}النساء ٢٩- ٣٠، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى} البقرة٢٦٤.

{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ}المائدة٤، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}المائدة٨٧، {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}الأعراف٣٢، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}البقرة١٧٢، {وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}الأنفال٦١، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ }البقرة٢٠٨، {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}الشورى٣٨، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}الصف ٢–٣.

{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}ص٢٦، {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}الجاثية١٨، {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}النازعات٤٠- ٤١، {وَلاَ تَيْأَسُواْ من رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}يوسف٨٧، {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ}آل عمران١١٠، {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }المائدة٢.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

عن أبي وائل عن عبدالله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا"[٣٧]، وعن عبدالله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (...ألا إن قتال المؤمن كفر، وسبابه فسوق، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، ألا وإياكم والكذب؛ فإن الكذب لا يصلح بالجد ولا بالهزل، ولا يعدِ الرجل صبيه ثم لا يفي له فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإنه يقال للصادق صدق وبر، ويقال للكاذب كذب وفجر، ألا وإن العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)[٣٨] ، وعن سمرة بن جندب قال: قال النبي صلى الله عيه وسلم: (رأيت رجلين أتياني قالا الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يكذب بالكذبة تحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيُصنع به إلى يوم القيامة)[٣٩] ، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان)[٤٠] ، وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المسلم من سلم المسلمون من ولسانه يده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه"[٤١]

وهذا الصاحب ابن الخطاب، ربيب الكتاب وتلميذ النبوة، يقتصّ للشاب القبطي ليضرب القبطي ابن القائد والأميرِ العربي عمرو بن العاص، ويرفع صوته بنور هدي الرؤية القرآنية الحضارية والسيرة النبوية مدوياً على مرِّ الزمان، مقرراً إخاء الإنسان ومساواته، بعيداً عن العنصريات والطبقيات، مخاطباً عَمْراً وابنَ عَمْرٍو والأجيال من بعدهم قائلاً: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم

أحراراً !!)[٤٢] ، نعم، متى استعبد الإنسان أخاه الإنسان!! وهم إخوة مكرمون، من نفسٍ واحدةٍ، منذ أن خلق الله الإنسان حتى يرث الله الأرض ومن عليها ليوم الحساب.

وبعد: فإن من الواضح أن الرؤية القرآنية الكونية الحضارية هي رؤية خير وحق وعدل، وأنها رؤية دوائر إيجابية متداخلة تدعو إلى الإصلاح والسلام، وهي بذلك تعبر عن الفطرة السوية الإنسانية في الوحدة والتنوع، وفي التوازن والتكامل بين الكينونة الفطرية الفردية الإنسانية، والكينونة الفطرية الجماعية؛ حيث لا وجود للجماعة من دون أفراد، ولا أفراد من دون جماعة، فالجماعة هي أفرداها بمخلف كينوناتهم، والأفراد هم الجماعة في مختلف صورها ومكوناتها وأدوارها كالجسد الواحد، لا وجود له من دون أعضائه، ولا معنى ولا وجود للأعضاء من دون كينونة الجسد الكلية، ، فلا فرد من دون أسرة، ولا من دون قوم، ولا من دون وطن، ولا من دون أمة، والوعي بالهوية الأسرية والجنسية والعرقية والوطنية والدينية، والإنسانية وما تفرزه من علاقات وتضامنات إنسانية هي دوائر متداخلة، وهي أبعاد أساسية إيجابية خيِّرة، في كيان الفرد لسلامة الأداء، وكمال الوجود، ونمائه وازدهاره، على أساس من مبدأ العدل والإحسان والسلام، ورفض الظلم والفساد والعدوان.

ومن هنا ندرك أن كل قدرة وكل عطاء وكل إنجاز خيِّر يحققه أي فرد فإنما هو أيضاً إنجاز وفخر للجماعة، وهو إنجاز وفخر للأسرة، وللقوم، وللوطن، وللأمة، بل للإنسانية كلها.

كما أن كل قدرة وكل عطاء وكل إنجاز خيِّر تحققه الأسرة، ويحققه القوم، ويحققه الوطن، وتحققه الأمة، هو أيضاً إنجاز وفخر وكرامة لكل فرد ينتمي إلى كل جماعة من هذه الكيانات الجماعية الإنسانية.

إن ما يميز الرؤية الكونية القرآنية الإعمارية أنها على العكس من الرؤية المادية العدوانية العنصرية الحيوانية، تجعل من الاختلاف والتمايز الإنساني والكوني رؤيةً توحيديةً تكامليةً؛ تتكامل فيها مختلف الكيانات، ويتأكد فيها المشترك

ويفعّل فيها المختلف إيجابيًا ليكوّن علاقات متداخلة متكاملة إيجابية توحيدية، هـي لبُّ الفطرة الإنسانية السوية، ومناط وجودها واستخلافها في الأرض، فلا مجـال فيها للمغالاة الفردية، ولا للتطرف الجماعي، بل هي في كل أبعادها فطرة تكامـلٍ وتوازنٍ واعتدالٍ وسلام.

لذلك نجد دعاء المؤمنين في القرآن الكريم دعاء لا يقف عند النفس إلا فيمـا يتعلق بخصوصياتها، ولكنه يتعدى إلى الذات الجمعية؛ حيث لا تنفـصم مـصلحة الفرد عن مصلحة الجماعة.

يقول الله سبحانه وتعالى: {إِيَّـاكَ نَعْبُـدُ وإِيَّـاكَ نَـسْتَعِينُ، اهـدِنَا الـصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}الفاتحة٥-٦ {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُـبْ عَلَيْنَـا إِنَّـكَ أَنـتَ التَّـوَّابُ الرَّحِيمُ}البقرة ١٢٧-١٢٨ {وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِـرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}البقرة٢٠١ {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَـا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَـا فَانـصُرْنَا عَلَـى الْقَـوْمِ الْكَـافِرِينَ} البقرة٢٨٦، {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنـتَ الْوَهَّابُ}آل عمران٨، {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}آل عمران٥٣، {إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنـتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}المؤمنون١٠٩، {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً}الفرقان٧٤، {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَـا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}الحشر١٠.

ويقول سبحانه وتعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء }آل عمران٣٨ {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِـي أَمْرِي واحلل عقدة من لساني ، يَفْقَهُوا قَوْلِي ، وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي}طه٢٥-٢٩. {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}الأنبياء٨٣.

الرؤية القرآنية الكونية هي رؤية السلام العالمي:

لقد جاء الدين الخاتم دينًا هاديًا ومرشدًا، ومبشراً ومرشداً لمرحلة الإنسانية العلمية العالمية، ورؤيةَ عدلٍ وإخاءٍ ورحمةٍ وسلامٍ وإعمارٍ؛ لذلك لم يكن الخطاب القرآني خطابًا خاصاً بقبيلة، ولا بقوم ولا فئة ولا طبقة، ولكنه خطاب إلى الإنسان، وإلى العالمين، كما لم يكن أيضاً خطابَ خوارق وإعجازات تتسق وسابق المراحل الحضارية التي مرَّتْ بها الإنسانية، بل هو خطاب كتاب وعلم وقراءة وتفكر وتدبر، وخطاب عقل وحجة وإقناع، وخطاب هداية وترشيد وإرشاد، وخطاب إخاء وعدل وإعمار وسلام فكانت الرؤية القرآنية والوحي هي الرؤية الكونية لإنسان المرحلة العلمية العالمية؛ تعبيراً عن الفطرة الإنسانية السوية، والسنن الكونية الأزلية؛ لترشيد الإنسانية وهدايتها، وتحقيق غاياتها الإعمارية الخيِّرة، ولبناء منظومة الأمن والسلام في كيانها؛ وهذا يتخطى الرؤى الحيوانية المادية العنصرية والعرقية الضيقة الانعزالية والتي تنتمي إلى عصور ظلمات البدائية وما قبل التاريخ، والتي هي عصور عزلات القبائل والشعوب والأقوام، وعصور البدائيات والخوارق والكهانات والخرافات، فجاءت رسالة "الإسلام" أو رسالة "السلام" القرآنية لتعبر عن مرحلة العلمية العالمية ووحدة الإنسان، وتخطي نزعات العنصريات وعدوانية القبليات والقوميات والشعوذات والخرافيات، وعبرت وبلورت عناصر الوحدة والتكامل الإيجابية البنَّاءة في كيان الإنسان، ومختلف عناصر تكوينه وتراكيبه الإنسانية السوية.

وبقدر ما كان تعبير العنصريات والقبليات والقوميات هو إقصاء الآخر، حيث تركز منطلقاتها وفلسفتها على وجوه الاختلاف؛ ليكون الاختلاف أداة الإقصاء والاستعلاء ودافعاً وميسراً للصراع والعدوان والتظالم؛ لأنه لا مجال للتمييز والاستعلاء والصراع والعدوان ضدَّ من كان صنوًا ومثيلاً، وهكذا فإن رؤية الاختلاف والتمايز السلبي المادية الحيوانية هي وقود إذكاء روح التمايز والعداء، وهي المناخ والبيئة والتي تجعل وجوه الاختلاف والتنوع حراباً متقابلة؛ وبذلك تسهل علاقات الصراع والظلم والقسوة والاستعلاء والتسلط والعدوان في علاقات الإنسانية بين الدول والأعراق والأمم، التي بسببها ذاقت الإنسانية المعاصرة جرائم

الاستعمار والحروب العالمية؛ التي تتهدد الإنسانية حتى اليوم بسباقات اختراعـات آلات الدمار الشامل بيد أنظمة عنصرية تسلطية لا تـؤمن إلا بـسياسات القـوة وأطماع عصابات الاحتكارات ونقابات الفراعنة ونقابات كهنة الإعلام والتـضليل والفساد.

أما تمكين روح الوحدة والتكامل والتفاعل الخيِّـر فإنها دعوة، وإذكاء لـروح التآلف والتعاون والمـودة والرحمـة والـسلام {وَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّـا رَحْمَـةً لِّلْعَالَمِينَ}الأنبياء١٠٧، {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}المائدة٢، {فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ} الأنعام١٥٧، {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَـيْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً وَبُـشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} النحل٨٩.

ولذلك فإن الإسلام والرؤية القرآنية هي – على وجه الحقيقة – الفلسفة والرؤية الوحيدة التي أبرزت وأكدت وحدة الإنسان، وأكدت وأبرزت في كلِّ الاختلافـات، وعلى المستويات الإنسانية كافة، معاني التنوع وأبعاد التكامل في إطـار الوحـدة الإنسانية [يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء] النساء: ١، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّـن ذَكَـرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}الحجـرات١٣، {وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}النساء٣٢، {أَهُمْ يَقْـسِمُونَ رَحْمَـةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} الزخرف٣٢، وهـي الفلسفة والرؤية الكونية التي ضَبطَ وقع علاقاتها التكاملية فـي دوائـر متداخلـة، وبروح المودة والإحسان والعدل، وتحريم الظلم والعدوان من الأطراف كافة، وفي كل الأحوال.

إن الرؤية الكونية الفردية الطينية المادية (النفس الأمارة) هي التي أفرزت في هذا العصر البعد السياسي القومي العنصري الإقصائي الذي تبناه الغرب بعـد أن تخلى في رؤيته الكونية عن الأديان، لما أصاب الدين فـي تراثـه وثقافتـه مـن التحريف والخرافة وتسلط الكهنوت، ولأن تلك الأديان تخص مراحـل تاريخيـة

إنسانية سابقة، فولى وجهه مادياً ليبرالياً أو ماركسياً إلى نقيض الرؤية الروحيـــة، أي الرؤية الطينية المادية التغالبية الصراعية التي تنتمي إلى قـــانون الغـــاب؛ لأن التضامن العنصري العدواني هو الأصل في علاقات حيوان الغاب، وهو الذي أنتج عصر العنصريات والقوميات، وما تولد عنها من سياسات القوة العنصرية الأنانية العدوانية التسلطية (الاستعمارية) الغاشمة، كما أنتجت الرؤية الماديـــة الـــشمولية التسلطية الماركسية الملحدة، باسم الصراعات الطبقية الاجتماعيـــة، علـــى مـــدى العالم، وفي داخل كل مجتمع، والتي أحالت الكون في الحقيقة إلى عشوائية طـــين وتراب، وإلى ساحة صراع أبدي ذاقت منه شعوبها والشعوب التي خضعت لهـــا وكل من حولها – ولاسيما الشعوب الإسلامية في وسط آسيا وشـــرقها - أقـــسى ويلات المظالم والقهر والفساد، والذي أدى إلى انهيار إمبراطوريتها من داخلها.

ومع المخاطر العظمى لرؤى شرائع الغاب الأمَّـــارة المادية، وما عانت بسببها من حروب كونية وإقليمية مدمرة، وما يهدد مستقبل الوجود الإنساني معهـــا مـــن إمكانات تدمير أسلحة الدمار الشامل؛ فإن من المهم للأمة المسلمة وللإنسانية تجلية الرؤية القرآنية الكونية في بناء المجتمعات، وفي علاقات الـــشعوب والأمـــم؛ لأن ذلك هو طوق النجاة لترشيد المرحلة العلمية السننية العالمية، وتمكـــين حـــضارة العدل والسلام، ولكن يجب أن ندرك أن هذه التجلية لا يكفي أن تكون تجلية نظرية صورية، بل تجلية علمية معرفية، وتربوية وجدانية وتنظيمية مؤســـساتية، يقـــوم عليها نظامٌ إنساني عالمي سلمي يؤمن بوحدة الإنسان وتكامله وتعاونه، وإن جماله ونفعه وطاقته تكمن في تنوعه حتى يمكن القيام بمهمـــة الاســـتخلاف والتـــسخير والإعمار الخيـــر، وإرساء قواعد العدل والتراحم والسلام بشكلٍ عمليٍّ فعَّـــال في عالم الإنسان.

ولعل سورة التين توضح لنا في كيان الإنسان علاقة جانب الروح (النفس المطمئنة) وجانب الطين المادي الحيواني(النفس الأمارة) ودور الإرادة الإنسانية في تزكية النفس الإنسانية، وتغليب جانب السمو والإصلاح الروحي فيها، على جانب الانحطاط العدواني الطيني الحيواني المادي المفسد.

وتبدأ سورة التين بالقسم الإلهي الذي يؤكد أهمية القضية المطروحة(والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين) والقضية المطروحة هي قضية خلق الإنسان وعلاقة الروحي والمادي في كيانه(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) وهو خلقه الروحي في عالم الروح في الجنة سعيداً مبرَّأً من الحاجات والسوءات، {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى*إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى*وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} طـــه ١١٧-١١٩ ولكنه حين عصى وأصغى لقوى الشر والفساد ووسوسة إبليس، وأغضب الله عليه فأنزله الله من عالم سعادة الروح ونقائه وصفائه، إلى عالم الحيوان الطيني المادي بحاجاته وسوءاته وتظالمه {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} طـــه، ليجمع الإنسان في كيانه الروح والطين معاً ١٢١ (ثم رددناه أسفل سافلين).

وبين عالم الروح والضمير وقصد الخير والإصلاح وعالم المادة الحيواني بعدوانيته وتظالمه، يكون دور الإرادة الإنسانية في الخيار بين قوى الروح في تزكية النفس بالعدل والإصلاح والإعمار وبين نوازع المادية الحيوانية العدوانية في التظالم والعدوان والإفساد {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى*وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} طـــه ١٢٣-١٢٤، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) أي إن صلاح الإنسانية وصلاح وجودها وحضارتها على الأرض رهن بانتصار قوى الروح بيقين الإيمان بوحدانية الخالق وغائية الخلق وأخلاقية الحياة الخيرة بكل الجد والاجتهاد بالعمل السنني (الصالح).

إن حضارة الإسلام الحق هي السبيل إلى صلاح الإنسانية وهدايتها واستنقاذها الروحي من وهدة وحشية المادية المعاصرة وتظالمها وصراعاتها، والتي تهدد بأسلحة دمارها الشامل، كيان الإنسانية ووجودها {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} العنكبوت ٦٩

إن الرؤية القرآنية الكونية الروحية الحضارية العالمية التي جاءت بالعلمية والسننية، توجب تنقية هذه الرؤية من تأثيرات الجاهلية القبلية والشعوبية العنصرية وتحريف التخريفات الإسرائيلية والأوهام الأسطورية، واستعادة وحدة المعرفة الإسلامية، وعلمية منهج فكرها ومعرفتها، وإنتاج المعارف والإبداعات في مجالات علوم الفطرة الاجتماعية والسننية الفيزيائية لتجلية الرؤية القرآنية، وإدراك مرامي النصوص، وتنزيل معانيها ودلالاتها على حقائق الفطرة والسنن، وترشيد التعامل البنَّاء معها.

هذه هي الرؤية الكونية القرآنية الحضارية التي شوَّهها ودمَّر طاقاتها الخطابُ الترهيبي الإملائي التجزيئي؛ الذي تفاقمت تشوهاته الكلية والكونية، والرشد العلمي الاجتماعي الاجتهادي التجديدي في الزمان والمكان كلما تباعد الزمان والمكان عن أحوال عهد الرسالة، وكلية وحكمة تنزيلاتها النبوية؛ وهو ما جعل من قيم الإسلام أدوات مفككةً لا تنتمي إلى كليات إيجابية دافعية تجعل لهذه القيم – برغم تعلق الأمة وتقديرها وإعزازها لعقائدها وتراثها - فاعلية حقيقية ملموسة في حياة الفرد المسلم؛ لأنها أمست لا تمثل أدوات ووسائل تحقيق رؤية كلية شمولية إيجابية تعبر عن ذات الإنسان المسلم وتطلعاته التسخيرية الإعمارية الحضارية، وتحرك قوة الدافعية الوجدانية لدى هذا الإنسان المسلم، فانتهى الأمر بهذه القيم في واقع الأمة وعصورها المتأخرة - على الرغم من تعلق الأمة بها وتقديرها لها، والتي لا تني ترددها في التلاوات وفي خطب الجمع، وفي المحافل والتجمعات والأدبيات الدينية - لتصبح ضئيلة النفع كقطع الماكينة المفككة التي لا تكوّن كيانًا له قدرات الفعل والتحريك والإنتاج، ولذلك لم نعد نجد لهذه المبادئ والقيم والمفاهيم القرآنية الإسلامية السامية العزيزة الثمينة وجودًا يُلمس، ولا أثرًا فعالاً محسوسًا في حياة الأمة وعلاقاتها وتعاملاتها.

حياة المسلم في الخطاب المعاصر أصبحت في كثير من جوانبها حياة سلبية مهزومة، يملأ جوانبها الخوف والسلبية، وغايتها وغاية رؤيتها – بشكلٍ واعٍ أو غير واعٍ – هو "إلغاء الذات" لمرضاة الآخر، **أياً كان هذا الآخر الذي سينتهي الأمر بشأنه إلى مصالح استبداد "تقابة رجال السلطة" وفسادهم** القوي الجبار

القاهر، وتقديم الولاءات والخدمات لـــهم برغمها، وهي حياة ورؤية مثقلة بأوامر التبعات والواجبات والتكاليف لمن يوسم بالجهل والقصور، ولمن يأمر في أساليب وخطابات مختلفة بالمذلة والخضوع والخنوع، وهي رؤية على عكس مــا عليــه الرؤية القرآنية الكونية الحضارية؛ لأن الإنسان فيها هو ذلــك الإنــسان المكــرم المستخلف القادر، الساعي إلى غاية السمو والإبداع والتسخير والإعمــار؛ التــي يحقق بها ذاته، ويصفو بها معدنه، وتعلو وتسمو بها مكانته، وهو بقدر ما "يحقــق ذاته" "يُعبّــدُ" ذاته وطريقه في الحياة بدوافع فطرته السوية للحق والخير والعــدل والسلام، وبالحق والخير وبالعدل والرحمة والسلام، وبقدر ما يحقق ذاته، وبقدر ما يجني من ثمرات عالمه ماديًا وروحيًا، يستوي ذلك في السراء وفي الضراء، وفي المتع وفي المعاناة، والإنسان في كل هذه الأحوال، يحقق ذاته وفطرتــه الــسوية وحاجاته المادية والروحية، ويرضي بذلك أيضاً ربه وخالقه، وهكذا فإن الإنــسان المسلم في الرؤية القرآنية الكونية الحضارية بقدر ما يحقق ذاته وفطرته الــسوية، بالأخذ أو بالعطاء، بالمتعة أو بالتضحية، فإنه يحقق أيضاً "رضا الله" الذي خلــق الخلق وأودع كلَّ ما في كيان الإنسان من فطرات سوية، وسخر لــه ما سخر من سنن وإمكانات، وما أتاح له من مسالك وخيارات، {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَــاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}الإسراء٧٠، {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَــافِقِينَ لَــا يَعْلَمُونَ}المنافقون٨.

وهكذا فإنه بقدر ما تحقق الذاتُ الإنسانية السوية فطرتها بكل المتاح من المنافع والمتع والعطاء والبذل، وكل ما تقتضيه الكرامة الإنسانية من التضحيات والبــذل ماديًا وروحيًا؛ مما هو من طبع الفطرة السوية، فإنها تحقــق النــوازع الفطريــة السوية الخيرة الإعمارية، وتحقق بذلك للإنسان حاجاته المادية وتطلعاته الروحيــة بالوسائل السننية الأخلاقية؛ التي بها يتحقق رضا الله الخــالق وحبــه وتكريمــه للإنسان المؤمن الصالح العامل العالم (بالسنن) {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}النور٥٥.

إنه لا يمكن للإنسان أن يتطلع إلى رؤية كونية حــضارية فطريــة؛ يعرفهــا الإنسان بفطرته وبمقولاتها البدهية أكثر ولا أفضل ولا أكمل من الرؤية الكونيــة

القرآنية الحضارية التي تجيب – بما يقنع – عن تساؤلاته الكلية الكونيـــة، والتـــي ترشده إلى السبل الفطرية السوية التي تحقق لـــه سعادة الدارين؛ جمالاً وســـعادة ونفعًا، وقدرةً علميةً وكرامة إنسانية، على الوجوه والأصعدة كافة ، ماديًا وروحيًا، في هذه الحياة، وفيما بعد هذه الحياة في عالم الأبدية والقرار.

إن تجلية هذه الرؤية الهادية الربانية الفطرية البديعة، وتفعيلها في حياة البشر، لا تكون إلا بالعودة إلى القرآن الكـــريم بالدرجـــة الأولـــى (عهـــد النبـــوة وأداء الأصحاب)، ومن ثم بالفهم الصحيح لمعاني الخطابات القرآنية، في تعددها وتعـــدد المخاطبين بها، والغاية المرجوة منها، وسلامة توجيهها في ضوء هـــذه الرؤيـــة الكلية؛ لتتحقق في واقع الحياة الإنسانية، وتهدي – في مرحلة العلمية والعالميـــة - مسيرتها، وترشِّدها، وتحقق غايات الحياة الدنيوية ومقاصدها، في غلبة قوى الخير والحق والعدل والتعاون والرحمة والسلام في عالم الإنسان، وإمكاناتـــه العلميـــة الحضارية.

لو أن المسلمين أدركوا أبعاد الرؤية الإسلامية القرآنية الكونيـــة، ومنظومـــة الثقافة والحضارة الإسلامية الكلية والتزموها في فهم أنفسهم ومجتمعاتهم، وفي فهم إنسانيتهم ودورهم وفي ترشيد مسيرة حياتهم ومنهج فكرهم ومنظومة حـــضارتهم، لكان أثر الإسلام، ورؤية الإسلام، على الأمة والإنسانية مضاعفًا، ولما انتهى بهم الحال إلى ما هم عليه اليوم من تهميش وضعف، ولاهتدى بهدي الإسلام مزيدٌ من بني البشر، بل لاهتدى جُلُّهم إلى الإسلام، ولانتشر الإسلام في آفاق أوسع مما نراه اليوم.

لو التزم المسلمون الرؤية القرآنية الكونية في إدراك الفطرة الروحية الإنسانية السوية (النفس اللوامة) بمنظار الوحي لالتزموا دائمًـــا المـــنهج العلمـــي الـــسنني الموضوعي الشمولي، ولانفتحت الرؤية الإسلامية على عوالم الفطرة السوية فـــي العلوم الاجتماعية والإنسانية، ولعلمناها وانتفعنا بها قبل ســـوانا، ولأغنينـــا هـــذه المجالات بالغايات والمقاصد الروحية السوية الخيِّـــرة الحقيقية للفطـــرة الـــسوية الإنسانية والسنن الكونية، ولما تراجع وانكفأ النظر المسلم في رعاية شؤون الأمة ومتغيرات الحياة؛ حتى ما عاد قادراً على أن يتمثل في الحقيقة، وبـــشكل علمـــي

تجديدي إبداعي، بُعْدَ الزمان والمكان في فهم أحوال الإنسان ومتغيرات بيئته وإمكاناته وتحدياته؛ لتحقيق مقاصد الرؤية الكونية القرآنية وقيمها ومفاهيمها، وحتى لا ينتهي الفكر المسلم كما نرى اليوم إلى الانطواء والانزواء والتقليد والمحاكاة والجمود.

لو التزم المسلمون الرؤية القرآنية الكونية بفهم مستنير لكانت رؤيتهم في شؤون التسخير والإعمار رؤية توحيدية تكاملية علمية حيّة سننية، لا يعتريها الغبش والفتور، ولا تتشعب بها الرؤى العشوائية التواكلية بين طلب السنن وأوهام الخرافة والشعوذة، ليسود في نهاية المطاف "خطاب الترهيب" و"مركزية الذات"، ولتغيِّم الرؤية، وتضعف الدافعية، وتفتر الهمم، فيتباطأ العطاء، ويخبو الإبداع، وتتشوه الشخصية المسلمة، وهو ردٌّ فعل لدى الإنسان المسلم لخطاب "إلغاء الذات"؛ لتنتهي إلى حالة "مركزية الذات" بكل سلبياتها وفرديتها وأنانيتها، وليسود الاستبداد، وينتشر الفساد، ويتكلَّس نظام المجتمع، وينعدم الإبداع والإتقان؛ فينهار العمران، وتضعف الأمة، وتصبح أمة عاجزة مسلوبة مقلدة استهلاكية متخلفة، ويتقدم من أخذوا عنها حين غفلنا وانصرفنا عما كان بإمكاننا خوض غماره بسبق ونجاح، ولنترك الساحة لسوانا، فيواصلوا ويحققوا ما كانت أمة التوحيد والتوحيدية أولى به وأقدر عليه منهم، لا ماديًا فقط، بل روحياً أيضاً، وهو الأهم، لأننا نكون قد أضعنا ما كان بالإمكان للأمة أن تسهم به روحيًا وأخلاقيًا؛ لترشيد العطاء الإنساني المادي برؤية الإسلام الروحية؛ لتسود في علاقات أمم البشر قيم الإخاء والعدل والتعاون والرحمة والسلام.

ولابد لنا هنا أن نوضح الفرق بين الإسلام والمسلم من ناحية، وكذلك بين الدعوة والدولة.

فالإسلام هو الرسالة الإلهية الخاتمة لترشيد الإنسان وإمداده بكليات الرؤية الكونية الحضارية لمعنى وغايات وجوده وإمكاناته الفطرية الاستخلافية في الأرض.

والإنسان المستخلف في كل حالاته وتنوعاته هو المخاطب، وكل إنسان يأخذ من الإسلام وقيمه وتعاليمه بقدر طاقته وإرادته، وهو في خاتمة مطاف الحياة والسعي فيها بالخير أو بالشر مسؤول ومحاسب.

والمسلمون هم قبل كل شيء وبعد كل شيء أناسٌ وبشرٌ يؤمنون بأسس الإسلام وثوابت عقيدته، ولكن كل واحد منهم متروك لعقله ووجدانه وإرادته في أمر أخلاقية سلوكه وجدية سعيه وإتقانه، فيكون بينهم ككل البشر تفاوت في قوة الإيمان وسلامة السلوك والالتزام، ويكون من الخطأ نسبة سلوك الفرد المسلم إلى دينه وعقيدته، فكل ما التزمه من الدين والعقيدة في سلوكه وعمله إنما هو ولاشك بتأثير دينه، وكل ما انحرف عنه وعن مقاصده وكلياته فيعود ذلك إلى الفرد المسلم لأسبابٍ تتعلق به كأي بشر وما تؤثر عليه من عوامل العلم والمعرفة والتربية، وما يتنازعه من هوى النفس الحيوانية "الأمارة" والنفس والفطرة السوية الضميرية "اللوامة"، وإلى وجهته في كل قرار يتخذه تنتصر فيه إرادته للحق والعدل والخير أو للظلم والشر والجور.

كذلك يجب ألا نخلط بين الدعوة والدولة، فالدعوة هي خطاب للقلب والضمير برغبة العون والهداية والتعليم والترشيد، ولذلك فإنها لا تكون إلا بالحسنى والكلمة الطيبة {مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}الإسراء١٥، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ}يونس٩٩ .

أما الدولة فهي الكيان السياسي البشري في صوره المختلفة المتطورة للبناء الاجتماعي البشري، وهي بشكل أو آخر تتعلق بالجماعات الإنسانية، وبنظامها السياسي الاجتماعي، وبأرضها ومصالحها وترتيباتها الداخلية بين أبناء المجتمع، والخارجية في العلاقة مع الجماعات والدول الأخرى .

وعلاقات الدولة والجماعة السياسية الإنسانية منذ وجدت حتى اليوم هي إما حالة "سلام" تحكمه القواعد والقوانين الملزمة المنظمة لشؤون الجماعة السياسية ذاتها (الداخلية)، وإما حالة عهد واتفاق بين الجماعة السياسية (الدولة) وسلطة الحكم فيها، وبين الجماعات الأخرى، وهذه يحكمها في جوهره الاتفاق والوفاء

بالعهود والمواثيق ومعاملة المثل، وإما حالة نزاع وعداء وحرب فتقرر القوة نتائج هذه النزاعات {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى}المائدة٢.

والرؤية الإسلامية الكونية الحضارية تقيم كل هذه العلاقات على أصل العدل والسلم.

ففي المجال الداخلي فإن العدل والتكافل هما الأساس والشورى والنصح، وهما وسيلة القرار والإصلاح، وإذا انحرفت العلاقة ووقع الظلم فالاحتكام للشريعة والقانون، وإلا فإن الوسائل السلمية المدنية والعصيان المدني هما الوسيلة السليمة لتصحيح الأخطاء، وإرغام المنحرف على العودة عن انحرافه، وسحب البساط من تحت أقدامه، وإذا تمادى في عدوانه فالأمر في مواجهته وإيقافه عند حده يعود للأمة والجماعة، ولا يصح أن تأخذ الأطرافُ القانونَ في يدها لتدخل في صراعات تشل الأمة وتشل إرادتها في علاقتها بفئات أطراف النزاع والصراع الذين هم من أبنائها.

أما العلاقة مع الآخر السياسي فهو التفاوض بين أولي الأمر لإحقاق الحقوق، ولا تكون الحروب وإسالة الدماء إلا إذا استحال الحصول على الحق من دونها، ولا تستهدف هذه الحروب إلاّ أولي الأمر وإخضاع إرادتهم للحق، أو بإزاحتهم، وبالحد الأدنى المسؤول في استخدام العنف من دون إسراف أو تجاوز، وخاصة في الدماء[٤٣].

إن المؤسف أن الغرب تلقف المنهج العلمي السنني من دون تقبل الرؤية القرآنية التوحيدية، عند احتكاكهم بالعالم الإسلامي والأمة الإسلامية، في فترة حروبهم الصليبية العدوانية التي امتدت لقرون عديدة، ومن خلال تلقي العلوم والمعارف من معاهدهم، وفي بلاد الأندلس خاصةً، وبترجمة أعمال المفكرين المسلمين واحتكاكهم بشعوبهم، هو بداية تعرفهم على منهج السنن المادية في الوجود المادي (العلوم الفيزيائية)، ومن ذلك المنهج العلمي السنني الفيزيائي، واهتدوا لاحقًا إلى سنن الفطرة في الإنسان والمجتمع، فتكونت لديهم أيضاً العلوم الاجتماعية – وإن كان ذلك من منظورٍ ماديٍّ، وعلى أسس قوانين عالم الغاب،

وفطرته التظالمية - وهي التي مكنتهم من بناء مجتمعــاتهم ومؤســساتهم بــروح تضامن سلالات حيوانات الغاب فيما بينها، وظلمها وقــسوتها وعــدوانيتها علــى سواها من السلالات (القوميات والعرقيات والثقافات) وهذا ما حَدَّ من آثار تخلــي شعوب الغرب عن الدين؛ لأنه قد سادت فيه الشكلية والكهنوتية، وكاد الدينُ يتحول في ثقافاتهم إلى الخرافة، وبسبب ما دار من صراع ديني بــين شــعوب الغــرب والدول والإمارات الإسلامية، بسبب الكهنوتية الكنسية ومصالحها.

وتلبَّست الشعوب الأوربية عداء الإسلام بسبب كهنوت الكنيسة وافتراءاتها على الإسلام، وعلى نبيِّ الإسلام؛ حفاظاً على كيانها ومصالحها وفاســد ممارســاتها، وبذلك انصرف الغرب إلى فكر الغاب المادي، وما نجم عن ذلك من تبني النزعة القومية في التظالم والافتراس (سياســات القــوة Power Politics) وســيادة روح مفهوم العنصرية (القومية Nationalism)، وما أفرزته مــن صــراعات ومظــالم وسلبيات وعصبيات وتعديات، وما نجم عن تبني المادية الحيوانية مــن أمــراض التحلل الأخلاقي، لا كانحرافات أخلاقية اجتماعية منكرة ومرفوضة، بل إلى ما هو أدهى من ذلك، بتبني هذه الأمراض والانحرافات الأخلاقية الاجتماعية على أنهــا نماذج طبيعية إنسانية اجتماعية مقبولة؛ وهذا أدى - فــي الغــرب والمجتمعــات الليبرالية إلى حد كبير - إلى انهيار الأسرة، وتفشي العنف والأمراض الاجتماعية الأخرى التي أخذ عقلاءُ الغرب ومفكروه يدقون أجراس مخاطرها، مــن دون أن يعلموا لإدمانهم الحيواني المرضي الأخلاقي، في ظل رؤيتهم الكونيــة الماديــة، فرجاً ولا مخرجاً.

إن من المؤسف أن يُقضى على عهد الخلافة الراشدة، ويُقضى معها في مسار تاريخ الأمة الإسلامية، على إمكانية تطور مفاهيم العهد الراشد وقِيَمِــهِ ونمــاذج قياداته القرآنية التاريخية إلى مؤسسات راشدة تضمن استمرار تلك المفاهيم، وتلك القيم والمبادئ، وتلك الرؤية الكونية الحضارية القرآنية؛ التي غيَّــــرت مجــرى التاريخ والحضارة الإنسانية، والتي ما تزال ذكرياتها تعيش فــي ضــمير الأمــة وتطلعاتها وآمالها في النهضة والإصلاح.

وإذا كانت أمم الغرب والحضارة الإنسانية المعاصرة قد تلقت رايـــة العلميـــة الفيزيائية والاجتماعية من منطلقات حضارة الإسلام وسالف ممارسات عهودهـــا الأولى، فإن من المهم والأمة تصحو علـــى ذاتهـــا، وتتعـــرف رؤيتَهـــا الكونيـــة الحضارية، أن تتنبه إلى مفهوم المؤسسة، وأن توطن بها قيمها في العدل والحرية والإخاء والشورى والإعمار والسلام.

فمن دون المؤسسات سوف تتغلب قوى الأنانية الحيوانية مجدداً، وتدفع الأمـــةَ إلى أوحال الاستبداد والفساد والعنف والعجز والجهل والتخلف وتكلُّسات احتكـــار السلطة والثروة الخانقة المدمرة للأمم والحضارات

إن جلاء الرؤية القرآنية الكونية، وإدراك أبعادها، وبناء مؤسساتها الاجتماعية، هو حجر الأساس ومنطلق الإصلاح، لا للأمة الإسلامية فقط، بل لسلام الإنـــسانية وعمرانها وحضارتها ورشدها.

من المهم قبل أن نبدأ في استعراض مبادئ الرؤية والمنهجية الإسلامية علينـــا أن نستدعي قضية الزمان والمكان في فهم الوحي ومصادره في الكتـــاب والـــسنة حتى لا يختلط الثابت بالمتغير، وأن تتحول المتغيرات إلى ثوابت وقيـــود وتفقـــد الشريعة شموليتها واستجابتها للفطرة وظروف واقع الزمان والمكان وترشيدها.

الثابت والمتغير: الزمان والمكان:

وإذا كان الوحي هو المصدر الأساسي للدين وهدايته وترشيده للفطرة البشرية، فإن هذا المصدر في رسالة الإسلام العالمية الخاتمة يمثل بالدرجة الأولى في القرآن الكريم الذي هو كلمة الله التي أوحاها إلى رسوله الكريم محمد بن عبد الله.

والقرآن الكريم كرسالة إلهية عالمية خاتمة يتسم بالثبات، وهذا يعني أنه رسالة مقاصد وقيم ومفاهيم، التي تجعل لها صفة الثبات على تغيرات الزمان والمكان (الواقع)، وهذا ما يطلق عليه الثوابت، ولا يفصل القرآن من الوقائع إلا ما يتسم بالثبات كالأبوة والنبوة وما يتعلق بها من صلات وحقوق وواجبات.

ولما كانت أحوال الحياة الإنسانية ومعارفها وإمكاناتها وتحدياتها متوسعة متغيرة متطورة، فإن من الضروري أن يصبح تنزيلات قيم الإسلام ومفاهيمه متغيرة ومتطورة بحسب "الواقع" في الزمان والمكان، وما يمثله من معارف وإمكانات وحاجات وتحديات.

وهنا يأتي دور النبوة والرسول الخاتم في تقديم القدوة والنموذج الذي يقيم الحجة أن القرآن الكريم ليس كتاب تصورات وتهويمات خيالية مثالية Utopia بل هو رسالة هداية ورشد للإنسان في ممارسة الحياة الدنيا، ولذلك كان دور الرسول r إلى جانب أمانة "التبليغ" و"الدعوة" بالحسنى، كان عليه مهمة "التطبيق" لقيم الحجة على الناس، أنه هداية ورشاد يمكن أن يتحقق في واقع حياة البشر، يتمثله كل فرد وكل شعب وكل جيل بحسب طاقته وقدرته واجتهاده.

والتطبيق السليم في الزمان والمكان للقيم والمفاهيم يقتضي الحكمة في تنزيل القيم والمفاهيم، على واقع الزمان والمكان.

ومن هنا كانت تطبيقات النبي r كباني مجتمع ورئيس دولة وما مثلت من حكمه في تنزيل قيم القرآن ومفاهيمه على واقع زمانه ومكانه، يمثل أيضًا درسًا وعبرة ونموذجًا للإنسانية من بعده، في إعادة تنزيل قيم القرآن ومفاهيمه في واقع الأزمان والأماكن المتغيرة المتطورة في معارفها وإمكاناتها وحاجاتها وتحدياتها، فتطبيقات الشورى في عهد مواصلات "الحمير" و"البغال" غير تطبيقات الشورى في عهد مواصلات "الطيران" وتواصلات "الأثير" و"الإلكترونيات" وهذه هي عبرة دروس "السنة" و"السيرة" النبوية لأن الإسلام حتى يوم الدين **[**الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**]** هود: ١، **[**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**]** الأنعام: ٣٨، **[**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**]** النحل: ٨٩، **[**طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ**]** النمل:١، **[**الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ**]** الحجر:١، **[**أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً**]** الأنعام: ١١٤، **[**لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن

قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ] آل عمران: ١٦٤، [وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] النحل: ٤٤.

ومن هنا فإن علينا أن ندرك طبيعة مصادر الدين وأن نعي أمر ثوابته ومتغيراته، فإذا كان القرآن الكريم هو كلمة الله ورسالته الخاتمة إلى الإنسان وهو بذلك مصدر المعرفة الدينية الإسلامية ومصدر الهداية للفطرة الإنسانية وترشيد توظيف السنن الكونية وتسخيرها على مر الزمان والمكان.

أما السنة النبوية ودورها الرئيسي كمصدر ثان للرسالة الإسلامية هو حكمة تنزيل قيم الرسالة ومبادئها ومفاهيمها وتحقيق مقاصدها في الزمان والمكان وإقامة الحجة على الإنسان في أن الكتاب والرسالة ليست مؤلفة خيالية مثالية بل هي رسالة هداية ورشاد للإنسانية.

ومن هنا فإن من المهم أن ندرك عامل الزمان والمكان في نصوص السنة النبوية التي مثلت حكمة الرسول r كرئيس الدولة وباني الأمة، في تنزيل مفاهيم الرسالة التي تمثل الثوابت على المتغيرات الزمانية والمكانية، وإن نعي درسه وعبره في تنزيل القيم والمفاهيم القرآنية على الزمان والمكان.

وهذا يفسر الحفظ الإلهي للكتاب، ويفسر أمر الرسول r لمن كتب شيئًا أن يمحه لأن الغاية منها تحققت بإقامة الحجة وبدرس حكمة التنزيل في الزمان والمكان التي هي متجددة متطورة بتغير الأحوال والمعارف والإمكانات والتحديات وتفاعلها مع الفطرة والطبائع البشرية وردود فعلها وتفعيلها.

وهذا يفسر أن الرسول r بقدر ما كان حريصًا على ألا تكتب وترصد أوامره وأقواله وأفعاله في إدارة شئون الدولة والمجتمع على عهده ولبني قومه ويصنع منها سجل، في الوقت الذي يشدد على وجوب إطاعة أوامره كرئيس دولة، وأن تكونا واجبة النفاذ الآني، بحجة أن ما يأمر به ليس في القرآن، لأن ذلك خلط بين طبيعة القرآن الكريم المفاهيمي على مر الزمان والمكان، وبين تصرفاته r التطبيقية في الزمان والمكان، والتي تمثل العبرة من حكمة تنزيلها في الزمان والمكان، الغاية منها، وليس طلب تلك التطبيقات لإعادة تطبيقها الحرفي دون وعي على أنها من المتغيرات التي يجب أن يراعى في ذلك متغيرات الزمان والمكان.

هذا الفهم هو الذي يفسر أمر الراشد عمر بن الخطاب **y** حين خرج بعض الأصحاب من المدينة إلى الأمصار يحدثون ببعض ما سمعوا وعرفوا من أقوال الرسول **r** وأفعاله، أن يمتنعوا عن ذلك، ويعودوا إلى المدينة لأنهم إن حدثوا فيها فإن أهل المدينة يعلمون ظروف الزمان والمكان بشأن ما يحدثون عن رسول الله **r** فلا يساء فهمه ولا دلالته.

وهكذا فإن فهم طبيعة الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة ومعرفة الفطرة والطبائع الإنسانية والنواميس الكونية، وإدراك الواقع الزماني والمكاني بإمكاناته وتحدياته، أمور منهجية ضرورية لإعادة بناء مناهج التربية والتعليم واستفادة الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، وإدراك طبيعة منظومة عقيدتها وفكرها ليتم استنهاض الأمة، وإعادة بناء حضارة العدل والعلم والعالمية والسلام.

بهذا الفهم واستحضار قضية الزمان المكان في إدراك طبيعة المفاهيم وبعد واقع الزمان والمكان نبدأ بتناول مبادئ الرؤية الكونية ومنهج الفكر الإسلامي الحضاري.

مثالية واقعية:

والسؤال المهم الذي يحسن الإجابة المباشرة عنه هو: هل الرؤية القرآنية الكونية الحضارية، وهدي الرسالة المحمدية، هي رؤية مثالية خيالية، على غرار كتابات الفلاسفة وتهويماتهم ومدن فلاسفتهم الفاضلة، وهل هي من باب الترف الفكري الذي لا موضع له من واقع حياة الإنسان الحقيقية؟

أم أنها رؤية وهدي حقيقي واقعي يمثّل الجانب الإيجابي في الحياة البشرية ويرشده، ويغلّب قوى جوانب الخير الروحية البناءة في النفس الإنسانية على نوازع الشر والظلم الحيوانية المادية الهدامة فيها.

تبدو الإجابة الإيجابية عن هذا السؤال لأول وهلة صعبة التصور، خاصة في ضوء جوانب كثيرة من واقع الأمة الإسلامية المتردي في بنائه ونظمه وسلوكياته وعلاقاته الكونية الحضارية، والذي يكاد يكون النقيض لهدي الرسالة

ورؤية القرآن الكونية الحضارية، على ما نرى من التمزق والتناحر والتواكل والتظالم والفردية والأنانية والفقر والجهل والمهانة التي تعيشها الأمة.

وللإجابة السليمة عن هذا التساؤل يستوجب أن نستحضر عدداً من الحقائق والمسلمات.

وأول هذه المسلمات، أنه ليس فيما تقدمه الرؤية القرآنية الكونية أمر لا يرغبه الإنسان ولا يتطلبه ولا تنزع إليه نفسه وضميره، وأن أغلى وأثمن ما في التاريخ الإنساني هو ما ينجح في تحقيقه من هذه الرؤية في بنائه الحضاري على وجه الأرض.

والمسلمة الثانية أن العهد النبوي، كان المثال الواقعي الذي حقق هذه الرؤية القرآنية ومتطلباتها الواقعية في الزمان والمكان، وبالتالي لم تكن الرؤية القرآنية الكونية رؤية نظرية فلسفية خيالية، لا يمكن تحقيقها في الواقع الإنساني، فكان دور الرسول صلى الله عليه وسلم ومجتمع دولة الرسول صلى الله عليه وسلم هو حكمة تنزيل الرسول صلى الله عليه وسلم لقيم الرؤية القرآنية ومفاهيمها ومبادئها في الواقع الإنساني، حتى يرى البشر في المثال النبوي وحكمة تنزيله، واقعية هذه الرؤية وإمكانات تحقيقها في الواقع الإنساني لقوى الخير والإصلاح والبناء الحضاري الروحي الكامن في النفس البشرية.

والمسلمة الثالثة هو تفاوت النفوس البشرية والمجتمعات الإنسانية، في تحقيق قيم الخير والإصلاح والبناء الحضاري ومفاهيمه في واقع سلوكهم وبناء مجتمعاتهم.

ولذلك؛ فإن المجتمعات التي تضعف فيها قوى الخير والعدل والبناء، ليس لها أن تيأس في إصلاح ذاتها وعلاج آفاتها وبناء مسيرتها الحضارية الإنسانية الخيرة.

والمنطلق الأساس هنا الذي يجب ألا يفت في عضد الأمة الإسلامية في إصلاح أمرها واستعادة مسيرتها، هو أن تعلم أنها تدهورت وتخلفت، وأن لذلك أسبابه التي يجب علاجها، لتنطلق في أعماقها قوى الخير والإصلاح والبناء، وألا تصغي لأي مقولة جاهلة أو مغرضة تزعم أن ما يدعو إليه الإسلام ورؤيته

الحضارية الكونية القرآنية هو دعوة مثالية؛ لأنه يجب التفرقة بين المثالية الخيالية، والمثالية الواقعية، فدون المثالية، انحطاط وتدهور وفساد وحيوانية مادية(أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) الأعراف ١٧٩

ولكن لا قيمة للمثالية إذا كانت لا تتعامل مع النفس الإنسانية ومع بنائها وتطلعاتها ونوازعها في الزمان والمكان؛ لترشد مسيرتها، وإلا انكفات الإنسانية في ظلامات نوازعها المادية الحيوانية إلى العنصريات والصراعات والتظالم والقسوة وسفك الدماء والعدوان، باسم الواقعية وتبرير القبول بكل ألوان الانحطاط الإنساني، لأن كل إصلاحٍ وكل لجمٍ لقوى الشر والظلم في زعمهم هو مثالية، حتى أصبحت كلمة المثالية سُبَّةً وعنوان سفه وجنون فلسفي ممقوت.

المثالية الواقعية هي حبل النجاة للإنسانية من مزيد من التردي في مهاوي ظلمات المادية الحيوانية العدوانية وتظالمها.

والشق الثاني المهم من الإجابة عن سؤالنا عن الطبيعة المثالية في الرؤية الكونية الحضارية القرآنية هو: هل هذا يعني أن الإنسان المسلم لكي يحقق هذه المثالية القرآنية لا بد أن يتمثل كل هذه القيم والمفاهيم والمبادئ في كافة جوانب حياته وسلوكه، وفي كل حركة وسكنة، وفي كل يوم من أيام حياته، أي أن الإنسان لكي يكون مسلماً يجب أن يكون معصوماً منزهاً من الأخطاء والزلات.

الخطاب الإسلامي بلغة الترهيب التي انزلق إليها كما وضحنا فيما سبق من هذا الكتاب وما سبق من كتب أخرى، رسّخ هذا التصور،الأمر الذي جعل الرؤية القرآنية في واقع الأمة الإنساني والثقافي، أقرب إلى المستحيلات.

ولما كنا نعلم ماهية الطبيعة الإنسانية التي تتنازع إرادتها القوى الروحية والنوازع المادية، فإن الزلل والخطأ أمر في أصل الطبيعة الإنسانية وبنائها، ولا مجال لتصور العصمة إلا للرسل فيما يتعلق برسالاتهم.

(فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) وهذا يعني أن الإنسان في قرارة نفسه وبنائه تدفعه طبيعته الروحية وقواه الأخلاقية الضميرية نحو الرشد، ونحو الخير، ونحو الإحسان والإصلاح، ولكن حاجاته المادية ونوازعه الحيوانية

تسول له التظالم والعدوان، وهنا نجد ضميره وقواه الروحية تلاحقه وتلومه على ما تقترف يدا الإنسان السوي من الفواحش والمظالم.

والرؤية القرآنية أثبتت هذا البناء وهذا الصراع، وأرشدت إلى مواجهته وسبل انتصار قوى الخير في النفس البشرية.

فالصراع النفسي بين قوى الخير والشر في النفس الإنسانية حقيقة كونية، وتطلُّع الإنسان وتوقه إلى انتصار الخير والصلاح طبيعة إنسانية، وإمكانية ضعف الخطأ والزلل حقيقة إنسانية أيضاً، ولا ترى فيها الرؤية القرآنية مجالاً للإحباط أو اليأس، لأن علاجها هو دعم قوى الخير في النفس، وعدم اليأس من إصلاح ما يفسد، فالله الذي ألهم النفس " فجورها وتقواها" هو الرحمن الرحيم والرؤوف الكريم، يقبل التوبة والرجوع عن الخطأ والزلل وعدم الإصرار عليه، كلما وقع البشر فيه في لحظات ضعف أو جهل أو ضرورة، وكأنه لم يكن، وهو باب مفتوح لكل نادم تائب.

فالرؤية القرآنية قوة رشد وهداية إلى الخير، تدل عليه وتيسر سبله(إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ) النحل ٩٠

ومن هنا يجب التفرقة بين الإسلام ورؤيته الكونية الحضارية القرآنية التي هي هداية وترشيد ودعم واستنهاض لقوى الخير والإصلاح والإعمار في النفس الإنسانية، وبين السلوك والتمثل البشري لهذه الرؤية وقيمها ومفاهيمها ومبادئها، لما في الطبع الإنساني من صراع، ولما تكتنفه من قوى وتيارات، تجعل الزلل والانحراف إمكانية وعلاجها بمعرفة الوقائع والظروف التي تدفع بالإفراد والأمم والحضارات إلى مزالقها وشباكها، ومواجهتها بالإصلاح.

وللإصلاح والتغيير وسلوك الجادة وتخطي المزالق والحد من أثر الأخطاء والزلات، لا بد للأمم من نظرات فاحصة ناقدة لثقافاتها وخطاباتها وأساليب تربية أبنائها وتكوين كوادرها؛ بحيث تصح الرؤية، وتصح التربية، ويستقيم الفكر ويسمو الوجدان، حتى يكون أصل الطبع الغالب هو التطلع إلى الخير والصواب

في طلب الحاجة وتحقيق المصلحة للفرد والجماعة، ويكون الخطأ والزلل استثناء ينكره المجتمع، وتعافه النفس ولا تصر عليه، وترجع عنه.

فمهما كان حال الأمة اليوم فإنه إذا ما قام مفكرو الأمة ورجال الإصلاح والتربية والتعليم بدورهم في معرفة أدواء الأمة، وكيفية علاجها في ثقافتها وفي مناهج فكرها، وفي أساليب التربية الوالدية فيها، وفي مناهج تكوين كوادرها ومناهج تعليمها، وفي بناء مؤسساتها، وإذا تم إرشاد كل فئة إلى مصادر الخلل وطرق الإصلاح بدءاً بالأسرة والوالدين إلى المدرسة والمعلم، فإن استعادة الأمة لعافيتها ودورها الحضاري لن يكتنفه هذا الضباب، وتصور الصعاب، وستكون الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، هي كلية رؤية الأمة ومنهج حياتها، لا يحرفها عن رسالتها ودورها الحضاري الزلات والهفوات التي تمثل قوى رفضها ومواجهتها طاقة تجديد وتمكين، في حياة المجتمع، وتطوير طاقاته ومؤسساته.

يقول الله سبحانه وتعالى :

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ) يوسف {٥٣}، {فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} القصص ١٥-١٦،{فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} الأنعام ٥٤، {وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً} النساء ١١٠، {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} آل عمران ١٣٥-١٣٦، {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} البقرة ٢٨٦،

علينا أن نذكر في بنائنا لحياتنا وعبور مفازاتها أن الإسلام هو رؤية إنسانية سوية، وهي قارب النجاة وبوصلة الطريق إلى رحلة مأمونة العواقب، منجية من المهالك إلى شاطئ النجاة.

الإسلام ليس عنصرية حيوانية ظلامية عدوانية استعلائية.

الإسلام ليس خيالية أسطورية استعبادية إذلالية رهبانية.

الإسلام ليس مادية عدمية عبثية صراعية حيوانية.

الإسلام واقعية حياتية روحية متوازنة سوية.

الإسلام ورؤية الإسلام تعبر عن الحياة الإنسانية السوية، وتحتفل بها وتنميها، وترشد إلى سبل تحقيقها، فهي رؤية تشبع حاجات البشر في أمن وعدل وطمأنينة.

فالجنس نبع الحياة ومصدر بقائها، تحتفل به الرؤية الإسلامية الحياتية وتحض عليه، مع حمل مسئولياته وأداء حقوقه وحقوق كافة أطرافه.

والعلم والمعرفة هما نبع الحضارة والإعمار والإبداع، والإسلام يحض على العلم والمعرفة في كافة وجوه الحياة، ولكن النافع منها لا الضار.

والكسب والمتع الحياتية يرحب بها الإسلام ويحض على كسبها ولكن بالسبل الحلال دون ظلم ولا غش ولا إسراف، ودون إخلال بحقوق الفرد وحقوق الجماعة.

ولا معنى للحياة دون الحرية والكرامة وحماية الحقوق والكرامات والأعراض، ويحث على حمايتها والدفاع والذود عنها، ويمنع الاعتداء والعدوان، بل ويحض على العفو والمغفرة عند المقدرة.

ليست القضية قضية عناء وحرمان، ولا قضية مثالية واقعية ولا مثالية خيالية، أو حياة غنوصية خرافية أو خيالية أسطورية، أو حياة مادية عبثية حيوانية ظلامية ولكنها حياة إنسانية سوية.

ليس في أي تصرف سليم صعوبة لمن حسنت رؤيته وحسنت تربيته، وإذا كانت هناك صعوبة ففي جل الأحوال تأتي من المحيط الاجتماعي إذا تشوهت

رؤيته وانحطت ثقافته ومناهج تربيته، وعلى الأفراد والأمم مواجهة أزماتها وليس الهرب والتهرب منها بدعوى المثالية والواقعية الموهومة.

القضية قضية رؤية، وقضية عقلية وثقافة ومنهج وتربية، في كافة أبعادها وعوامل تكوينها وتفعيلها، فلا يكون الدين، ولا تكون الرؤية كبش الفداء للقصور والتقصير تبريراً لتجاهل الأسباب الذاتية الداخلية والخارجية، وتسلط قوى الظلم والظلامية في المجتمع، وعرقلة جهود التغيير والإصلاح {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} الصف ٢-٣، {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}المائدة:٢، {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ}آل عمران١١٠ (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) العنكبوت ٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ* وَطُورِ سِينِينَ* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ* لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ* فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ* أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ*) سورة التين.

مبادئ الرؤية القرآنية الكونية:

إذا أدركنا كليات الرؤية القرآنية واستوعبنا أبعادها الكونية والحضارية، أمكننا حينئذٍ فقط تحقيق الإدراك السليم لمبادئ هذه الرؤية ومفاهيمها وقيمها التي سنتناولها هنا بشيء من التفصيل؛ لأنها هي الوسائل والمنطلقات الأساسية اللازمة لتجسيد تلك الرؤية؛ لأن هذه المبادئ والقيم والمفاهيم هي الأدوات التي تضبط منهج فكر الأمة المسلمة، والإنسان المسلم، وتحوله إلى واقع حيّ ملموس، يرشِّد مسيرة المجتمع الحضارية، ويمدها بالقوة والإرادة والطاقة التي تمكنها من الفاعلية والأداء والنمو والتطور، وتمكنها من تحقيق مقاصدها، وإبداع وسائلها؛ متطورةً متفاعلةً مع متغيرات الأحوال والظروف والإمكانات والتحديات ومع سقوف العلوم والمعارف الممتدة المتوسعة.

وأول هذه المبادئ، الذي هو الأساس لما عداه من المبادئ، هو مبدأ التوحيد؛ لأنه هو المبدأ الفطري القرآني الأساس الذي ينبثق منه مفهوم نظام (system) الوجود، وبهذا المبدأ والمفهوم الأساسي، إضافة إلى مبدأ الاستخلاف المترتب عليه، تتضح أبعاد الحياة الإنسانية الغائية الأخلاقية العلمية العالمية، ومعنى وجودها.

١ - **التوحيد:**

والتوحيد هو المبدأ الأساسي في الرؤية الإسلامية الكونية؛ لأنه هو الإجابة الكونية الفطرية السوية للبعد الروحي للإنسان في فهم ذاته مبتدأً ومآلاً، وهو سقف المنطق الإنساني في فهم أبعاد الحياة والوجود، وما وراء الحياة والوجود، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى١١، {أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}النمل٦٤، {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}فاطر٣، {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ }الجاثية٢٤، {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}الطور٣٥، {أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ}الطور٣٦، {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ* فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ*وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ* وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} المؤمنون ١١٥-١١٨، {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ}الدخان٣٨.

[ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ] الأنعام: ١٠٢ [قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ] هود: ٦١[لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ] الأنبياء: ٢٢ [مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ] المؤمنون: ٩١ [قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ]

الأنعام: ٩١، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٢٥.

ووحدة الخالق وقدرته وتفرده، وكماله وبديع الخليقة التكاملية يفسر ويحتم فطرة الخليقة وحدةً وتنوعاً، وتناسقاً وتكاملاً، ويفسر إبداع نظامها، ويحتم غائيته وأخلاقيته [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ] آل عمران: ١٩٠-١٩١[قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى] طه: ٥٠[الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ] السجدة: ٧، {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}النمل٨٨، [فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ] الروم: ٣٠ [فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا]فاطر: ٤٣ [وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا] الفرقان: ٢ [قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا] الطلاق: ٣[قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ] العنكبوت: ٢٠، [أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ] الحج: ٤٦.

ما سبق من آيات الوحي الكريم يعبر أوضح تعبير عن حسِّ الفطرة الإنسانية وشواهدها المنظورة على مبدأ التوحيد في وحدة الخالق، وفي إبداع الخلق ووحدته التكاملية؛ وهو ما يحتم ويفسر وحدةَ هذا الوجود التكاملية، وبناءَه المنظومي السببي التكاملي (systematic) وغائيته الأخلاقية الإبداعية.

وسنختار قليلاً من آيات الوحي وتوجيهات هديه التي تعبر عن جوهر فطرة الضمير الإنساني ونزعاته الروحية الغائية الأخلاقية في نظام (system) الوجود، والتي تبرز وتجسد وتعبر عن تلك النزعات الفطرية الضميرية في قيم الخير والحقِّ والعدل والإخاء والتكافل والرحمة والسلام، والتي من دونها لا يعود للحياة والوجود، ولا لنظامه البديع الرائع، من الذرة حتى المجرة، معنى، ولا بد أن

ينتهي مفهوم الحياة والوجود حينها إلى تقبُّـل مفهوم الفوضى والعبثيـة الـذي لا يمكن أن يتقبله واقع نظام الكون البديع، ولا حسُّ الفطرة، ولا منطقُ ميزان العقلِ السليمِ.

يقول الله سبحانه وتعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[٤٤] * مَـا أُرِيـدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَـا أُرِيـدُ أَن يُطْعِمُـونِ* إِنَّ اللَّـهَ هُـوَ الـرَّزَّاقُ ذُو الْقُـوَّةِ الْمَتِينُ}الذاريات٥٦-٥٨

[إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] النحل: ٩٠ [وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَـوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُـم بِخَيْـرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ] هود: ٨٤- ٨٥ [وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِـالْعُرْوَةِ الْـوُثْقَى وَإِلَـى اللَّـهِ عَاقِبَـةُ الْأُمُورِ]لقمان: ٢٢ [وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِـي مِنَ الْمُسْلِمِينَ] فصلت: ٣٣ [قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا]الكهـف: ١١٠ [الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ] الحج: ٤١ [وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ] البقرة: ١٤٨ [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّـهُ بِمَـا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] هود: ١١٢، [قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُـمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ] فصلت: ٦ [فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ] الشورى: ١٥ [وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَـا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ] القصص: ٧٧ [قُلْ إِنَّمَـا حَـرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ] الأعراف: ٣٣ [الَّـذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ] الأنعام: ٨٢ [تِلْـكَ

الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ]القصص: ٨٣، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}النور ٥٥

وإذا كانت فطرة الكون وتكامل نظامه يحتم وحدة الخالق وقدرته،فإن إبداع الكون وإتقان صنعته وإحكام نظامه، يفسر ويحتم أيضاً وحدة هذا الخلق السببية التكاملية، {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }البقرة١٦٤، {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ* لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ}الأنبياء١٦- ١٧.

وهكذا فإن حتمية غائية الخلق وأخلاقيته أمر لا تستقيم الرؤية من دونه، ولا المنطق، وتتحتم الفوضى التي لا يستقيم معها عقلاً ما نشاهده من وجود ونظام، وهو ما يعبِّر عنه ما أوردناه من آيات الكتاب الحكيم التي تبسط أبعاد الفطرة، وتوضح مدلولاتها وغاياتها، وتجعلها في بؤرة وعي الإنسان؛ لترشد سعيه وخياره، وتدله على مناهج التسخير الكونية الصحيحة؛ لتحقيق غايات فطرته السامية الروحانية في استجابتها لحاجاته الحياتية المادية والإعمارية؛ بعيداً عن الترهات والغوغائيات الخرافية والفوضوية المادية والعدمية.

كما نجد أن مبدأ توحيد الخالق الخالص، وما يترتب عليه من توحيدية الخلق التكاملية، هو الأساس الذي تبني عليه الرؤية الإسلامية معنى الحياة والكون البديع، وعلى هذا المبدأ الأساس ترتكز وتنطلق مبادئ هذه الرؤية ومفاهيمها في غائية الوجود وأخلاقيته، وفي استخلاف الإنسان وتكريمه بالقدرة على التصرف، والقدرة على الخيار وحرية اتخاذ القرار، وما يستتبع ذلك من مسئولية الإنسان الروحية الإعمارية، لتحقيق الحياة الطيبة التي تحقق "ذات الإنسان"، وتستجيب لحاجاته، وتتجاوب مع فطرته السوية، وتسمو به في معارج قيم الروح في صنع الخير، وطلب الحق، والتزام العدل، وارتقاء الإخاء والتكافل، وإبداع الإعمار، وحب السلام.

إن إمكانات العلم السنني، وما يكشفه للإنسان من عظيم إبداعات الكون على وجه الأرض، وفي أعماق البحار، وفي آفاق السموات ومجرات الفضاء المذهلة الفسيحة في دقة نظام الكون وتكامله واتساق تكوينه وسننه؛ تعين الإنسان على إدراك أبعاد "الوجود المادي"، ومنطقه، وأبعاد "وجود ما وراء المادي"، وهذا الإدراك يعطي الوجود (ما وراء المادي) بعداً آخر، بمنطق آخر مختلف عن منطق الإنسان، وعن منطق المادة، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}الشورى١١، {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً }الجن٢٦، {وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً}الإسراء٨٥، {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ*إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} الواقعة٧٥-٧٧، وكل ذلك يزيد المؤمن والعالم تواضعاً؛ ليأخذ حياته الدنيا ومهمته الفطرية الاستخلافية الأخلاقية الإعمارية الخيِّرة مأخذ الجد، فيحقق الإنسان المسلم بذلك ذاته وسعادته والرضا عن نفسه في الحياة الدنيا، وتطمئن نفسه السوية الخيِّرة إلى مصيره فيما وراء الحياة حين تتكشف للإنسان في الدار الآخرة الصورة الكاملة، {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}الروم٧، {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا*وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} الأعلى١٦-١٧، {فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} ق٢٢.

٢ - **الاستخلاف:**

ومبدأ الاستخلاف {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}البقرة٣٠ ليس تكليفًا قرآنيًا لا أساس له في فطرة الإنسان ولكنه تعبير عن طبيعة الإنسان، وما فطره الله عليه من صفات وقدرات، جعلته فردًا ومجتمعًا وجنساً يتمتع بالوعي والإدراك وبالروح التي هي محضن الفطرة السوية؛ التي يتعلق بها الضمير الإنساني، وبالنفس اللوامة، وبنزعة طلب العلم وطلب المعرفة، وهذا ما جعل الإنسان خليفة يتميز على كل الكائنات في عالمه، بقدرته على التصرف، وعلى تسخير الكون من حوله لتوفير حاجاته، وتجسيد رؤاه، وخياراته، ومبادئه وقيمه، ومفاهيمه؛ لأنه لا قيمة للمادة إذا لم تُجسد قيماً ومبادئ سويةً، ولا قيمة للمبادئ والقيم والرؤى إذا لم تتجسد في مادة.

وهكذا فإن مبدأ الاستخلاف، الذي يعني قدرة الإنسان على التصرف في عالمه للتعبير عن إرادته والحصول على حاجاته، هو فطرة وطبع وإرادة تحمل في طياتها تكريم الإنسان بهذا المركز، ثم بالتميز بين الكائنات، مع كل ما يستلزمه هذا الاستخلاف، وهذه القدرات، من حق الحرية، وحق الخيار لاتخاذ القرارات الحياتية، وما يستتبع ذلك بالضرورة أيضاً من واجبات ومسؤوليات تلقى على عاتق الإنسان عن تصرفاته، واستخدام قدراته وطاقاته في خلافة الكون؛ صلاحًا وإعماراً، أو فساداً ودمارًا {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً}الإنسان٣، {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} الشمس ٧-١٠، {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ* فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} البلد ٨-١١.

وهكذا فإن الاستخلاف بما يحمله من متعة التصرف ومسؤولية الخيار هو جوهر الحياة الإنسانية وغايتها في العمل الخيِّر، وفي الإبداع والإعمار.

{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ}هود٦١، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ}النور٥٥، {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }القصص٧٧، {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ }المؤمنون١١٥.

٣- **العدل والاعتدال:**

وإذا كان التوحيد هو الأساس والمنطلق للرؤية الكونية القرآنية، بكل ما يعنيه التوحيد من غائية أخلاقية ونظامية تكاملية تناسقية؛ وإذا كان الاستخلاف يعني القدرة على التصرف والتسخير الإنساني للكون الدنيوي المادي، وما يستتبعه من مسؤولية حمل أمانة التصرف، فإن قصد العدل - الذي هو نقيض الظلم والجور - في جميع وجوه التصرف الإنساني في الحياة، هو لبُّ المحتوى والتفاعل الإنساني

السوي؛ معنوياً، ومادياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وسياسـياً، ومـن دون العـدل، وبالتالي الاعتدال تصبح جميع أبعاد الوجود الإنساني وأداء الاستخلاف مفرَّغاً من معناه وغايته، فالعدل هو الذي يعطي محتوى التصرف الإنساني معنـاه السـوي المعتدل ويحقق غائيته وأخلاقيته، ويجسد فطرته السوية، ولذلك كان العدل أول ما يؤمر به الإنسان؛ لأنه لبٌّ معنى الحياة وقاعدة ترشيد الفطرة، ولأنه بالعدل ينـزه الله ذاته العلية عن الظلم، ولا يظلم الإنسان إلا نفسه بالانحراف واستعباد إرادتـه لغير الله الحق العدل {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}النحل٩٠، {فَمَا كَانَ اللّهُ لِـيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}التوبة٧٠، {وَمَـا اللّـهُ يُرِيـدُ ظُلْمـاً لِّلْعَـالَمِينَ}آل عمران١٠٨، {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَـدِّلِ لِكَلِمَاتِـهِ وَهُـوَ الـسَّمِيعُ الْعَلِيمُ}الأنعام١١٥، {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} ق٢٩.

ولأن لب معنى الحياة وخيريتها يتعلقان بالعدل؛ لذلك يرشد الله الإنسان حتى يحقق ذاته السوية بتوخي العدل والاعتدال في كل شيء، حتى مع الـنفس وعلـى النفس، ولا ينكره على أحدٍ ولو كان عدواً.

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْـدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ}الشورى١٥، {إِنَّ اللّـهَ يَـأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّـهَ نِعِمَّـا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء٥٨، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَـوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّـاً أَوْ فَقَيـراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٣٥، {وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَـى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَـن يَـأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }النحل٧٦، {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِـيمٌ* تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الـصَّالِحَاتِ

فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ}الشورى ٢١-٢٢ .

ويصور القرآن الكريم شمولية العدل في كل شأن من شؤون الحياة؛ فرداً وجماعة، بما في ذلك شأن العدل الاجتماعي وما يوجبه من تراحم وتكافل أجمل تصوير وأشمله، وذلك بقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}البقرة٣٠، {قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ}الأنعام١٢، {وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ}النور٣٣، {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} الذاريات١٩، {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}المعارج ٢٤-٢٥، {كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}الأنعام١٤١، {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً} الإسراء٢٦- ٢٧ {مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}الحشر٧-٩.

{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}البقرة١٧٧، {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ}البقرة٢١٥.

وإذا كان العدل هو اللبُّ والجوهر فإن الاعتدال هو الدليل؛ ذلك لأن عدم الاعتدال إسرافٌ في الأمر يؤدي إلى الفساد في النفوس، وفي البيئة والمحيط، وهو لذلك ظلمٌ ومجافاة للعدل، ولذلك فلا عدل بلا اعتدال، وما ساد العدل إلا ساد معه الاعتدال، وما شاع الاعتدال إلا ساد معه العدل، وسادت الرحمة، وساد التكافل.

ويقول الله سبحانه وتعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}الأعراف٣١، {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً}الفرقان٦٧، {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً}الإسراء٢٦-٢٧، {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ}الشعراء١٥١، {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}النساء٣٦، {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيٍّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً}الإسراء ٣٧-٣٨، {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}غافر٣٥، {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}الأعراف٣٣، {وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}الرعد٢٥، {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ}الشورى٤٢ {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ}البقرة٢٠٥، {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً}المائدة٣٢، {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}الأعراف٨٥، {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}القصص٧٧، {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ}القلم ١٠-١٢، {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ

وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}الحديد٢٥، {وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ* أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ}الرحمن٧-٨. {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}المائدة:٢

ويقول الله سبحانه وتعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}البقرة١٤٣، {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ}آل عمران١١٠.

وعن وائلة بن الأسقع أنه قال: "يا رسول الله ما العصبية؟ قال: العصبية أن تعين قومك على الظلم"[٤٥].

وعن كعب بن عجرة قال: قال سول الله صلى الله عليه وسلم: إنه سيكون بعدي أمراء من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس وارداً عليَّ الحوض..."[٤٦] وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "قال: اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم"[٤٧] وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاث مهلكات وثلاث منجيات: فالتلاع المهلكات شح مطاع، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه. وقال: ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا"[٤٨] وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فقال رجل: يا رسول الله أنصره مظلوماً، فرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره"[٤٩].

وعن أبي محمد الحسن بن على بن أبي طالب رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة"[٥٠].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه"[٥١]، وعنه صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع "يا أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ألا هل بلغت، قالوا: نعم، قال: اللهم هل

بلغت"[٥٢]. وعن أبي وائل عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الصدق حتى يكون صديقاً وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا"[٥٣].

ويقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: (ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا...).[٥٤]

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (الظلم ظلمات يوم القيامة...)[٥٥]

٤ - **الحرية:**

والاستخلاف، وما يستتبع ذلك من القدرات التي ميزت الإنسان على ما حوله من الكائنات، جعلته كائنًا، اجتماعيًا حضاريًا، متفوقاً على سواه من الكائنات، بقدرته على التصرف، وتسخير ما حوله، من موارد وطاقات، لتلبية حاجاته المتنوعة المتزايدة، بتزايد نوعه ونسله، وتنامي قدراته التي ميزته وكرمته كائنًا نوعيًا بقدراته العلمية السننية والإبداعية، للحصول على خيرات الكون وإمكاناته ومتعه {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}الإسراء٧٠، {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ}الأنبياء٢٦.

لقد تميز الإنسان بالروح والضمير، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ*فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ*إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ*قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ* قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}الحجر ٢٨-٣٣.

كما تميز بالعلم وطلب المعرفة، وبما تتيحه هذه المعرفة للإنسان من القدرات والطاقات، {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء

هَــؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ*قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنــتَ الْعَلِــيمُ الْحَكِيمُ*قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّــي أَعْلَــمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}البقرة ٣١-٣٣.

إن هذه المكانة والقدرات الاستخلافية المميزة للإنسان على سواه من الكائنات، هي التعبير الإلهي عن تكريم هذا الكائن، هي التــي تحمُّــــله فــي ذات الوقــت مسؤولية الاستخلاف والتصرف؛ وهو يستلزم بالتبعية حقه في حرية التــصرف، وتمكينه من ذلك، في حدود طاقاته وقدراته، وبذلك تكون حرية الأداء هــي حــق الإنسان للتعبير الحر عن إرادته واقتناعاته في حدود قدراته وإمكاناتــه وظروفــه فردًا أو جماعة {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا} البقرة٢٨٦، {لايُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا}الطلاق٧، ولا يصح لأحد أن يعتدي على هذا الحق الاستخلافي في أبعــاده الفردية والجماعية، فالتكريم لا يكون إلا بحفظ حقوق الإنسان في الخيــار وفــي الحرية؛ بقصد تمكين الإنسان في نهاية المطاف من حمل مسؤولياته الاستخلافية، ومحاسبته على ما يصدر عنه من العمل، فلا يحول أحدٌ بينه وبين العمــل والأداء الخير، والسعي بالإصلاح والإعمار من دون قيود ولا عقبات ولا إعنات.

ومن المهم هنا أن نوضح أن الحرية نوعان:

النوع الأول من الحريات: هو حرية شخصية ذاتية ضميرية تتعلق باقتناعــات الفرد في عقيدته ورؤيته الكونية، وهي حق ليس لأحد أن يملي رؤيتــه واقتناعــه الخاص على أي أحدٍ سواه ، أو أن يتدخل – بغير الدعوة والنصح – فــي هــذا الشأن.

والنوع الثاني من الحريات: هو حرية التصرف ضمن المجــال الاجتمــاعي والعلاقات الاجتماعية الإنسانية، وتبادل المصالح، وهذه الحريــة لهــا حــدودها التوافقية بين أعضاء المجتمع، والتي يضع حدودها شورى المجتمع؛ بحيث يحــق لأي عضو في المجتمع أن يحقق غاياته السوية من دون معوقات، ولكن من دون أن تتحول الحرية إلى فوضى اجتماعية تسمح بالتصرفات غير السوية التي تضر بمصالح الأفراد الآخرين، أو بالمصالح العامة للمجتمع، بشكل مباشــر أو غيــر

مباشر، وفي المدى القريب أو الأبعد، مع الحرص على ألا يتمَّ شيءٌ من ذلك تعبيراً عن إملاءات مصالح خاصة، أو على غير رأي شورى المجتمع، بما ينتهي بالمجتمع حتماً إلى الوقوع في حبائل الاستبداد والفساد، واستعلاء فئات أصحاب السلطة والثروة، وحواشيهم وأتباعهم {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ }يونس٩٩ ، {فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ }يونس١٠٨ ، {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ}الكهف٢٩ ، {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ* لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ}الغاشية٢١-٢٢ ، {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}البقرة٢٥٦، {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}آل عمران١٩١،{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}القصص٧٧ ، {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}الحج٤١،{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}القصص٨٣، {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}الأعراف٨٥، {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ}الشورى٤٢، {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}النحل٩٠، {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}الحج٤٦، {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}الشورى٣٨.

ولعل قصة سيدنا إبراهيم توضح تلقائية الفطرة التوحيدية وغائيتها وأخلاقياتها [وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ

التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ].الانبياء٥١-٦٧

وفي مرحلة إعادة بناء الأمة وترشيد الحضارة الإنسانية علينا أن نـدرك فـي هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ الإنسانية أن الإنسان الفرد لا وجود لـه مجـرَّد فردٍ، لأن الإنسان بفطرته وأصل خلقه، اجتماعي، أي "جماعة"، {لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً}الزخرف٣٢، ولا يمكنه أن يوجد، وأن يحقق ذاته إلا في جماعـة، ولذلك؛ فالجماعية والجماعة، بحكم أصل الوجود والفطرة، تكوِّن مهد وجود الفرد وإطار حركته وحريته، ولذلك فالجماعة في خاتمة المطاف هي التي تقرر الحدود والضوابط الضرورية السليمة التي تفسح للفرد مجالاته، وتطلق طاقاته وإبداعاته، ولكن بتوازن بين حق الفرد في حريته في الحركة والتصرف مع حـق محيطـه الاجتماعي ومصالح الجماعة وبقائها، ولا يتم ذلك إلا بأسلوب تـوافقي شـوري يحقق المصالح، ويدرأ المفاسد، ولا يسمح بالاستبداد {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}الشورى٣٧، {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}الشورى٣٨، {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ* وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ* إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ* وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}الشورى٣٩-٤٣،

وجوهر هذه الآية الكريمة ليس في تقرير مبدأ شورى الجماعة فقط، ولكــن فــي سياقها وإطارها الأخلاقي السمح المتوازن الذي يوضح مقاصد الشورى في ترشيد نظام المجتمع وإدارته؛ فرداً وجماعة من دون إجحاف بحريات الأفــراد وحقــوق الجماعة {كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}الأنعام١٣٣، {وَلَقَـدْ جِئْنَـاهُم بِكِتَـابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}الأعراف٥٢، {وَاذكُـرُواْ إِذْ جَعَلَكُـمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}الأعـراف٦٩،{وَلَـوْ شَـاء رَبُّـكَ لَجَعَـلَ النَّـاسَ أُمَّـةً وَاحِدَةً}هود١١٨، {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٩٢، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُـواْ شُـهَدَاء عَلَـى النَّـاسِ وَيَكُـونَ الرَّسُـولُ عَلَـيْكُمْ شَهِيداً}البقرة١٤٣، {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَـنِ الْمُنكَرِ}آل عمران١١٠، {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً}هود٥٧، {أَلا إِنَّ عَاداً كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}هود٦٠، {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّـنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْـهِ إِنَّ رَبِّـي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ}هود٦١، {وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ}هود٨٩، {كَأَن لَّـمْ يَغْنَـوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ}هود٩٥، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}النساء١، وعن ابن مسعود رضـي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من أصبح وهمه غير الله فليس مـن الله في شيء، ومن لم يهتم للمسلمين فليس منهم) [٥٦].

٥ - **المسؤولية:**

والإنسان بفطرته السوية التلقائية التوحيدية الروحية، وقدراتـه الاسـتخلافية الإدراكية العلمية، وما يدرك بفطرته السوية من غائية الكون وإبداع الوجود ومـا يقر في الضمائر من الأخلاقيات الخيرة، كل ذلك يقوده عقلاً وفطرة أنه في حدود قدراته وخياراته المتاحة يتمتع بحرية القرار فيما يملكه من القدرات والإمكانـات، وأنه على عاتقه تقع مسؤوليات هذه القرارات والخيارات، إن خيـرًا فخيـرٌ، وإن

شراً فشرٌ، {فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}يس٥٤، {وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}المؤمنون٦٢، {وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}البقرة٢٨١، {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}المجادلة٦، {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}الأنبياء٤٧، {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }الأنعام١٦٠، {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا}البقرة٢٨٦، {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥، {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}الحج٧٨، {وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}الأنعام١٦٤، {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}الحج٧٨

٦ - **الغائية:**

ومما تقدم يتضح أن الغائية مبدأ لازم كامن في بدهية بديع نظام الوجود، وبدهية "وحدانية" الخالق، و"توحيدية" الوجود و"تكامليته"، واستحالة عبثيته وعشوائيته، وهو الأمر الملموس فطرةً سويةً في ظاهر إبداع الكون وتكامله.

إن الإنسان بفطرته التوحيدية، ومكانته الاستخلافية، وما منحه الله من قدرات الإدراك والعلم والمعرفة التي ميزته، وكرمته، على سواه من الخلائق، بقدرة التصرف وحرية الخيار ومسؤولياته، وبما يشاهده الإنسان ويلمسه من بديع نظام الكون من حوله، يدرك من كل ذلك، بفطرته الروحية الضميرية السوية، ضرورة غائية هذا الوجود المذهل، الذي لا يمكن فطرةً سويةً تصوُّرُ أن يوجد من دون خالقٍ، قادرٍ، حكيمٍ، كاملِ الصفات، يمثل بعدًا آخر، ومنطقاً آخر، فيما وراء تصور الإنسان وطاقات علمه وخياله ومنطقه الإنساني {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}الشورى١١، {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ}الحاقة٣٨-٣٩ ، {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}طه٥٠، [رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ] آل عمران ١٩١، {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ *

لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ}الأنبياء١٦-١٧، {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}المؤمنون١١٥ .

وهكذا فإن الإنسان، بتلقائية فطرته السوية التي يعبر عنها القرآن الكريم بـ (النفس اللوامة)، يدرك ضرورة غائية الوجود، وما يترتب على ذلك من مسؤوليات، ومن متع إعمارية تسخيرية استخلافية، تكمن في إبداع الكون وجمالاته وتناسقه ودقة نظامه وتكامله، وانتظام سننه؛ ولذلك؛ فإن من الضروري لحمل تلك المسؤوليات والاستمتاع بتلك الثمار والجمالات من التعامل مع الحياة والكون، والاستجابة لفطرة طلب العلم والمعرفة بنظام هذا الكون وسننه، والإعمار الخيِّر على شاكلة جمالاته وإبداعاته.

ما أقسى الحياة وما أشد تفاهتها إذا لم تكن سوى لقمة عيش ومتع وصراعات حيوانية تنتهي بالإنسان إلى الموت جيفة جسدية نتنة تُدفن وتوارى التراب، ووهم كل ما يقال بعد الغيبة العدمية، تراب في جوف التراب؛ حيث لا معنى للعقل ولا للضمير ولا للخيار ولا للمسؤولية ولا لقدرة الإبداع إذا كان الموت نهاية فناء وعدم.

لا معنى ولا عقل ولا فطرة أن يتساوى الحيوان الأعجم المادي بمحدودية قانون عالم الغاب المادي البهيم، حيث "الحق للقوة"، مع الإنسان بروحانيته وعقله وضميره وحس خياره ومسؤوليته وقدرة تصرفه وإبداعه وأخلاقيته، حيث "القوة للحق"، وحيث قيم الإصلاح والإحسان والإبداع والإعمار.

إن الإنسان في الرؤية القرآنية حياة جادة خيرة ذات معنى، وثمرة حقيقية لكل ما يحققه في الحياة من إصلاح وإبداع وإعمار، يمتد في عالم الروح والأبدية، فهي بذلك حياة تتجاوز موت جيفة البدن، إلى حياة روحية أبدية، يجني فيها الإنسان ثمرة كل ما حقق وأعطى وأبدع وعمر؛ ليصبح الموت للمصلحين والصالحين ثمرة وجزاءً لكل ما قدم الإنسان من عمل وعطاء. ١١٩

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}النجم٣١، {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

خَالدُونَ}يونس٢٦، {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}النحل٣٠، {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}القصص٧٧، {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}النحل٩٠، {كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}البقرة٦٠، {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ}الشورى٤٢، {بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ}الروم٢٩، {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣، {أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}الأنعام٥٤، {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}الملك٢، {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً}الكهف٣٠ .

تحقيق الذات الخيرة مادياً وروحياً مطلب وتطلع فطري ضميري في أصل خلق الإنسان، وقصد الشر والضر والإفساد بالمثل مذموم مرذول، فطرياً وضميرياً، في أصل خلق الإنسان.

أن يكون موت الإنسان فناءً ونهاية جسدية وروحية، لا حساب ولا جزاء، ليس عقلاً ولا عدلاً ولا ضميراً ولا ديناً ولا فطرة، فليذكر الذاكرون، ويتعظ المتعظون، ويفيق الغافلون، وليعمل للخير والحق والعدل العاملون، {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}الروم٣٠، { وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ}الأحقاف: ١٢.

٧ - **الأخلاقية:**

والإدراك الفطري لدى الإنسان بالخالق وقدرته وعظمته وتفرده ووحدانيتـــه، وبإتقان صنعه وجلال مقامه ووحدانيته، وتوحيدية الخلق، وما وقر فـــي ضـــمير الإنسان بفطرته من القيم الروحية السامية الكامنة في فطرته الـــسوية وضـــميره ونفسه اللوامة، كل ذلك يجعله يدرك أنه لا بد أن يكون لهذا الكون خالق، وأنـــه لا بد للكون والخلق من غاية، وأنه لا يمكن أن يكون الكون الذي يكاد لا يتناهى فـــي مختلف أبعاد وجوده البديع، قد خلق عبثًا، ولابد أن يكون قد خلق لغايات أخلاقيـــة سامية خيرة، وهذا الحس الإنساني الفطري الروحي السوي هـــو أســـاس الحـــس الديني والخلقي في فطرة الإنسان وتساؤلاته وتطلعاته الروحانية التلقائية منـــذ أن تتفتح عيناه طفلاً على وجوده، وعلى الكون من حوله، وهو ما تجيب عنه، وتعبر عنه الرؤية القرآنية، وتضعه في بؤرة إدراك الإنسان في مسيرة حياته لكي تهديه وترشده ليتوخاها في طلبه وسعيه، ولتجعل منها قصده وغايته الروحية الفطريـــة السوية الخيِّـــرة من سعي حياته، يحقق بها ذاته، ويستجيب لحاجاته، ويسمو بهـــا في كيانه، وتطمئن بها نفسه، ويُسعَد بهـــا فـــي مـــشاعره وتطلعاتـــه الإبداعيـــة الإعمارية، ولينظر ويقرر بوعي وعلم ومسؤوليةٍ أي السبيلين يسلك؟ وأي النجدين يرغب؟ وأي المصيرين يطلب؟ ألِى الإصـــلاح والإعمـــار؟ أم إلـــى الطغيـــان والإفساد؟ حيث المصير العادل "إن خيراً فخـــيرٌ، وإن شراً فشرٌّ" ، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }العنكبوت٤٠ ، [إِنَّ فِـــي خَلْـــقِ الـــسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًـــا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـــذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ] آل عمران ١٩١، [فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا] الشمس ٨-١٠ ، [لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْـــسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ] البقرة ٢٨٦، {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الـــدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِـــي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}القصص٧٧، [وَمَا كُنَّا مُعَـــذِّبِينَ حَتَّـــى نَبْعَـــثَ رَسُولاً]الإسراء ١٥.

وما تفعله الرؤية الإسلامية الكونية، بشأن هذه المسؤولية، والتي هي ملازمة لأصل الفطرة السوية ومؤهلات الاستخلاف التي هي الضمير الأخلاقي والعلم السنني)، أنها تضعها في بؤرة إدراك الإنسان، لا لغاية، إلا لترشد مسؤولية خيارات الإنسان، وغايات سعيِ حياةِ الإنسان، ليحقق فطرة ذاته الروحية، ومعنى حياته الدنيوية السوية؛ كياناً وذاتاً فرديةً إنسانيةً، لا ينفصم عن عضوية كيان مجتمع إنساني حضاري إعماري؛ وذلك بالسعي المسؤول الرشيد بالإعمار، ومتع الحياة الطيبة، وكرامتها، في هذه الدنيا، وفي عالم الأبدية والمآل.

وبقدر ما ينال الإنسان، فردًا وجماعة، من التكريم بالاستخلاف والحرية، يحمل معها أمانة مسؤولية التصرف في الكون الذي بني – كما يعبر عن ذلك "المسطور" ويجسده "المنظور" - على مبادئ وقيم التوحيد والغائية الأخلاقية، ليكون الإنسان ومعنى وجوده وغاية وجوده خليفة في الأرض، وما يترتب عليه من مسؤوليات، عاملَ إصلاح وإعمار، "يحقق ذاته"؛ بالحصول على حاجاته، بالوسائل والأساليب الخيرة الإعمارية، يتوخى فيها العدل والإحسان والسلام؛ وبذلك يحكم سلوكه نور الروح وقوى الضمير (النفس اللوامة)، في أن "القوة للحق"، وهو عكس ما تغري به حيوانية الجسد المادية (النفس الأمارة بالسوء) في الاستجابة للحاجات، بالغلبة والتظالم والعدوان، حيث "الحق للقوة" يقول الله سبحانه وتعالى: [إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا] الأحزاب: ٧٢، {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}الحجر٢٩، {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ* وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} القيامة ١-٢، {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ}يوسف٥٣، [وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا] الشمس: ٧-١٠ [لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ] الأعراف: ١٧٩.

٨ - **الشورى:**

إذا أدركنا أن الإنسان في الرؤية الكونية القرآنية الحضارية، قد خلق خليفة في الأرض، لأداء مهمة إعمار الأرض {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}البقرة٣٠ {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}هود٦١، ولذلك أعطي بالعلم القدرة على الإعمار والتسخير ، ومُنِح الحرية والقدرة على الخيار، ومُنح الفطرة الروحية السوية التي تستدعي في نفسه وضميره غائية القصد الخيِّر والإصلاح والإعمار، وهي مناط مسؤولية ما زُوِّد به من قدرات وحريات وخيارات {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}الشمس٨-١٠، {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }ص٢٨، {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}الأعراف١٧٩ ، {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}هود٥٧.

والسؤال لماذا كان الاستخلاف، قبل أن يكون مهمة فردية، كان مهمة الإنسان نوعاً وجماعةً وأجيالاً إثر أجيال؟.

والجواب أن مهمة الاستخلاف، وإن كانت مسؤولية كل فرد إنساني، فهي في ذات الوقت مهمة جماعية اجتماعية تتعلق بالجنس والمجتمع، وتمتد عبر الأفراد إلى المجتمعات وإلى الأجيال، وهذا يعطي الحرية والمسؤولية الإنسانية أبعاداً هامةً، فالمسؤولية غائية تهدف إلى الإصلاح والإعمار، لا إلى الفساد والإفساد، والحرية ليست عبثية غوغائية، فهي، وإن كانت تفسح المجال للاقتناع والخيار بما تمليه الإرادة الفردية وخياراتها الذاتية، فهي في النهاية حرية فردية لاتفتئت على حق الأفراد الآخرين، ولا تتالهم بالأذى كما أنها لا تفتئت على حق الجماعة في الإعمار وحفظ حق الجماعة في الإصلاح والإعمار، فلا مجال لوجود الفرد ولا لأدائه الاستخلافي من دون وجود الجماعة وأدائها الاجتماعي.

ولذلك فإنه، وإن كانت الاقتناعات هي حق للفرد لا يُنازع فيه ولا يملى عليه، له حق التصرف والأداء، بقدر ما يُعطى الفرد من حق الخيار والتصرف وفقاً

للاقتناعات الفردية، إلا أن حق التصرف والأداء الاجتماعي يجب ألا يفتئت على حق الجماعة في الأمن والإصلاح والإعمار.

ولذلك كان للجماعة أن تشرع ضوابط الأداء والتصرف الفردي بما لا يضر بحقوق الآخرين ولا بحقوق الجماعة، في حماية وجودها وغاياتها الإعمارية والإصلاحية ، المباشرة وغير المباشرة، وفي المدى الآني والقصير، وعلى المدى الطويل، لحماية حقوق المجتمع وحقوق الأجيال القادمة ومصالحها {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}آل عمران١٠٤.

وهنا يأتي دور الشورى التي لا تخضع للأهواء، ولا لمصالح الأفراد من أصحاب السلطة والسطوة والنفوذ بمختلف أشكاله، ولكن تتم بتشاور الجماعة؛ بهدف حماية الحقوق المشروعة للأفراد والجماعة، للتصرف وفقاً للاقتناعات لتحقيق غاية الوجود الإنساني ومصالحه العامة في الإعمار والإصلاح والأمن، من دون عوائق ولا معوقات.

وهكذا فإن الشورى جزء لا يتجزأ من وجود الفرد والجماعة والنوع، وهي بقدر ما تحترم الاقتناعات وحق التعبير وحق التصرف والأداء بما يحقق مصالح الفرد وحماية حقوقه، إلا أن هذه الحرية ليست وسيلةً ولا مبرراً للفوضى والعبث بحقوق الأفراد الآخرين، ولا بحقوق الجماعة وحقوق الأجيال القادمة ومصالحها .

فالشورى جزء لا يتجزأ من حياة الفرد والجماعة والإنسانية، بل هي الأداة الضرورية لمزاولة الفرد والجماعة كرامة الاستخلاف، وما يستتبع ذلك من حريةٍ وخيارٍ ومسئولية وحمايةٍ لهذه الحرية وتحقيق معنى الاستخلاف الإنساني وغاياته الفردية والجماعية في الإعمار والإصلاح .

ولو تمعنا في النص القرآني الخاص بمبدأ الشورى، ورأينا التصاقه بالغايات الاستخلافية والأخلاقية والإعمارية، أدركنا المعنى الحقيقي للحرية الرشيدة في حياة الإنسان فرداً وجماعةً ونوعاً، بروح العدل والكرامة والتسامح .

يقول الله سبحانه وتعالى: { وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ* وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ* وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ

مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ*إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ* وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} الشورى ٣٧-٤٣.

فبقدر ما يجب على المجتمع أن يوسِّع للحرية الإنسانية في الحق المطلق في الاقتناعات، وفي حق الأداء والتصرف والمبادرة والإبداع، يجب على الجماعة ألا تسمح لتصرفات الأفراد وأدائهم بالجنوح إلى حالةٍ من الفوضى، وألا تسمح لهم بأن تكون الحرية أداةً إلى الفساد والإفساد والعبثية التي تضر بالأفراد الآخرين، وتضر بحقوق الجماعة ومصالحها ومصالح مستقبل أجيالها؛ لأن الحرية الإنسانية الحقة هي حرية بنَّاءة إعمارية، أما الفوضى والعبثية، وبأي مسمى كانت، فهي حالة اجتماعية مرضية اجتماعية مخربة هدامة، {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}الأعراف٨٥، {فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}الأعراف٧٤، {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ}البقرة٢٠٥، {كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}المائدة٦٤، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}البقرة١١، {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ}المؤمنون٧١، {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ}البقرة٢٥١.

وهكذا؛ فإن الشورى هي مبدأ لإدارة الأداء الإنساني السوي، وأداة لإعمال الفكر الإنساني السليم، وسلامة الأداء الخيِّر الفعَّال، وبناء الاقتناعات الجماعية الناضجة، ووسيلة اجتماعية إنسانية أساسية للتحاور والتواصل والاعتدال والتوافق والتسامح، وهي درع، بالأمة وللأمة، للحماية من شرور الاستبداد والطغيان والظلم والبغي والفساد؛ فتكون الأمة برؤيتها الكونية الحضارية الإعمارية، ومفاهيمها وقيمها الأخلاقية، ووعيها بمصالحها وحق تقرير خياراتها الحياتية

الإعمارية، هي - بقوة الشورى ونضجها واقتناعاتها وقوتها الاجتماعية السياسية - الوصيُّ على السلطة، والموجه لها، والرقيب عليها، وليس العكس، حين يغيب ذلك فيكون رجل السلطة هو الوصيّ على الأمة القاصرة المجهّلة؛ ليسخرها لمصالحه ومصالح الأتباع والأعوان ومفاسدهم؛ ليستأثروا ويحتكروا السلطة والثروة، ويقضوا في لهوهم وترفهم وفسادهم على كل إمكانات الكفاءة والإبداع والنمو والمنافسة البنَّاءة في دولهم ومجتمعاتهم؛ ولذلك فإن للحرية والشورى أهمية خاصة في قيام الحضارات وانهيارها.

٩- **الحرية والشورى : شرط لازم لبقاء الحضارات** :

من البدهي أن الاستبداد والظلم والفساد لا وجود لها مع الحرية والشورى، وإذا خالط الاستبداد والظلم والفساد أي بناء اجتماعي فإن دعوى الحرية والشورى لابد أن تكون زائفة شائهة؛ لأنه لا يمكن لأمم حرة تنضج الحريةُ والشورى فكرَها ورؤيتَها، أن يشوب بناء مجتمعها الطغيان والظلم والفساد؛ لأن هذه الشرور لا تنبت ولا تنمو إلا في ظلام الجهالة والتضليل والتزييف، لأن الأحرار المتواصلين المتشاورين لا يمكن تضليلهم جميعاً كلهم كل الوقت.

وهكذا فإن العدل نبت الحرية والشورى، وإن الحرية والشورى لا يمكن أن توجد من دون العدل.

إن من الأهمية الكبرى للأمة المسلمة إدراك التلازم بين الحرية والشورى، وبين قيام الحضارات واندثارها؛ لأن الأمة المسلمة، وهي في مرحلة النهوض واسترداد العافية الحضارية، هي في أشد الحاجة إلى أن تدرك معنى هذا التلازم، وكيفية تأثيره على الأمم؛ ارتفاعاً وانخفاضاً، وأن تدرك كيف يتعامل المفكرون والقادة والمصلحون مع واقعهم، والعمل على إعادة تأهيل الأمة لكي تستعيد موقعها ورسالتها ومسيرتها الحضارية الخيرية الإعمارية الفريدة.

ذلك أن الحضارات الرائدة الجديدة تنشأ على ركام الأمم والحضارات الآفلة، وذلك حين تتكلَّس مفاصل النمو والحركة في كيان الأمة والحضارة الآفلة في التاريخ، بعد أن يكون سرطان الاستبداد والفساد قد أنشب أظافره في فكر الأمة ونظامها الاجتماعي؛ ليدمر بنيتها الاقتصادية والاجتماعية، وليكوِّن طبقة طفيلية

تحتكر السلطة والموارد والثروة، وينتهي الاستبداد بالأمة إلى المظـالم والمفاسـد والجمود وتكلّس مفاصل الحركة والنمو وتصلب شرايين الإبداعات والمبـادرات والمنافسات الإعمارية الإيجابية الخلاقة؛ لتنهار الحضارة، ويأفل نجمها، وليـصعد نجم أمة وحضارة جديدة رائدة، أمكنها أن ترى الإمكانات الحـضارية المـستقبلية التي لا تستطيع الأمم والأنظمة والمجتمعات المتكلّـسة، في ظلِّ نيـر الاسـتبداد والفساد أن تراها، وتخوض غمارها، وتنتهز فرصها الإعمارية الحضارية؛ وبذلك تبدأ الأمم الفتيَّـة المتوثبة تتحرك نحو آفاق علمية وحضارية جديدة واسعة، مـا كان بإمكان الحضارات الآفلة المتكلسة أن تراها أو أن تتحرك باتجاهها.

وهذا التكلُّس والجمود الحضاري يحدث للأمم حين يتمكن الاستبداد من نظـام حياة الأمة؛ ويأخذ رجال الحكم وحواشيهم وأعوانهم في إحكام قبضتهم على نظـام الأمة السياسي والاجتماعي والاقتصادي؛ فيكوِّنون طبقة محتكرة للسلطة والثروة، ويبدؤون في العمل على احتكار السلطة والثروة، وتوجيهها لخدمـة مـصالحهم، والعمل على توطينها في أبنائهم وأعـوانهم، وهـذا لا يمكـن تحقيقـه للأنظمـة وأصحاب السلطة المستبدة والثروة والنفوذ من دون أن تقهر المؤسسة الـسياسية الفرعونية رجال الفكر في الأمة ليكوِّنوا طبقةً مثقفةً مدجَّنة ليكوِّنوا مؤسسة (نقابة) تبريرية كهنوتية بغض النظر عن طلائها العلماني أو الـديني؛ لتكـون أداةً بيـد مؤسسة (نقابة) رجال السلطة (الفرعونية) المستبدة، وتكون مهمتهم تشويه الرؤية الكونية، وتضليل الأمة، وتجهيلها وتزييف إرادتها، وقهرها بسوء استخدام التحديث أو التقديس، وإخضاع رقابها لمصالح السادة وترفهم ومفاسدهم ونزواتهم.

بتمكن طبقة القيادة السياسية المستبدة الزائفة وأعوانهم من أصحاب النفوذ والثروة والاحتكارات (الفراعنة) والطبقة المثقفة الفاسدة الزائفة من أرباب الكلام وحملـة الأقلام (الكهنة) في الوقت الذي يتدهور فيه فكر الأمة ورؤيتها، وتُنتهك حرياتهـا وكرامتها، وحقوق أبنائها وكرامتهم، فإنه يسود الفساد، ويسود الاحتكار، وتنعـدم المنافسة والمبادرة والإبداع، وينغمس رجال السلطة والثروة والنفوذ فـي التـرف والفساد والوقوف في وجه أي تغيير أو تطور أو مبادرة لا تـأتي مـن خلالهـم ولمصلحتهم، وهم في عزلتهم وترفهم واستهتارهم ليسوا أهلاً لأي تطوير أو تغيير

أو إبداع أو مبادرة، وهذا يعني تدهور الأمة، وتشوه فكرها، وجمـوده، وتـصلب شرايين القدرة والعطاء والإبداع والنمو، وتكلُّس بنائها الاجتماعي الـذي يـرزح جمهوره في الفقر والجهل والمرض، وفي الضعف والتخلف والـذل والهـوان[٥٧]، وفي العجز عن مواجهة التحديات التي تواجهها الأمة الآفلة المتكلِّسة من قبل الأمم الناهضة؛ لتدفع الأمة المتكلِّسة بفقرها وذلها ومعاناتها على يد الأمم الناهضة الثمنَ الباهظ، والطعمَ المر، لانحرافها والسماح لنمو الخلايـا الـسرطانية "للفرعونيـة" و"الكهنوتية"، ذات الطلاء العلماني أو الطلاء الديني؛ لينشب أظافره فـي خلايـا جسدها، ويلطِّخ أيديه بدمائها؛ وينتشر الفساد والظلم والاحتكار والتشوُّه والجمـود {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ* الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ*فَصَبَّ عَلَـيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ*إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}الفجر ١٠-١٤، {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْـأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الَّـذِينَ مِـن قَـبْلِهِمْ دَمَّـرَ اللَّـهُ عَلَـيْهِمْ وَلِلْكَـافِرِينَ أَمْثَالُهَا}محمد١٠.

إن الحضارة الإنسانية اليوم وهي تعاني مـن سـيطرة الماديـة والعنـصرية (الأمارة بالسوء) ومن دعاوى "الديمقراطية الزائفة، ومن "الحريـات" الفوضـوية العبثية المفسدة، ومن كهنة تضليلات الإعلام والمراكز البحثية الزائفة التي يتحكم فيها وفي أدواتها ومؤسساتها طبقةُ رجال السلطة والمال وما يـستتبع ذلـك مـن احتكاراتٍ، ومن مظالم ومن تجهيل وتفقير لجماهير الأمم، ومن ترفٍ وإسـرافٍ وتدمير، إنما تدفع بالإنسانية إلى الدمار، إلا أن ينبثق مجدداً فجرُ حضارة الإسلام الروحية.

إن ما أصاب فكر الحضارة المادية المعاصرة من انحرافات وتزييـف، ومـا أصاب رؤيتها الكونية من تشوُّه، وما أخذ يدبُّ في كيانها مـن قولبـة اجتماعيـة واحتكارات سلطوية ومالية وتقنية لن تنقذها في مقبل أيامها العقول المهاجرة التي أمدت هذه الأمم لأكثر من قرن من الزمان بنضارةٍ وشبابٍ زائف، وذلـك علـى حساب الأمم الفقيرة المستضعفة؛ باستلاب مواردها المادية والبشرية، لتبطِّئ آثار انحرافها وتكلُّس بنيتها الاجتماعية ومفاسد ممارساتها الطبقية والعرقيـة؛ وذلـك بهجرة زبدة العقول المبدعة القادرة، من أبناء البلاد الفقيرة المستضعفة، وتغطـي

بذلك مساوئ ترهلها، وعيوبها، وتشوه رؤيتها وانحراف فكرها، وتدهور أخلاقيات شعوبها وأنظمتها الاجتماعية، ولكن على حساب مزيد من البؤس والــشقاء الــذي تلحقه هذه الأمم والحكومات المتسلطة بالأمم الضعيفة المتخلفة؛ التي تدفع بذلك من دماء أبنائها ومواردها وكرامتها، وبهجرة النيِّــر من عقول أبنائها؛ ثمنــاً لتــشوه فكرها وجموده، وتكلُّس بنية نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

كل الممارسات السابقة إنما هي مؤشرٌ على دخول الحضارة المعاصرة مرحلة متقدمة من التشوه والاستبداد والمظالم والفساد، وبأشكال كثيرة مضللة بتأثير الكهانة الإعلامية؛ وهذا يؤذن بتكلُّسها وانهيار بنائها الاجتماعي والحضاري ونظامها العالمي، ولعل من مؤشرات تفاقم أمراض تكلُّــس مجتمعات تلك الحضارة المادية أنها بدأت تضيق بهجرات أبناء الشعوب الفقيرة، حتى بهجرة أصحاب العقول منهم، لأن يد الشركات العالمية (الفراعنة الجدد) التي يسيطر عليها إقطاعيو (احتكاريو) عصر الثروة العلمية التكنولوجية وأدواتها الرأسمالية المصرفية (الملكيات الفكرية التقنية والصناعية والمصرفية المالية)، امتدت بالسيطرة والاستغلال - بإمكانات العولمة - إلى شعوب الأرض كافة؛ وهي بهذه الاحتكارات والسيطرة على أدواتها وأسرارها، وتحويل أيدي الشعوب وثرواتها من المواد الأولية إلى عبيد و"أقنان" في خدمة سادتهم، وخدمة البلايين، بل عشرات البلايين ومئاتها، والتي تتكدس يومياً في حساباتهم؛ لتزيد بفضل تدبيرات أنظمتهم ومنظماتهم وسطوة أساطيلهم البريــة والبحرية والجوية، وثكنات مخزوناتهم الاحتكارية المتزايدة من أسلحة الدمار الشامل – من معاناة هذه الشعوب المسلوبة الحقوق الإنسانية، ولتزيد بذلك من هُــوَّة فقر السواد الأعظم من أبناء الشعوب بينها وبين القلة الاحتكارية المسيطرة عالمياً على إمكانات خيرات القوانين الطبيعية التقنية وأسرارها الصناعية التي تحرِّمها على الشعوب المستضعفة، وتضيِّــق عليها، وتقهر كل من يحاول منهم معرفة شيء من أسرارها أو الحصول على شيء من منافعها، وما يجره وضع اليد هذا من قِبَلِ المسيطرين على قوى قوانين الطبيعة تكنولوجياً، واحتكارها باسم الملكية الفكرية، ومنع هذه الشعوب - على ما نشاهده - من تعلُّــم التقنيات العليا ومعرفة

أسرارها، من ظلمٍ واستغلالٍ وصراعاتٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ واقتصاديةٍ، هي أسوأ كثيراً من سيطرة إقطاعيي "العصور الوسطى" حين وضعوا أيديهم على إمكانات خيرات الأرض وقدراتها على الإنبات في اقتصاديات "العصور الوسطى" الزراعية.

ولن يقف أثر الاحتكار التكنولوجي الرأسمالي عند الشعوب المتخلفة المستضعفة فحسب، بل إنه يتوسع ويتمدد بتهجير كثير من الصناعات الشاقة الزهيدة المردود على العاملين فيها إلى بلاد الشعوب الفقيرة؛ ليمتد بذلك الفقر ومعاناة البطالة إلى شعوب البلاد المتقدمة؛ ولتزداد الهُوَّة بين جماهير الشعوب والقلة الإقطاعية (الاحتكارية)، في عصر الفكرية التقنية الرأسمالية، وهذا يعني أن التكلُّس الاجتماعي والصراعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ستتنامى وتمتد إلى شعوب الدول المتقدمة، في الوقت الذي يفاقم تكلُّس معاناة الشعوب المتخلفة، واستغلالها وتكلُّسها الاجتماعي، ويصعِّب مهمة إنهاضها، وهذا يعني تفاقم الصراعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية على مستوى العالم، كما نشاهد في عالم اليوم؛ مما يهدد الحضارة الإنسانية بالدمار. لذلك فإن على الإصلاحيين أخذ مهمة إنهاض الأمة الإسلامية برؤيتها القرآنية الحضارية، بكلِّ الجدية؛ لينقذوا الأمة والحضارة الإنسانية من ورائها، من مستقبل ومصير مدمِّر مظلم.

والسؤال: هل يمكن لمفكري الأمة الإسلامية ورجال الإصلاح فيها إدراك "ديناميكية" الحراك الحضاري، والعمل على استنقاذ أمتهم من وهدة التكلُّس والتخلف واستعادة رؤيتهم الكونية الحضارية الخيِّرة الإعمارية، وفصل الأدوار والسلطات وبناء المؤسسات، وإزالة آثار التشوهات التي ألحقتها – لأسباب داخلية وأسباب خارجية - طبقة و"نقابات" الفرعونية الكهنوتية برؤية أمتهم وفكرها، ووجدانها وبنيتها وأنظمتها الاجتماعية.

وفي ضوء ما تقدم فإن من المهم أن ننتبه في هذه المرحلة من التحليل إلى أهمية المؤسسات في البناء الاجتماعي؛ لأن بناءها على أسس سليمة يحول دون الانحرافات "الفرعونية و"الكهنوتية" "الاحتكارية" لأن المنهج المؤسسي هو الذي يجعل الشورى منهجاً يحمي البناء، ويقضي على بذور الفوضى والانحرافات،

ويحمي الحريات الإيجابية التي تكشف الزيف وتَـئِـد الفساد، وتفسح المجال للمبادرة والعطاء والإبداع.

ومن المؤسف أن الأمة - لأسباب تاريخية تتعلق بطبيعة البيئة وبساطتها الحضارية - لم تدرك في الماضي، وخاصة في مرحلة التأسيس لما بعد عهد خصوصيات العهد النبوي، دور المؤسسات، ولم تسعفها الظروف الحرجة، في مواجهة عدوانية الإمبراطوريات المحيطة بها، ولم تمهلها لكي تكتشف هذا الدور وتلك الأهمية، ولكننا اليوم لا عذر لنا ولا محيص أمامنا من بنائها، وإجادة هذا البناء، إن شئنا حقاً أن نستنقذ أنفسنا وأمتنا والحضارة الإنسانية من المدافعة الحضارية البناءة، والتصدي الحضاري الإيجابي الفعال للإثارة المدمرة التي تعاني منها الإنسانية اليوم بسبب الرؤية الكونية المادية الفاسدة، وما ينجم عنها في عالم اليوم من الاحتكارات والمظالم والصراعات المدمرة، والمخاطر المهلكة، التي تتهدد الإنسانية في غمرة سيادة هذا الفكر المادي الأناني العنصري التسلطي (الفرعوني)، بطاقاته الاحتكارية العولمية التدميرية، بما لا عهد ولا طاقة للبشرية بمواجهة آثاره إلا برؤية إنسانية إعمارية خيرية بديلة، {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ}البقرة٢٥١، {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}الحج٤٠، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}النور٥٥، والله سبحانه وتعالى لا يضيع {أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً}الكهف٣٠

وهنا، فإن من المفيد في ضوء ما تقدم، أن نتساءل: هل الدخول السهلة في أيدي السلطات الحاكمة في بلاد الأمة الإسلامية التي تدفقت فجأة من مخزون الموارد الطبيعية الأولية وخدمات المواقع الإستراتيجية، ومن مؤامرات أعباء الديون، وإملاءات المعونات، والتعاون الآثم للاحتكارات المحلية مع رؤوس الأموال والمصالح الأجنبية؛ طلباً لرضاها وعمولاتها، ولخوف الحكومات الضعيفة

المستبدة الفاسدة الخانعة من سطوة أصحاب المصالح الأجنبية ودولهم، هل كل ذلك - مجتمعاً أو متفرقاً – أصبح أسباباً لإجهاض بوادر حراك الأمة علـــى طريـــق النهضة؛ لتبدأ الأمة مرحلة جديدة من التكلُّسات التي تقضي على بوادر صـــحوتها التي بدأت منذ نهايات القرن الثامن عشر فـــي تركيـــا بمحـــاولات الإصـــلاحات العثمانية، وفي مصر بمحاولات محمد علي الإصلاحية، وفي الدعوات والهبَّـــات الإصلاحية في الجزيرة العربية والهند وشـــمال أفريقيـــا وبقيـــة أقطـــار العـــالم الإسلامي؟.

والسؤال: هل تحولت هذه الدخول والثروات المجانية، من الثروات الطبيعيـــة، بالإضافة إلى الدخول والمصالح المشبوهة من المعونات والقروض والعمـــولات؛ لتصبح داعياً ومصدراً لمزيد من الاستبداد ومزيد من الفساد، ولمزيدٍ من الـــتكلُّس والجمود والفوقية الداعية إلى بقاء الأحوال على ما هي عليه من احتكار الـــسلطة واحتكار الثروة ومزيد من الفساد والسرف والترف، والقضاء على المنافسة البناءة والتطوير والمبادرة والإبداع، ليُستبدل بها مزيدٌ من توطين الجهل والذل والخنوع والفقر والتخلف، في بناء اجتماعي مهترئ متكلِّس في قدراته، وفي طاقاته، ومشوَّهٍ في رؤيته الكونية، وفي فكره، وفي أساليب تربيته وفساد مؤسساته وخوائها.

إذا لم يتنبه المفكرون والإصلاحيون والتربويون لهذا الأمر فإننـــا نخـــشى أن تدمر بواكير صحوة الأمة وتجهض قبل أن تزهر وتثمر.

فهل سيهب المفكرون والمصلحون والتربويون والمثقفون لاستنقاذ الأمة من خطر الإجهاض وانحراف المسيرة، وإعدادها حقاً للحصول على فرصـــة الإرث الحضاري المتاحة لها، والتي هي بإرثها وتاريخها الحضاري أهلٌ لها، فيصلحون بذلك حال الأمة ويستنقذونها، ويصلحون ويـــستنقذون معهـــا مـــسار الحـــضارة الإنسانية؟.

هل سنستعيد رؤيتنا الكونية الحضارية الإعمارية الخيِّـــرة؟ وهـــل سنـــصلح تشوهات فكرنا وخطابنا وأساليب تربيتنا؟ وهل سنبني مؤسساتنا لحماية قيم رؤيتنا الكونية ومفاهيمها ومبادئها ومنهج فكرها؟.

كل ذلك ممكنٌ على الرغم من كل العقبات والتكلُّسات، لأن لدى الأمـــة كـــل المؤهلات التي يمكن تفعيلها بجهاد المفكرين والمصلحين والمربين، وبطاقة الآباء والأمهات وتضحياتهم الرشيدة المخلصة من أجل مـــصلحة أبنـــائهم؛ لأن الآبـــاء والأمهات هم الذين لهم اليد العليا لدى أبنائهم برغم ســطوة "الفراعنـــة" وتـــدليس "الكهنة" وضجيج أعوانهم ومحسوبيهم؛ إذا صحَّ منهم العزم، وصحَّت الرؤية.

هل سنُكرِّم إنساننا، ونحترم ذواتِنا ونحمي حرياتِنـــا ونقـــيم مؤســـسات العلـــم والمعرفة والعدل والشورى والتكافل والأمن والسلام في أركان بنيان اجتماع أمتنا وحضارة عصرنا ؟

وحتى تكتمل الصورة ومؤهلات الاستخلاف فـــإن علينـــا أن نـــستوفي عـــدة الاستخلاف، وهي جانب العلم والمعرفة الشمولية السننية، حتـــى نحـــصِّل ثمـــرة الاستخلاف في التزام قصد الإصلاح والإعمار، وتسخيره لحاجات الإنسان ومتعه وطاقات إبداعه.

١٠ - الشمولية العلمية السننية:

الوعي بالعقل والتفكر والفطرة السليمة، على ما نرى ونلمس في النفوس، وفي الكون من حولنا، وعلى ما يتمتع به الإنسان من قدرات التصرف والاســـتخلاف، ومن التكريم بالاستخلاف وما يترتب عليه من حرية القرار وأمانة المسئولية، يحتم على الإنسان عقلاً وفطرةً الاستجابة لفطرته السليمة الروحية في إدراكها وإيمانها الفطري بوحدانية الخالق وتوحيدية الخلق وتكامله وغائيته وأخلاقيتـــه ، وفطريـــة طلب المعرفة ونوازع التسخير والإعمار؛ لتحقيق ذات الإنســـــان، والاســـتجابة لحاجاته، والتعبير عن مكنونات نفسه وإبداعه، مستخدمًا - فطرة - في كل ذلـــك أداةَ العقل وما أودع الله في العقل - في أصل فطرة الخلق وفطرة الاستخلاف في الأرض - من الأولويات التي تجعل من العقل الأداة والوسيلة الأساســـية لخليفـــة الأرض، المتصرف في الأرض؛ لتسخير إمكاناتها وخيراتها؛ للاستجابة لحاجاتـــه وإبداعاته ومبادراته وإعماره، بواسطة أداة العقل بالنظر والتفكُّـــر، والبحث وطلب المعرفة؛ لأن المعرفة الحقة الصحيحة الموثوقة لا يمكن أن تحصل فطرةً وعقـــلاً

إلا بالفهم العلمي الموضوعي التحليلي النقدي الشمولي المنضبط، وبكل وسائل العلم والمعرفة الموضوعية المتاحة، والتي تتنوع بحسب الظرف والموضوع، كل ذلك شرط ضروري في طلب المعرفة الصحيحة حتى يكون الإدراك من الناحية السببية الموضوعية موثوقاً سليمًا، وحتى يأتي طلب المعرفة وتلمس الهداية السننية الموضوعية بشكل منتج فعال، وعلى أساس سليم من الفطرة والسنن وحقائق الواقع المعاش، وإلا فإن طلب المعرفة من دون أداة العقل ومنطقه لتحصيلها وتحريرها بميزان العقل، وهو ما أدركه الفقيه القاضي المتمرس العلامة ابن خلدون، قبل العديد من القرون، ليؤسس للنظر العلمي السببي السنني، وللعلوم السننية الاجتماعية، والتي من دونها لا يكوّن إلا الخرافة والشعوذة والفوضى، وتتشوه الرؤية الكونية الوحدانية التوحيدية وتنتفي المسؤولية، وهو أمر ترفضه الرؤيا القرآنية الكونية بالقدر الذي ترفضه الفطرة السليمة والحس وبدهيات العقل السنني ونتائج الواقع الملموس.

حتى الوحي ورسالاته، لا يكون وحياً حقاً ولا معرفة "حقة" في مرحلة العلم والعالمية الإنسانية، وأنه ليس مجرد شعوذات أو أساطير وخرافات أو أوهام وخيالات أو احتيالات، إلا إذا أقر وبرهن ميزان العقل ومنطقه السنني السليم صدق الرسول وصدق الرسالة[٥٨].

الإدراك العقلي الموضوعي للفطرة الإنسانية وسنن الوجود وواقع الحياة هو السبيل الفطري العقلاني إلى فهم الحياة والوجود وواقع مسار التعامل الإنساني معها، ومن دون التعامل العقلي العلمي الموضوعي السنني الشمولي، في هذه المرحلة المتقدمة التي حققها تطور الإنسانية ونضجها، لا يكون الحال - كما هو ملموس ومحسوس - إلا عالماً من الفوضى والعبثية والتخلف والتخريف والشعوذة، وهو ما ترفضه الفطرة السوية، وينكره الواقع الذي نعيشه، وتأباه أولويات العقل الحضاري السليم وبدهياته، وبغير ذلك تنتفي بدهية وحدانية الخالق وتوحيدية الخلق الفطرية، وينتفي معها حس المسؤولية، ولا يكون إلا التشوه والتظالم والفوضى والفساد.

إن من المهم أن ندرك دون أدنى شكّ أو ريب، أن من الأوليات والبدهيات العقلية والحياتية الإنسانية أن السببية والاستخلاف أمران لا ينفصمان؛ لأن غير

ذلك يعني عشوائية الحياة وانعدام قدرة التصرف ومسئولياته، فينعدم بذلك معنى الحياة، ومعنى الامتحان، ومعنى الإرادة، وليس في ذلك إلا ترويج للشعوذة والخرافة والضياع.

الاستخلاف هو الإرادة الإنسانية والقدرة على التصرف، وهو حمل مسئوليات الإرادة وقدرة التصرف المبني على مبادئ التوحيد والتوحيدية والغائية والأخلاقية.

وإن إنكار السببية العلمية وطلب الأسباب هو إنكار لحقائق الحياة؛ لأنه إنكار للمشاهَدِ من قدرة الإنسان على التصرف والتسخير، وذلك إنكار لأصل الخلق، وأصل الطبع، وأصل حقيقة الحياة.

كلنا يعلم ويشاهد أنه من دون الماء والمطر لا يكون زرع ولا ضرع، ومن دون التلاقح لا يكون زهر ولا ثمر، ومن دون الهواء والتنفس لا يكون بهيمة ولا بشر، ومن دون الفكر والعمل لا يكون نتاج ولا قدرة ولا نماء، ولا يستقر حجر على حجر.

فالاستخلاف والسببية العلمية في حياة البشر أمران متلازمان وصنوان لا ينفصمان، وغير ذلك محض خرافة وشعوذة، وتدجيل وكذب، وفي أحسن الظنون، هو جهل، وقصور فكرٍ، وسوء فهمٍ وتأويل، **من جانب، وهو ولع وهلع وانبهار مرضيّ بالرائج والمروَّج من أقاصيص الخرافة والشعوذة و"حواديتها" من جانب آخر**، يقول الله سبحانه وتعالى [فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ]الروم: ٣٠، [رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى] طه: ٥٠، [أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ] ص: ٢٨، [لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ]الأعراف١٧٩

إن العلاقة الصحيحة بين الوحي (المسطور) والفطرة والسنن (المنظور) والعقل (الميزان)، تكون فيها الفطرة والسنن هي موضوع الوحي الذي يعبر عنه، وتكون بدهيات العقل هي الأداة والوسيلة التي تعين الإنسان على إدراك قضايا الوحي، وكيفية ترشيد الوحي للإنسان حتى يمكنه تحقيق أكبر قدر من التعامل

الصحيح الإيجابي البناء مع مكنونات الفطرات الإنسانية السوية والسنن والنواميس الإلهية الكونية.

ولو لم ينحرف مسار منهج العقل المسلم بتأثير الخيالات والتهويمات الأسطورية الصورية الإغريقية والباطنية الغنوصية لكان المسلمون هم البناة الأوائل السباقين منذ قرون عديدة إلى اكتشاف العلوم الاجتماعية؛ لأنهم بهدي الرؤية القرآنية الكونية الحضارية مؤهلون لامتلاك ناصية مختلف العلوم الاجتماعية والفيزيائية والتقنية، على حد سواء، وبرؤية واضحة وقدم سببية سننية ثابتة، ولحققوا بسبقهم في التزام السننية والعلمية الشمولية أضعاف إنجازات الأمم اللاحقة بعدهم في كل هذه المجالات.

ولتصحيح مسار الأمة الإسلامية العلمي والإصلاحي الحضاري اليوم، وبعيدًا عن الخرافيات والشعوذات والإسرائيليات والصوريات والغنوصيات، فإن على المثقفين والدارسين والمفكرين والمصلحين المسلمين أن يستعيدوا بُعْدَ العلمية الفطرية السننية الشمولية ومنهجها، وعلى هدي وقدم راسخ وثابت من الرؤية الكونية القرآنية الحضارية وذلك بإصلاح مسار الثقافة والتربية والتعليم التي هي الأساس في بناء فكر الأمة ومؤسساتها العلمية، وفي إعداد كوادرها العلمية والقيادية، وذلك لتحقق وحدة المعرفة الإسلامية التي تبني عقلية العلم والمعرفة شمولياً، في المجالات الحياتية والكونية كافة، على أساس التزام الفطرة الإنسانية السوية، والسنن والنواميس الكونية الإلهية، وبناء مناهج التخصصات العلمية المختلفة (المنظور) جنبًا إلى جنب، مع زاد ثَرِيٍّ من مناهج المعرفة العقدية القرآنية المستمدة والمعبرة عن الرؤية الكونية القرآنية الإعمارية (المسطور)، وتمكينها من ضمائر الناشئين والدارسين ووجدانهم ومقاصدهم الإعمارية الخيِّرة؛ حتى يأتي النظر العلمي الإسلامي شموليًا سننياً إيجابيًا خيِّراً منضبطًا، لا فكراً ومنهجاً نظريًا جزئيًا تبريريًا انتقائيًا يُستخدم - بغض النظر عن النوايا - مجرد أداة لمداراة التشوه المعرفي شبه الكهنوتي، والعجز عن امتلاك ناصية المنهج العلمي الموضوعي الشمولي في البحث والتحليل وإدراك السنن؛ ليبالغ عوضاً عن ذلك في استخدام النصوص؛ صحيحها وضعيفها، وبشكل انتقائي

تبريري، بوصفها أداة للاحتماء بقهر القداسة لمداراة العجز والجمود ومواجهة العامة وإخراسهم؛ لينتهي الأمر على ما نشاهد، حيث جُلُّ علمائنا في جانب، وجُلُّ مثقفينا في جانب آخر، وجُلُّ عامتنا في جانب ثالث، وكثرتهم موزعون بين العزلة والغربة والوهم والجهالة والخرافة[٥٩].

وفيما وراء الإدراك العقلي يأتي دور القلب والوجدان ودور الإرادة الإنسانية وخياراتها؛ لأن العمل والفعل ليس فقط نتاج العلم والإدراك والمعرفة العقلية البحتة، ولكن الفعل منوط أيضاً بهوى "القلب" و"اللب" و"الوجدان"، وهي أبعاد نفسية روحية عاطفية من شأن التربية، وبذلك يكون الوجدان هو العامل المحرك والحاسم في تقرير خيار الإرادة الإنسانية، ومحرك فعلها، ومفجر طاقاتها، وهو يكون في خاتمة المطاف مرجحاً لأي الأمور يهوى الإنسان؟ وأي السبل يسلك؟ أيكون الخيارُ "تحقيقَ الذاتِ" السوية الروحية وتعبيدها للحق والخير والعدل والرحمة والتعاون والسلام أم الركونَ إلى الأرض، وإلى نوازع هوى الطين، وإلى "مركزية الذات" الطينية العدوانية المستكبرة المُستَعْبَدة بنزعات الظلم والافتراس والجحود وأهواء الطغيان والظلم والفساد؟

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}الأعراف١٧٦، {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ}القصص٥٠، {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ}المؤمنون٧١، {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}ص٢٦، {فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ}النساء١٣٥، {سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}غافر٨٥، {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ}البقرة١٨٦، {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً}الزخرف١٩، {كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}الصافات ١١٠-١١١، {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقاً لِّلْعِبَادِ}ق١٠-١١، {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ}غافر٣١، {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلعَبِيدِ }الحج١٠، {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ}الأنفال٥١.

وهكذا فإن مجرد الاهتمام بالجانب العقلي المعرفي من دون العناية بالجانب الوجداني التربوي لا يكفي في إعداد الإنسان لحمل أمانة مسئولياته وتفعيل قدراته وطاقاته؛ لأن الفعل لا يتم بمجرد العلم ولكن الفعل يتحقق بتجاوب الإرادة والوجدان للمعلومة سلبًا أو إيجابًا، فلا يكفي معرفة الصواب لتحريك الفعل بل لا بد من تجاوب الوجدان لتفعيل الإرادة لتحول المعرفة إلى فعل.

وهذا يفسر جانباً كبيراً من أزمة فشل الأمة في معالجة ما تعلم من وجوه قصورها، وفي تفسير جانب كبير من فشل حركات الإصلاح في استنهاض سوادها ومعالجة وجوه القصور والتشوه في بناء كيانها؛ لأن مفاهيمها ومناهجها التربوية، وأساليب تربيتها الوجدانية، لا تبني بشكل علميّ شخصيةَ المواطنِ والمسلم ليصبح صاحب الوجدان الحيّ الحرّ الفعَّال يقول الله سبحانه وتعالى: [أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ]الحج: ٤٦، [أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا] محمد: ٢٤، [وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا] الكهف: ٢٨، [كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ] المطففين: ١٤، [كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ] الأعراف: ١٠١، [كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ]غافر: ٣٥، [وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا] الأحزاب: ٥، [إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ] الأنفال: ٧٠.

[إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ] آل عمران: ١٩٠، [لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ] ص: ٢٩، [فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] المائدة: ١٠٠، [أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ] الزمر: ١٨.

وهكذا فإن من المهم حتى تستطيع الأمة استعادة الرؤية القرآنية الكونية الحضارية وحتى تعيد بناء الفكر الإسلامي الرشيد، أن تدرك – بأسلوب علمي موضوعي شمولي منضبط - أن الفطرة السوية، والسنن الكونية، والواقع الزماني المكاني من جانب، والوحي من جانب آخر، هما مصدر المعرفة الإسلامية؛ لأن

الفطرة السوية والسنن والواقع مصدر الحقائق، والوحي هو التعبير الصادق عن هذه الحقائق ليجعلها في بؤرة الإدراك الصحيح، ومن ثم لترشيد هذه الفطرة وترشيد خيارات الإرادة الإنسانية تحقيقًا للذات الإنسانية ببناء الحياة الطيبة وتحصيل الحاجات الإنسانية على أساس من غايات الخلق الروحية الخيرة السوية والمحققة لقيم الحق والإخاء والتعاون والعدل والإحسان والسلام.

أما الحواس في هذه المنظومة الفطرية الإنسانية فهي بدورها أدوات للعقل، الذي هو بدوره ميزان فكر الإنسان وبواسطة منطق بدهيات العقل وأولوياته يتمكن الإنسان من النظر ومن المقارنة لإصدار الأحكام المعرفية؛ لتتفاعل مع الوجدان، ومخزون خبراته الحياتية والتربوية العاطفية؛ لتحريك إرادته الوجدانية الإنسانية[٦٠] التي هي المحرك للفعل الإنساني؛ والتي على أساس من خياراتها تكون قراراتها، ثم أفعالها، إما خيرًا وعدلاً وإصلاحًا في الأرض وفطرةً سويةً، وإما هوى ونزعة عدوانية طينية حيوانية، وانحرافاً عن سبل الخير والحقِّ.

إن من المهم لكي يُفَعِّل المفكرون والتربويون والقادة الإصلاحيون والعلماء والمثقفون حركةَ الإصلاح في الأمة أن يعلموا أن المعرفة وميزانها العقلي الموضوعي لا يكفي وحده لتحريك الفعل الإنساني ولا لتحديد وجهته وغايته؛ لأن ذلك يتوقف – في جوهره - على انفعال الوجدان الإنساني والإرادة الإنسانية في تقرير أمر الخيار والفعل الإنساني، لوجهة أو أخرى، قد تتفق وتحريرات ميزان منطق العقل وموضوعية المعرفة، وقد تناقضها، حسب ميل وجدان القلب واللب.

ولذلك لا يكفي لجهود الإصلاح العناية بالتعليم والمدرسة فقط، بل إن التربية في مرحلة الطفولة التي تشكِّل أسس بناء كيان الإنسان المادي النفسي، تُعَدُّ من أخطر العوامل في تكوين الوجدان الإنساني الذي له أكبر الأثر الذي لا ينمحي تأثيره على القلب والوجدان، وعلى صفات الإنسان النفسية الوجدانية الأساسية التي تقوم بالدور الرئيس في توجيه خيارات الإنسان، وتوجه استخدامه لمخزونه من المعرفة الموضوعية وفق توجهات ميول النفس والوجدان، ولذلك فإننا نجد أن الإنسان قد يعرف الصواب ولا يفعله، وقد يعرف الخطأ ويفعله، ونراه فاتر الهمة في الوقت الذي يجب في تصور الكثيرين، وبسبب خطورة المواقف والمآلات، أن

يهب كالوحش الكاسر، ولكنه لا يفعل، وقد يهب كالوحش الكاسر في أمور كان من المفترض أو الأولى بحسب الآثار والنتائج أن يتحلى في مواجهتها بالحلم والصبر وضبط النفس، ولكنه لا يفعل.

لذلك فإن من المهم للإنسان المسلم والمجتمع المسلم أن يصلح ما تشوه من منهج فكر الأمة، وفكر أبنائها،، وأن يصلحوا في ذات الوقت، ما تشوه من أساليب تربية الناشئة، وخطاب وجدانهم، ليصلح بناء مستقبل أجيال الأمة على أساسٍ من الحبِّ والفهم والتعوُّد والاقتناع والشجاعة الأدبية والثقة بالنفس وحسّ المسؤولية والكرامة، وليعيدوا قبل كل ذلك، وبعد كل ذلك، بناء رؤية الأمة الكونية؛ التي هي أساس البناء المعرفي والوجداني؛ حتى تستعيد الأمة صفاء عقيدة الأجيال الروحية التوحيدية الأخلاقية الإيجابية الإعمارية، وبذلك ترسي الأمة الأساس الضروري السليم لبناء العقل المسلم الراشد المستنير، وبناء الوجدان المسلم اليقظ الحي، الذي يفعل الإرادة المسلمة، ويطلق طاقاتها البنَّاءة؛ لتجسِّد في واقعها بأفعالها وإبداعاتها ومبادراتها مبادئ الحق والعدل، ومفاهيم الحرية والمسئولية والشورى وقيم التكافل والتراحم والسلام في علاقاتها وأنظمتها ومؤسساتها.

إن التزام الوحي الحق والفطرة السوية والسنن الكونية مصادر للمعرفة والتزام العقل أداة وميزاناً للنظر والتبين هو المنهج السليم لبناء الفكر واكتساب العلم والمعرفة وإصلاح أساليب التنشئة والتربية، وبناء الصفات الوجدانية السليمة وفقاً للرؤية الكونية القرآنية الحضارية، والعقيدة الروحية الصحيحة لأن هذه العناصر هي العناصر الأساسية لبناء الإنسان المسلم الحضاري الذي يتمتع بالمعرفة الصحيحة، والأخلاقية الفاضلة وبالوجدان الإيجابي الإعماري الحر الكريم الذي يعيد سيرة إنسان الفعل والإتقان والإصلاح، وحضارة العدل والتكافل والسلام والإعمار[٦١]، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}النور ٥٥.

١١ - **العالمية :**

والعالمية التي تعني مرحلة الإنسانية التي تلاحمت فيها مراحل تكوين الإنسان كافة؛ لتكوِّن دوائر متداخلة من القربى والانتماء، من الفرد إلى العائلة، إلى القربى والجوار، إلى العشيرة والقبيلة إلى القوم، وإلى اللغة واللون، وإلى الجنس؛ لينتهي كل ذلك إلى الدائرة الأصل الكبرى، وهي الإنسان والإنسانية.

والعالمية هي صنو نضج حضارية الإنسان وقدراته العلمية، التي أزالت حتى الآن الكثير من حواجز الزمان والمكان، والتي لا يناسبها، ولا يعبر عنها، إلا الخطاب الإنساني إلى الإنسان؛ لأن عالم العالمية لا موضع فيه حضارياً وإنسانياً للعنصرية، كما أن العلمية السننية التي حققت العالمية لا موضع فيها ولا مكان للخرافة والشعوذة والتخريف.

وكل الأديان قبل الإسلام كانت رسالات إلى أقوام بعينهم، في عزلة مراحل بدائية الإنسان وحواجزها ومسافاتها المكانية والزمانية، على تفاوتها، لذلك كانت وسيلتها إلى أقوامها في تلك المراحل هي الخوارق، وما تبقى في عالم اليوم، من تلك الأديان التي انتشرت قبل التاريخ، بعد ما أصابها من التحريفات، على مر الزمن، هو ما نرى أثره فيما تبقى من هذه الأديان حتى اليوم في "الهندوكية" (للهنود)، و"الكنفوشيوسية" (للصينيين) و"الشنتوية" (لليابانيين) و"اليهودية" (للإسرائيليين)، بل إن نبي الله عيسى عليه السلام جاء بخوارقه ومعجزاته رسولاً إلى "الغنم الضالة" من (بني إسرائيل).

أما الإسلام فقد جاء رسالة إلى الإنسان "الناس وبني آدم" فكان خطابه خطاباً عالمياً إلى كل الإنسانية، وكانت وسيلته العلمية السننية، فكانت حجته ورسالته هي "كتاب" "اقرأ"، وكانت غايته العدل والسلام؛ لأنه من دون العدل لا عالمية ولا سلام، ومع العدل والعلم والعالمية والسلام لا مكان للشعوذة ولا للعنصرية ولا للبغي والعدوان، بل هو دعوة إلى الإخاء والحرية والعدل والعلم والأمن والسلام .

والعالمية والسلام هي غير العولمة والهيمنة والاستغلال.

ويظن كثيرون أن العولمة هي شيء جديد، وهذا غير صحيح؛ ذلك لأن العولمة لكل من درس الاقتصاد وتاريخ الاقتصاد المعاصر يعلم أن العولمة ليست

إلا شراباً قديماً عَفِناً، في زجاجات ومسميات جديدة، لأنها ليست إلا ذات النزعة الاستعمارية الاستغلالية من جهة القوى الاقتصادية المادية المتسلطة، مسلحة بإمكانات العصر، في مزيد من كسر حواجز الزمان والمكان، لتحقيق مزيدٍ من البغي والظلم والاستغلال، من قِبَلِ القوي للضعيف.

فالعولمة تسعى إلى الاستغلال الاقتصادي وفق مصالحها وأطماعها، وهي ليست إلا دوراتٍ من الحرية الاقتصادية والحماية الاقتصادية، للقوى الاستعمارية؛ لقهر الشعوب الضعيفة، واستغلال طاقاتها ومواردها البشرية، بواسطة الهيمنة العسكرية والثقافية، لإخضاع تلك الشعوب والسيطرة عليها، ونهب مواردها المادية والبشرية؛ بحيث تكون مجرد مصدر للمواد والموارد البشرية والمادية، ولتكون في خدمة تلك القوى الاستعمارية المتسلطة.

فإذا كانت صناعات الدول الاستعمارية قوية، وأقوى من غيرها من المنافسين، نادت بـ "الحرية الاقتصادية" وفتح أبواب بلاد الشعوب التي تقع تحت سيطرتها لاستغلالها، وإغراقها بصناعاتها، والحيلولة دون نمو هذه الشعوب .

أما إذا كانت صناعاتها في وضع سيِّئٍ في مواجهة المنافسين فإنها تنادي بـ "الحماية الاقتصادية" وقفل أبواب البلاد التابعة لها أمام القوى المنافسة؛ حتى تضمن استمرار الهيمنة والاستغلال الاستعماري، للسيطرة على الشعوب المستضعفة وإذلالها.

ولمحة خاطفة إلى صراعات الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية، وخاصة تاريخ الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية، توضح هذه السياساتِ الاستغلالية البشعة.

والعولمة اليوم هي ذات النداء بـ "الحرية الاقتصادية" للقوى العظمى؛ لمزيد من الاستغلال والهيمنة والسيطرة والاحتكارات، ولكن هذه المرة على نطاق عالمي أوسع استغلالاً بشكل أبشع لإمكانات الكسر الأوسع لحواجز الزمان والمكان؛ وهذا ما جعل الغزو والانبهار الثقافي بوسائله الفضائية والإلكترونية، من أهم وسائلها، وخاصة كل ما يدفع هذه الشعوب إلى الاسترخاء والاستهلاك والفوضى الاجتماعية والأخلاقية، إلى جانب وسائلها العسكرية والاقتصادية.

وحتى حينَ تنادي هذه القوى الاقتصادية العظمى اليوم بـ "الحرية" الاقتصادية، فإنها تصرُّ على "حماية" صناعاتها ومنتجاتها الضعيفة؛ لذلك فهي في الوقت الذي تنادي فيه "بالحرية" تتفاوض فيما بينها على التفاهم وترتيب "الحمايات" والاستثناءات، ولكنها لا تسمح للدول الضعيفة بالعمل على حماية اقتصادياتها الضعيفة؛ حتى تبقى موارد هذه الشعوب **وثرواتها** وأسواقها نهباً لاحتكاراتهم واستغلالهم واستغلال شركاتهم عابرة القارات، **وفساد نظمهم المالية والمصرفية، وخططها المحبوكة في سلب الثروات واحتكارها، على حساب الشعوب الضعيفة، والعبث بمصائرها ومواردها وثرواتها.**

"فالعالمية" ليست "العولمة" بل هما النقيضان.

فالعالمية تواصل وإخاء وتراحم وتبادل عادل للمنافع، وسلام بين بني الإنسان، على العكس من العولمة؛ فهي استعلاءٌ وهيمنةٌ وسيطرةٌ واستغلالٌ ومطامعُ وحروبٌ عالميةٌ بكل أنواعها، وإن شئت فهي على وجه الحقيقة دمارٌ شاملٌ وحروبٌ ثقافية واقتصادية وعسكرية "عولميةٌ" شاملةٌ، ونظامٌ "عولميٌّ" استعماريٌّ احتكاريٌّ جائرٌ.

إن مرحلة العلمية والعالمية التي تخوضها الإنسانية، منذ عهد خطاب الرسالة المحمدية الخاتمة، إلى الإنسانية وتنامي حركة الاتصال الذي تتامى فيه كسر حواجز الزمان والمكان، في اتصال الشعوب الإنسانية، وتبادل مصالحها، في البر والبحر والجو، والفضاء، جسدياً وسلكياً ولاسلكياً وإلكترونياً ، كل ذلك يدفع الإنسانية وشعوبها إلى التوحد في مجتمع عالمي واحد.

وإذا كان المجتمع العالمي الواحد، والحكومة العالمية الواحدة، مما كان يبدو أقرب إلى الأحلام، فإن حركة العالمية الإنسانية اليوم تجعله اليوم حقيقة لا بد منها.

ولكن من المهم أمام المفكرين والإصلاحيين أن يتيقنوا أنهم أمام تجربة إنسانية هائلة ستكون خسارتها مؤلمة فاجعة، كما أن نجاحها هو تحقيقٌ لحلم الإنسانية، ومبتغى خلافة الإنسان في الأرض؛ إخاءً وعدلاً وسلاماً وإعماراً.

تواصل الشعوب وتعارفها وتبادل مصالحها سيدفع بها إلى مجتمع إنساني واحد، يعبر عن وحدة أصلها ومصالحها وتطلعات فطرتها السوية المجتمعية.

وطبيعة المجتمع الإنساني الواحد خضوعه لنظام وقيم ومفاهيم ونظام توافقي يجعل العلاقة بين أفراد المجتمع علاقة سلمٍ، يخضع فيها الفرد للقانون، وتنتفي فيه علاقات القوة والعنف، إلا بيد سلطة نظام القانون ضد المعتدين على حقوق المجتمع وأفراده والخارجين على نظام المجتمع وقوانينه.

والعالمية والتواصل والتعارف والتحاور الإنساني يدفع اليوم بقوةٍ نحو ثقافة ومفاهيم ومصالح مشتركة للأمم والشعوب في شتى أركان الأرض الأربعة.

والمنظمات الدولية، وعلى رأسها منظمة الأمم المتحدة، برغم قصورها وعيوبها التي لا تخفى على أحدٍ، إنما هي إرهاصات نحو قيام المجتمع والمبادئ والقيم، أو قيام النظام العالمي الإنساني التوافقي.

والسؤال الخطير: هل سيحدد طبيعة هذا المجتمع، وهذا النظام، وهذه الحكومة، قوى "العولمة" للحضارة الطينية الحيوانية العنصرية الاستغلالية المادية، التي يستبد فيها القوي بالضعيف؛ حيث الحق للقوة، وحيث يبدو أن محركها وقيادتها تنتهي إلى الصهيونية الاحتكارية الاستبدادية، التي بُنِيَ مركزُ إدارتِها بناءً عنصرياً؛ ويقوم على استلاب شعبٍ عريقٍ دُمِّرَ وسُلِبَتْ أرضُه، ونُهبتْ خيراتُه، بكلِّ وقاحةٍ وكذبٍ وتلفيقٍ، من دون أن يرمش لسفاحيه وأعوانه رمشٌ، ولا يهتز لهم ضمير؛ ولينزلق العالم والإنسان اليوم إلى غابة من الظلم والفوضى "الخلاقة" والعنصرية البغيضة واحتكارات السلطة والثروة، وإلى صراعات مدمرة بدأت بواكيرها في ثورات وحروب تعم الكرة الأرضية، وتتفاقم، ولا يبدو لها نهاية، تحت مسميات المصالح والمقاومة والإرهاب، وهي ليست إلا نتاجاً للتسلط والهيمنة والاستغلال، من قِبَلِ الفرعونيات والكهنوتيات المادية المعاصرة.

والخيار الآخر هو خيار العالمية لقيام مجتمعٍ ونظامٍ وحكومةٍ عالميةٍ على أساس مبادئ إخاء الإنسان والعدل والتكافل والحرية الإيجابية البنَّاءة الإصلاحية في ظل نظام مجتمع إنساني عالمي، ونظام حكم إنساني عالمي، يقوم على أساسٍ توافقيٍّ شوري يلتزم مبادئ الإخاء والعدل والتعاون والتكافل والأمن والسلام

والحرية الإنسانية الإيجابية التي تحفظ حقوق الفرد والجماعة ومصالحهما، والتـــي ترسم حدودها شورى المجتمع، وللجميع {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}الحجرات١٣، {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً}الكهف٣٠، وهذا يعني في الجــوهر مــسؤولية الأمة الإسلامية ومفكريها ودعاتها وقادة الإصلاح فيها، أن يهبوا إلى إصلاح أمر الأمة، واستعادة رؤيتها، وبناء نظامها المدني التوافقي الشوري، على أسس الرؤية والفلسفة الإنسانية الوحيدة، التي تنطلق من وحدة الإنسان، في دوائر متداخلــة، لا تفتئت على تنوّع الإنسان؛ فرداً ولا جماعةً، على أســاس مــن الإخــاء والعــدل والتعاون والتكافل والحرية والأمن والسلام للجميع؛ التي هــي جــوهر الرؤيــة القرآنية والرسالة الربانية الخاتمة إلى الإنسان.

ورأس الدعوة والإصلاح هو إنقاذ الأمة الإسلامية مما أصابها من انحرافــات وتشوهات، وإقامة النموذج للمجتمع العالمي؛ الذي ولدتْ علميتُه وعالميتُه في رحم الأمة الإسلامية، والمجتمع الإسلامي، والذي تركه العهدُ النبويُّ نموذجــاً وحجــة على الأمة الإسلامية والإنسانية جمعاء، أملٌ لا يخطِئُهُ البصرُ والبصيرةُ والفطــرةُ السويةُ.

يقول الله سبحانه وتعالى:

{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ*لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ}التكوير ٢٧-٢٨، {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}النحل١٢٥، {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}القصص٧٧، {وَتَعَاوَنُواْ عَلَــى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}المائدة٢،{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُــواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}المائدة٨، {إِنَّ اللّهَ يَــأْمُرُكُمْ أَن تُــؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء٥٨.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ

رَقِيبا}النساء١،{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}الحجرات١٣، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ*وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ*وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ}الروم ٢٠-٢٢، {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}الإسراء٧٠، {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ} آل عمران ١٩٥، {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }فصلت٣٣، {فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ }التغابن١٢.

١٢ - السلام:

وقصد السلام العزيز الرحيم في الرؤية القرآنية الكونية الحضارية، هو مبدأ وضابط بدهي لمبدأ العدل ووحدة الإنسان في علاقات الإنسان، ويُجْعَل السلام على ما سبق أن فصلنا من أن الإنسانية في الرؤية القرآنية وحدةٌ في تنوع، وتنوع في وحدة، وأن كيان الإنسانية كيانٌ مركبٌ في دوائر متداخلة بدءاً من الفرد وامتداداً حتى كلية السلالة الإنسانية{خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}الملك٢، {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}الممتحنة٨-٩، {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً}النساء٧٥، {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ* وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ* إِنَّمَا السَّبِيلُ

عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيم* وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} الشورى ٣٩-٤٣، {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ* الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} الحج ٣٩-٤١، {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ}البقرة١٩٠، {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}البقرة١٩٤، {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ}النحل١٢٦، {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}الشورى٤٠، {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}النحل١٢٥، {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}الشورى٤٠، {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}النحل١٢٥، {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ *لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ}التكوير٢٧-٢٨، {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}النحل٩٠، {وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}القصص٧٧، {وتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}المائدة٢، {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} المائدة٨، {هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ}الحشر٢٣، {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ} يونس٢٥، {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ}المائدة١٦، {وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}الأنفال٦١، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً}البقرة٢٠٨.

ومن المهم ألا ننسى الإشارة إليه أن ما ذكرناه إنما هو بعض أهم مبادئ الفكر الإسلامي وضوابطه القابلة لمزيد من التقسيم والتفصيل، والتي توفر مزيداً من

ضوابط منهج البحث العلمي الإسلامي؛ حتى يحقق غاياته ومقاصـــده الحـــضارية الإعمارية الخيِّـــرة التي تحقق الذات الإنسانية الغائية الأخلاقية السوية ولا ينحرف عنها.

١٣ - الإصلاح والإعمار:

السعي والتسخير فطرة أصيلة في الإنسان للحصول على حاجات الحياة والبقاء وهو ثمرة الاستخلاف في الأرض، ولكن من الواضح أيضاً أن الإنسان في حياته وسعيه تتنازعه قوتان، إحداهما نزعة حيوانية مادية طينية تميل إلى الافتراس والحصول على الحاجات بعنوة القوة، فلا تتورع النفس "الأمارة بالسوء" عن النزوع إلى الاستجابة إلى حاجاتها باللجوء إلى القوة والعنف والظلم والعدوان، والقوة الأخرى التي تتنازع النفس الإنسانية السوية هي الحسُّ الضميري الفطريّ السوي الروحاني الذي يدفع الإنسان إلى التزام قيم الحق والعدل والرحمة، وينأى به عن الظلم والعدوان والجور،{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}الشمس٧- ١٠، {فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى *وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} النازعات ٣٧ – ٤١، {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}القصص ٧٧، {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}الملك ٢، {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}الملك١٥، {أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الملك٢٢، {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}الزمر١٠، {وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}النحل٣٠، {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}العنكبوت ٦٩، {وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }المائدة٣٥، (وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى

الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً)النساء٩٥. وعن خالد بن معدان عن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)[٦٢] ، وعن عائشة أنها قالت : (كان أحب العمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يدوم عليه صاحبه)[٦٣]، **وروى الطبراني في الأوسط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)**، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "الخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله"[٦٤]، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً..."[٦٥]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل"[٦٦].

وفطرة الروح في الإنسان وإدراك غائية الوجود، وأخلاقيته، وإدراك حقيقة علاقة الوجود بين خالق ومخلوق، و"وحدانية" الخالق المنزه القادر المبدع، و"توحيدية" الخلق، كل هذه اعتبارات وإحساسات ضميرية روحانية فطرية ترسم للإنسان المعالم الكلية العامة لغائية الوجود الإنساني الاستخلافية الأخلاقية، وتُحمِّل الإنسان مسؤولية ما وُهِبَ من قدرة التصرف وحرية الخيار؛ التي يترتب عليها مسؤولية السعي والتسخير والإعمار الخيِّر على أسس أخلاقية تلتزم قيم العدل، وتهدف إلى الإصلاح، وتنأى عن نوازع الظلم والعدوان والإفساد.

من هنا فإن الوحي في تعبيره عن الفطرة وتأكيد مركزية قيم الروح والضمير والأخلاق وقدرة العلم والمعرفة بكل ما يتعلق بالحياة والكائنات وأسرار مكنوناتها ونواميسها الممكَّنة من رعايتها وتسخيرها لحاجات الإنسان، ومواهب إبداعه وإعماره للأرض، سواء بسواء؛ لتأكيد قيمة العمل والإتقان والإعمار، ودورهم في تحقيق قيم الاستخلاف ومقاصده التي هي جوهر معنى حياة الإنسان، وتحقيق ذاته، والوحي إنما يعبر بكل ذلك عما أودع الله الإنسان من الفطرة السوية، وما حباه من قدرات الاستخلاف والتصرف وحرية الخيار والقرار، وما يستتبع ذلك من

مسؤوليات هي في كلياتها في أشد الحاجة إلى ترشيد هـذا الاسـتخلاف، وتلـك الإرادة، لتكون على شاكلة الخلق وغائيته وأخلاقيته في توحيدية علاقاته وتكاملها وتناسقها وإبداعها، حتى يكون سعي الإنسان لتلبية حاجاته المادية والحياتية بالعمل الصالح وبالإتقان والإصلاح والإعمار لا بالكبر والطغيان والإفساد.

فالفطرة الإنسانية السوية وحقائق الوجود الإنساني تجعـل الـسعي الإنـساني الحضاري الإعماري الصالح في الحياة، بكل وسائله وصوره ومجالاته، من دون حصره في أي مجال أو آخر، من مجالات الأعمال الإعمارية الحياتية، التي هـي وسيلة الخليفة المكرم لتجسيد قيم الجمال والتسخير والإبداع الروحيـة الأخلاقيـة الإعمارية في عالم المادة، ولِـتـتَرقَّى الإنسانية بالمادة في عالم الروح من خلال تجسيدها للقيم والمقاصد الروحية الأخلاقية السامية السوية في سـعيها الإبـداعي الإعماري، في هذه الدنيا، لأن العواقب مرتبطة بخيرية المقاصد وعلمية الوسائل.

إن من المهم أن ندرك أن قصد الإعمار والإبداع والإصلاح إنما هـو مبـدأ وغاية فطرية سوية لا تنفصم عن الرؤية القـرآنية الحضارية لمشروع الوجـود الإنساني على الأرض، وأنه لا قيمة ولا معنى للوجود الإنساني في الأرض، ولن يحقق الإنسانُ ذاتَه من دون قصد السعي والعمل والإبداع، لتسخير عـالم الحيـاة للاستجابة لحاجات الإنسان الحياتية، ولكن على شاكلة إبـداع الكـون وغائيتـه، وأخلاقيته، وتوحيديته وتكامله، وذلك بالتزام قصد الخير والإصلاح والإعمار، وإن التزام قصد الإعمار والتسخير الخيِّـر، في الأرض؛ وتحقيـق غايـات الفطـرة الإنسانية السوية، إنما هو "تحقيق للذات الإنسانية"، وإن الجحود والكبر والـسعي بالظلم والفساد في الأرض هو هلاك وإلغاء وتدمير للـذات الإنـسانية، وانتهـاك لحرمة مقاصد إبداع نظام الكون والخلق.

إن المقصود من هداية الوحي وهداية الرؤية القرآنية الحضارية لسعي الإنسان في الحياة الدنيا، أن يكون سعي الإنسان على شاكلة نظـام الكـون فـي العطـاء والإبداع والتكامل والإصلاح، كما أن التزام العلمية السننية الشمولية، في التعامـل مع نظام الكون وتسخيره لمصلحة الإنسان، إنما هو تعبير عن الفطـرة الـسوية، وجعلها في بؤرة وعي الإرادة الإنسانية؛ لتكون ممارسات الاسـتخلاف وغايـات

الفطرة السوية ومقاصدها، بكل ما تجلبه للإنسان من متـــع الحيـــاة الطيبـــة فـــي الدارين، هي ذاتها غاية الخالق من الخلق، وموضع رضاه؛ لأن رضا الخالق فـــي حس الفطرة ومنطوق الرؤية القرآنية الكونية هو في "تحقيــق الـــذات الإنـــسانية" لفطرتها السوية كما خلقها الله، وبالوسائل الرشيدة ولـــيس فـــي "إنكـــار الـــذات" والوقوع، بوعي أو من دون وعي، في الدفاع عن الذات تجاه بوائـــق "مركزيـــة الذات" بالأنانية والطغيان، وبالعدوان والظلم والفساد.

وخلاصة الأمر هنا هو مركزية السعي والعمل من أجل تحقيق الذات الإنسانية، على أن يبقى ذلك مقروناً بقصد الخير والنفع، والتزام العلمية السننية التي هي أيضاً قضية مركزية في الرؤية القرآنية الكونية؛ لتحقيق معنى الوجود الإنساني، وتحقيق الذات الإنسانية، وتحقيق الرضا والحب الإلهي، الذي هو الوجه الآخر لتحقيق غايات الفطرة السليمة السامية الروحية للوجود الإنساني على الأرض، وحيث إن الحياة الروحية الأبدية الآخرة ليست إلا الوجه الآخر لنوعية الحياة الدنيا، ومحصلتها لا تنقطع ولا تنفصم، وهل هي سعي إنجاز ونفع وإعمار وإصلاح ونماء ومتعة ورضاً وطمأنينة وسلام، أم هي سعي جمع وجشع وطمع وأذى وإفساد وقلق وحيرة وضياع وندامة، (إن خيراً فخير، وإن شراً فشر) بـــ (ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر)، (وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) البقرة ٢٥، (وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) البقرة ١١٠، (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) البقرة ١١٢، (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) القصص ٨٣-٨٤

١٤- الجمال:حقيقة أم وهم ؟

استكمالاً لمفهوم الإصلاح والإعمار يتوجب الحديث عن قيمة الجمال في الرؤية الكونية القرآنية الحضارية، لأن قيمة الجمال قيمة كونية مبثوثة في إبداع الكون "المنظور" وإتقانه وأحاسيسه الفطرية، وهو أيضاً حاجة فطرية للنفس الإنسانية وتطلعاتها ومتعها في كل مجالات الحياة والوجود المادي والمعنوي.

وقيمة الجمال بقدر ما هي مبثوثة في الكون "المنظور" هي أيضاً مبثوثة في الوحي"المسطور" وفي تلافيف تعبيراته في وصف ما أبدع الخالق من الخلائق وما وهب الإنسان من النعم يمتع بها الإنسان أحاسيس سمعه وبصره؛ إتقاناً وتناسقاً وإبداعاً وصنعة وتسخيراً.

ولكن المؤسف أن طغيان خطاب "إلغاء الذات" على الخطاب الإسلامي ولآماد طويلة، أطفأ في نفس الإنسان المسلم خطاب "تحقيق الذات"، وبذلك أطفأ في نفسه تدريجياً حس متع جمال الإبداع، والإعمار والإتقان والتناغم والتكامل والتناسق، فلم يبق يتطلع في عزة وثقة إلى إبداع الجمالات وإتقاناتها، بل أصبح يتصارع بشأنها مع فطرته يسترق بعضاً من متع الجمال، ولكن بحس مثقل بأحاسيس الآثام والذنوب، وهذا يزيد من تبلد الضمير ويضعف في النفوس حس التفريق بين الخطأ والصواب، والترويح والمجون، بتأثير الصراع الوهمي بين دلالة "المسطور" وواقع "المنظور" في مواجهة قهر الاستجابة لحاجات الفطرة الإنسانية.

ومن المهم أن ندرك أن ضعف الجانب الفكري الذي أنتج الاجتزاء والحرفية وتجاهل عامل الزمان والمكان في واقع أمر الأمة في سالف أمر الأمة التي أثرت وحددت طريقة تطبيقاتها لمفاهيم الإسلام ومقاصده القرآنية لمواجهة ما واجهها من أحوال وظروف على ضوء إمكاناتها وتحدياتها، كل ذلك مكّن "السياسي" من توظيف "الفكري" لخدمة أهداف تسلطه واستبداده بأمر الأمة وإخضاعها للمصالح الخاصة، هذا التسلط والاستبداد والفساد الذي أخمد على مر الزمن جذوة روح الاستخلاف والإعمار بكل ما تحمل من قيم الجمال والإبداع والعطاء، جعل من الممكن توظيف واقع حال جيل العهد النبوي وضروراته في ظروف حروب الدفاع والمقاومة في مواجهة عدوانية قبائل العرب وتهديدات الإمبراطوريات الظالمة من حولهم في بلاد فارس وبلاد الروم واضطهاداتهم وعدوانيتهم، بما لم يسمح بإغماد

السيوف التي ارتوت من الدماء الزكية لجنود ذلك السلف، والذي رمل ويتم وهدم ولم يترك في حياة ذلك الجيل المجاهد متسعاً للترويح والإبـــداعات والإمتاعـــات الجمالية والإعمارية في واقع ذلـــك المجتمـــع، فكـــان ذلـــك مـــدخلاً وتوظيفـــاً لخصوصيات ذلك العهد لقمع الفطرة وخطاب الإخضاع وإنكار الذات، وهذا يعين على تمكين تسلط السلطة في الإرهاب والإخضاع والقهر السياسي.

وهكذا فات الإنسان المسلم إدراك الكثير من معاني الجمال وقيمه في نصوص من الرؤية القرآنية الحضارية والسنة النبوية التي عبرت عن الأبعاد الجمالية فـــي الوجود بأساليب وتعبيرات وصور وأوصاف بلاغية كثيرة متعددة فـــي وصـــف الكائنات وما تحمل من نعم الإبداع والتناسق والجمال في إمتاع الـــسمع والبـــصر والفؤاد.

إن متع الجمال وإبداعاته وتناسقاته في الخلق فطرة إنسانية، وطلبها هـــو مـــن صميم "تحقيق الذات" الفطرية القرآنية.

وفي المقابل يجب أن لا يفهم – بتأثير انحرافات الثقافة والممارسات والتقاليد، من هذا الإطلاق في أمر حاجة الجمال أو أي حاجة إنسانية أخـــرى - أن واقـــع الزمان والمكان، الذي قد يكون لأسباب كثيرة رديئاً لا يمثل الفطرة السوية، هـــو الذي يحدد وحده التطبيقات المناسبة ويرشِّدها في ضوء الإمكانات والتحديات، وهو الذي يرتب أولويات الفطرة السوية الراشدة في كيفيـــة التعامـــل مـــع الحاجـــات وإشباعها بالوسائل الصحيحة دون تفريط أو إفراط.

ولذلك؛ فعلى مفكري الأمة وقادتها دائماً حسن قـــراءة القـــرآن والنـــصوص التطبيقية النبوية بشمولية يدركون بها دلالات تعبيرات القرآن الكريم والسنة النبوية عن معاني الإبداع والتناسق والجمال في فطرة الأنفس والمجتمعات.

ومع كل ما خالط الرؤية الإسلامية من الغبش فيما يتعلق بفطرة حب الجمـــال في مختلف صور الوجود ومتعه وإبداعاته، نجد أن ومضات الرؤية الإسلامية في النفس المسلمة أنتجت في مختلف مجالات الإمتاع النفسي المسموعة والمرئية في ترتيل القرآن وفي الإنشاد وفي خطوط الحرف العربي وفـــي جمـــالات العمـــارة الإسلامية وزخرفتها.

من المهم أن نذكر أننا - برغم كل ما كان من تحديات عهد النبـــوة والعهـــد الراشد - نجد رسول الله (r) يوصي بترويح النفوس لأن النفوس؛ إذا "كلت" من العمل "ملت" حتى أننا نجده (r)، وقد أراد الأنصار الاحتفال بالعرس، وهم بعض الأصحاب بالاعتراض، يكفهم تقديراً لحاجة النفوس إلى شيء من الترويح واللهو بالاستمتاع بجمالات الغناء واللهو، بل نجده (r) يؤلف لهم نشيد غنــاء للمناســبة ينشده القوم على قرع الطبول فيه روح بهجة ومداعبة يقول فيه (أتيناكم أتينـــاكم، فحيونا نحييكم، ولولا الحبة السمراء، ما سمنت عذاريكم) المعجم الأوسط٣٢٦٥.

بل نجده (r) يصحب بنفسه زوجته أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها لتستمتع بجمال عروض الألعاب والرقصات الشعبية لفرقة الأحباش الذين أتوا إلى المدينة .

يجب أن لا نحرم العين لذة المشاهدة ولا الأذن لذة السماع ولا الخيـــال لـــذة التناسق والإبداع بسبب خطأ فهم نصوص يتعلق بالتصوير والنحت لمقاصد دينية شركية، أو نصوص تتعلق بالسماع في مجالس المجون والخلاعة والشراب، فهذه حالات من النظر والسماع ليست من باب متع الجمال، بل هي من باب الانحطاط والانحراف والإسراف والإفراط، وهي من الأمور المعنية في الدنيا بمتاع الغرور {لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ ، متَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} آل عمران١٩٦-١٩٧.

يقول الله سبحانه وتعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْـسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}التغابن٣ ، {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّـــهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}غافر٦٤، {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَـسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}الانفطار٦-٧.

{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِـــي ذَلِـــكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ}الروم٢٢، {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَـــلَ لَكُـــمُ

السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}السجدة٧-٩، {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ}الأعراف٣١.

ويقول الله سبحانه وتعالى:

{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}الأعراف٣٢-٣٣، {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}الإسراء٧٠، {كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ}طه٨١، {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً}النبأ١٤-١٥، {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ}ق٩، {وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ}الحجر١٩، {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}فاطر١٢، {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ}الرعد١٧، {وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}النحل٥-٨ ،{وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} فاطر٢٨، {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ}الأنعام١٤١، {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ}الرعد٤ ، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ}الزمر٢١، {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ}الحجر١٦، {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ}الصافات٦،

{أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ}ق٦، {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}الكهف٧، {صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ}البقرة١٣٨، {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}المؤمنون١٤، {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}هود٦١، {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}الأعراف١٤٢.

ويقول الله سبحانه وتعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ}المائدة٦ ،{إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}البقرة٢٢٢، {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}المدثر٤-٧، {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}الأعراف٣١، {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً}الفرقان٦٧، {وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}البقرة٣٦

ويقول الله سبحانه وتعالى:

{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} الشعراء١٩٣-١٩٥، {فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ} الجن١-٢ ، {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً}المزمل٤، {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} لقمان١٨-١٩ .

ويقول الله سبحانه وتعالى:

{ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ، يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}الزخرف٧٠-٧١، {عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَة، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ، لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ، وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا

يَتخَيَّرُونَ، ولَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ، وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ، جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}الواقعة١٥-٢٤، {أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ، فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ، يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ، بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ، لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ، وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ}الصافات٤١- ٤٩، {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ}البقرة١٤٨.

ويقول الله سبحانه وتعالى: {فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً}المعارج٥، {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}يوسف١٨، {وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} الحجر٨٥، {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً}المزمل١٠، {وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}البقرة٣٦.

ويقول الله سبحانه وتعالى: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}الأنعام٧٠، {لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}آل عمران١٩٦-١٩٧، {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}الحديد٢٠.

وعن عبد الله بن مسعود عن النبي (r) قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس) رواه مسلم٩١.

وعن أبي الدرداء أن رسول الله (r): (إنكم قادمون على إخوانكم فأحسنوا لباسكم وأصلحوا رحالكم حتى تكونوا كأنكم الشامة في الناس، إن الله لايحب الفحش والتفحش) الحديث رقم ٧٣٧١ مستدرك الحاكم. وعن أبي هريرة (الفطرة خمس، أو خمسة من الفطرة، الختان والاستحداد ونتف الإبط وتقليم الأظافر وقص الشارب) رواه البخاري. وعن أبي هريرة أن رسول (r) قال: (إن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) رواه أحمد. وعن أبي هريرة أن رسول (r) قال: (من كان له شعر فليكرمه) رواه أبو داوود. وعن عبد الرزاق في مصنفه

عن امرأة ابن أبي الصقر أنها كانت عند عائشة رضي الله عنها فسألتها امرأة فقالت: يا أم المؤمنين إن في وجهي شعرات أفأنتفهن أتزين بذلك لزوجي فقالت عائشة: أميطي عنك الأذى وتصنعي لزوجك كما تصنّعين للزيارة وإذا أمرك فلْتطيعيه، وإذا أقسم عليك فأبرّيه، ولا تأذني في بيته لمن يكره)[٦٧]
وعن أبي ذر قال: قال رسول الله (r): (إن أحسن ماغيرتم به الشيب الحناء والكتم) رواه النسائي[٦٨].

وهكذا نرى أنه ما كان طلب الجمال وإبداعه تحقيقاً فطرياً سوياً للذات فإنه متعة في الدنيا والآخرة ، أما إذا كان فحشاً وفجوراً فإنه وهْم ومتاع الغرور.

الرؤية القرآنية الكونية: الأساس والمنطلق والدافع للإصلاح والإعمار

لكي تستعيد الأمة رؤيتها القرآنية الكونية، علينا أن نضع في بؤرة وعينا معنى سالف تاريخ الأمة الإسلامية على العهد النبوي والراشد، والغاية منه، وما كان من أثرٍ للرؤية القرآنية الحضارية التي تلبست تلك الحقبة الوضَّاءة بها، وما تركته تلك الرؤية وتركه ذلك العهد، على مدى الزمان، من آثار رائعة في مسيرة الأمة الإسلامية، وفي نفيس تراثها، وأثر ذلك في تاريخ الحضارة الإنسانية، وإعدادها لمرحلة العلمية والعالمية.

كذلك علينا في ذات الوقت أن ندرك في ضوء الرؤية القرآنية الكونية حقيقة معنى وجوهر حضارة الإنسان الغربي المعاصر المادية، هذه الحضارة التي تخلت عن الأديان وهداية الوحي لأسباب تتعلق بما آل إليه تاريخها وتراثها الديني بعد أن استنفدت الرسالة التي اتبعوها مهمتها الخاصة بالقوم الذين وُجِّهَتْ إليهم تاريخياً، والتي ناسبت الظرف والمرحلة الحضارية التي نزلت من أجلها، وكيف أن تلك الأديان – في ضوء انتقال الإنسانية إلى مرحلة علمية عالمية جديدة، وبسبب ما أصاب تلك الأديان أيضاً من تحريفات – قد حولتها إلى طقوس أقرب إلى الطقوس الخرافية، كل ذلك أضعف في أمم الغرب أثر تلك الديانات، ودفع بعامة جمهور أمم الغرب إلى تهميش تلك الديانات، كما دفعهم إلى التوجه المادي الذي صبغ حضارة الغرب المعاصرة بكلِّ ما للمادة الخالية من الروح من صفات

وسلوك وأخلاقيات، والتي هي – في جوهرها - أخلاقيات الغاب، في عنـــصرية النوع والسلالة، وغلبة نزعات الافتراس، وغلبة الأقوياء وتسلطهم، وغياب الوعي بالوازع الأخلاقي الاجتماعي في العلاقات والسلوك، مثلهم في ذلك مثل الحيـــوان الذي هو مادة طينية لـــه حياة ولكن ليست لـــه روح.

على ضوء الرؤية الكونية الروحية في الإخاء والعدل، وعلى ضـــوء الرؤيـــة الكونية المادية في العنصرية والتظالم والعدوان، نستطيع أن نلمس صفات كائنات الغاب في سمات حضارة العصر وتوجهاتها المادية، برغم الجعجعات المثالية التي تلبس بها واجهات السلوك والسياسات والعلاقات الإنسانية، في مجتمعـــات هـــذه الحضارة ونظم دولها، والتي هي في حقيقتها دليل وتجسيم لمدى الانحراف عـــن المثال الروحي المفقود، أكثر منها في جملتها، بتأثير الفطرة السوية فـــي أعمـــاق ضمير الإنسان، طلبًا واقترابًا حقيقيًا منه؛ وهذا ما يجعـــل مجمـــل مفـــاهيم هـــذه الحضارة وسلوك دولها العملي الغالب تجسيداً لسلوك الغاب في ازدواجية السلوك والسياسات، الذي يعاني منه العالم اليوم في اضطراد عكسي، نحو القوم والقومية والتعالي العنصري والمصالح الأنانية الذاتية من جهة، ومن جهـــة أخـــرى نحـــو الازدراء العنصري والعدوانية والاستغلال، نحو الأجنبي المختلف المغاير، وهـــذا يجعل ما تطلقه هذه الدول وأبواقها الإعلامية من معسول القول وشنشنة المثاليات إنما هو من باب حيل المفترس وألاعيب السياسات المكيافلية.

وهكذا فإن ما نراه من سمات حضارة العصر وعلاقاته إنما هو في الحقيقة تجسيد لقانون الغاب، و"نوازع النفس الأمارة بالسوء"؛ لأن "القومية" و"المواطنة" في ضمير هذه الدول والمجتمعات إنما هي من قبيل تكاتف العنصر والسلالة في الغاب، والذي بتفاقم تكلُّـــس كيانات تلك المجتمعات تأخذ هذه المجتمعات في التضعضع والانهيار؛ لأن "سياسات القوة" هي من باب نزعة الصراع والتظالم بين الأنواع والسلالات في الغاب؛ حيث يسود قانون "الحق للقوة"، ويكون من حق القويِّ أن يفترسَ الضعيفَ، ولا مجال في علاقات قانون الغاب لقصد الحق والعدل أو الإنصاف في التعامل مع الإنسان الآخر، ولا اعتبار لتوخي الأخلاقيات، إذا تعارضت مع ما يمكن أن تناله اليد، ويفرضه الأمر الواقع من المكاسب

والمصالح، في السلوك والعلاقات، فليس للأخلاقيات ولا للحقوق في عالم الغاب معنى ولا موضع، ولا يمكن لمثل هذه الحضارة بتظالمها وعدوانيتها وتحلل مجتمعاتها وإسرافها أن تدوم؛ لأنها بصراعاتها "كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله" {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ}الأنبياء ١٠٥ – ١٠٦، {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}النمل٦٩، {أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ}غافر٢١، {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ}البقرة٢٠٥، {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}البقرة٢٥١.

أما الروحية الضميرية للنفس اللوامة التي هي جوهر الرسالات السماوية، والتي يعبر عنها القرآن الكريم - الذي تكفل الله بحفظه فلم يمسه التحريف - أحسنَ التعبير؛ لأن الرسالات السماوية المنزلة هي على عكس نوازع المادية أو الطينية الحيوانية المنحطة في التزام الأخلاقية وقيم الحقِّ والعدل في العلاقات والمعاملات[أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً] الإسراء: ٦١، [أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ] الأعراف: ١٢، [أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء] البقرة: ٣٠، فالروحية هي النقيض للمادية في أنها التزام وتعبير عن العدل والتسامح، والغائية الأخلاقية، [وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ] النساء: ١٣٥، [وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى] المائدة: ١٠٦، [وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى] المائدة: ٨، [لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِم] الممتحنة: ٨، [وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ] المائدة:٢، [إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ]الحجرات: ١٣، {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}يونس١٤، {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْمُفْسِدِينَ}القصص٧٧، {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}ص٢٨، {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}العنكبوت ٦٩

وبرغم ما حققته حضارة العصر المادية بسبب التزامها المنهج العلمي السنني المادي، الذي هو أحد مؤهلات الاستخلاف، والذي يفسر ما توصلت إليه من إبداعات التسخير المادي؛ وذلك برغم حرمانها من هداية الوحي وترشيد غاياتها، فإن ما يكمن في الفطرة الإنسانية من نوازع الإنسان المعاصر الطينية الحيوانية وحضارته المادية (هوى النفس الأمارة) في أشد الحاجة إلى روحانية الفطرة الإنسانية السوية الضميرية المتمثلة بـ (النفس اللوامة)، التي هي المؤهل الثاني، إلى جانب العلم والمعرفة السننية، لخلافة الإنسان المرشدة بالرسالات الربانية؛ لمواجهة ما يعاني منه إنسان هذه الحضارة من أمراض وآفات روحية واجتماعية خطيرة تعرض هذا الإنسان وعالمه وحضارته لأشد أنواع المخاطر والمهالك، ولتحبيب عن الأسئلة الأساسية الكلية الوجودية التي يقف الإنسان الغربي المعاصر الحائر (agnostic)عاجزاً عن الإجابة عنها في حدود منطقه وسقفه المعرفي، وفي حدود أدبياته الدينية الشكلية الخرافية، والتي تتعلق بكليات الكون والوجود الإنساني: بدءاً وغايةً ومصيراً، والتي أخذت آفاتها تتفاقم، ومؤشراتها تتوالى.

إن الإسلام إذا حسن فهمه، وأحسن خطابه، وتمت تنقية رؤيته القرآنية الكونية الحضارية من التشوهات، وتمت تنقية منهج فكره ومفاهيمه من الانحرافات والخرافات، وحسنت أساليب تربية ناشئته، سيجد الإنسان المادي المعاصر فيه، ولا شكَّ، الخلاصَ من الصراعات والمظالم والمخاطر التي تهدد وجوده، وسيجد فيه الهداية والرشد الذي تتطلع إليه أشواقه الروحانية وفطرته السوية؛ ليبدل الإنسانية من بعد خوفها أمنًا وطمأنينةً نفسيةً ورفاهًا وعدلاً معاشاً.

وهذه المهمة الإصلاحية هي مهمة المفكرين والإصلاحيين الإسلاميين إذا ما تحلوا بالموضوعية والصبر والشجاعة التي يتغلبون بها على كوابح الثقافة وتخلف الفكر وجموده، وصدأ الأنظمة، وتكلُّس الحضارة.

الرؤية الكونية الحضارية والمفاهيم الإنسانية الأخلاقية:

لا تخطئ الأذن ثروة الإسلام من المفاهيم الإنسانية الأخلاقية في القرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية وسيرة الأصحاب، وفي نفائس تراثِ الأمة، وفي الأدبيات الإسلامية المعاصرة، ولكن العين لا تخطئ أيضاً خلو واقع الحياة والعلاقات في المجتمعات الإسلامية المعاصرة من آثار الكثير من هذه المفاهيم، لما يسيطر على فكر الأمة من التقوقع في تقاليد وممارسات وتطبيقات تاريخية، إلى جانب ما يسيطر على وجدان الإنسان المسلم المعاصر من سلبية ولا مبالاة، عمقت الهوَّة بين مفاهيم الأمة، وواقع حياتها وعلاقاتها؛ لتصبح أمة ممزقة متخلفة مهمشة خارج نطاق حركة التاريخ الإنساني المعاصر.

ومن الواضح أن القيم والمفاهيم هي أدوات تفعيل الرؤية الكونية الحضارية لأية أمة، فإذا تشوَّهت تلك الرؤية، فإن ذلك يشل فاعلية تلك القيم والمفاهيم؛ وذلك لافتقاد الأمة وأفرداها للمحرك وللقصد والهدف الذي تولده الرؤية الكلية الكونية للأمم، وتدفعها إلى تلبُّس تلك القيم والمفاهيم، واستلهامها والتزامها في علاقاتها ومعاملاتها، مثلها في ذلك مثل أجزاء الآلة المفككة، فعلى الرغم من نفاسة تلك الأجزاء، لا تفيد في شيء ما لم توضع في إطار كليتها، لتصبح أجزاءً في كلٍّ فاعلٍ، والعكس بالعكس، فإذا كان هناك تصور نظري لآلة من الآلات، لكنه لا يتجسم في كيان وبناء ماديٍّ ملموسٍ هو أجزاء تلك الآلة التي تجعل التصور النظري حقيقة فاعلة، من دون تلك الأجزاء فإنه لا وجود لتلك الآلة، ولا لذلك التصور ولا لتلك الرسوم النظرية العبثية.

ومن هنا فإن رصد هذه القيم والمبادئ والمفاهيم وعلاقتها بالرؤية الكونية الحضارية للأمة، وغرسها تربويًا في وجدان أفراد الأمة، وتجسيدها في مؤسسات متفاعلة متكاملة؛ لتصنع أمة حية إيجابية فاعلة، هي أمور متلازمة لابد من توافرها وتكاملها لبناء الأمم الحضارية صانعة الحضارة والتاريخ.

ولذلك فإنه لا يكفي ما نتغنى به، ليل نهار، من مبادئ وقيم ومفاهيم، إذا لم نستعد الرؤية القرآنية الكلية الحضارية، وإذا لم نُزِلْ عنها ما ألـمَّ بها من تشوه وغبش، وإذا لم نصلح، في ضوء ذلك، ما تشوه من مناهجنا الفكرية والتربوية

والتعليمية؛ لنرسي الصفات الإسلامية الأساسية الفعّالة في أصل الوجدان والشخصية المسلمة، وإذا لم نعد بناء المؤسسات الاجتماعية التي تجسد تلك الرؤية وتلك القيم والمفاهيم، وتحميها وتحرسها، حقيقةً حيةً نابضةً في واقع حياة الأمة وعلاقاتها الإنسانية.

من دون هذا الوضوح وهذا التكامل في الرؤية والبناء والتزام المنهج الإسلامي العلمي السنني الشمولي الذي يقوم على تكامل مصادر المعرفة الإسلامية في الوحي والفطرة والسنن والواقع، والتزام ميزان العقل العلمي السنني الموضوعي فإنه لا فائدة ولا جدوى من الجهود المجزأة العشوائية التي لا تدرك طبيعة المنظومة الإسلامية الحضارية، ولا القوانين التي تحكم تفاعلها مع بيئتها، وتمثّل مدخلاتها، والذي كان ذلك الجهل والغفلة العلمية الفكرية من أهم سباب فشل جهود الإصلاحيين في إحياء الأمة واستنهاضها برغم تعدد تلك المحاولات ومضي القرون، والحال لا يزال هو الحال.

لابد من بناء مراكز البحث العلمي وتضافر جهود المفكرين والدارسين؛ لطرح الرؤية المتكاملة أمام الأمة بخطاب علمي مقنع، يوضح التصور، ويرسم خطة إصلاح الواقع؛ ليبعث الثقة في الحاضر، ويجدد الأمل في المستقبل، ويضع الأمة ومفكريها ومصلحيها ومثقفيها و(كوادرها)، بدءًا بالوالدين والمربين والأكاديميين، أمام مسؤولياتهم وأداء أدوارهم؛ ليحقق الإنسان المسلم و(الكوادر) المسلمة والأمة المسلمة ذواتهم، ويؤدوا رسالتهم ويحملوا تبعات أمانة خيارهم، تلبية لنوازع فطرتهم السوية، وحاجاتهم المعاشية، وإبداعاتهم الحضارية الإعمارية، والاستجابة لأشواقهم الفطرية الروحانية الكامنة في قرار ضمائرهم الإنسانية.

مما سبق يتضح لنا أن الرؤية الحضارية الكونية القرآنية هي رؤية حقيقية تعبر عن واقع الوجود والحياة في السنن الكونية والفطرة الإنسانية، وترشّدها، وأن الرؤية الحضارية الكونية القرآنية عن الكون والحياة تنطلق من مفهوم توحيد الذات الإلهية المطلق، ومن مبدأ التوحيد تنطلق الرؤية القرآنية إلى مبدأ التوحُّد والتكامل في فهم علاقات الكون والحياة؛ حيث الإخاء فطرة إنسانية، والغائية

والأخلاقية والإعمار مسؤولية سلوكية اجتماعية إنسانية، وأن بناء الكون والحياة والإنسان وحدةٌ في تنوّع متكامل، وتنوّعٌ متكامل في وحدة.

كذلك يتضح لنا مما سبق أنه من دون وضوح الرؤية الحضارية الكونية لأي جماعة إنسانية، لا يمكن لتلك الجماعة أن تبني وتطور ثقافةً أو حضارة حية فاعلة، لأنها ستكون كما يروي لنا التاريخ عن الأمم البائدة التي تكلست وأفلست، أنها كانت جماعات قد تشوّه فكرها وتشوهت رؤاها الحضارية، ومن ثم أصبحت فاقدةً للرؤية والهدف والغاية، مشوّهة الوسائل والأدوات، وبذلك فسد بناؤها الاجتماعي وتحولت إلى أمم فاقدة للدافعية الحضارية الإعمارية، وأصبحت تعيش في نير مفاسد صفوات طفيلية لتصبح أمة مهمشة، لا تفكر ولا تسعى ولا تقدر على الأداء والعطاء؟ وأصبح جلُّ جماهير شعوبها في الحقيقة الواقعية جماهير مسحوقة، وجل هم سادتها ومترفيها من الفراعنة (أصحاب السلطة والمال والنفوذ) ومن الكهان (المثقفين من حملة الأقلام وأرباب الخطاب والآداب) البذخ والترف والاستهلاك، كالسائمة "تعيش لتأكل" بَلْ هُمْ أَضَلّ، حتى يقضي الموت الجسدي على أفرادها، والإفلاس والموت الحضاري على كيانها الاجتماعي ما لم تفق من سباتها وتتغلب على الآفات في كيانها وتبدأ مجدداً مسيرة حضارتها الروحية البناءة {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ* إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} الفجر ١١ـ ١٤، {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً}الفتح٢٣.

إن الرؤية الحضارية الكونية الإعمارية، القائمة على أساس الخيرية الروحية والموضوعية العلمية السننية، هي الأساس والقاعدة والمنطلق والشرط اللازم لأية أمة، ولأية جماعة إنسانية حضارية، لكي تستطيع أن تحقق القدرة والأداء الإصلاحي الإعماري الأخلاقي الخيِّر، في سباق الحضارات وتدافع الأمم، ذلك أن الرؤية الكونية تمثل الغاية والدافع والمحرك الذي من دونه لا قيمة ولا وزن لأية آليات أو أدوات أو وسائل تستحوذ عليها أية أمة متكلِّسة مهترئة متخلفة "غنيمة" و(نهيبة) حضارية باردة لا حياة فيها؛ لأن الآليات والأدوات ليست إلا وسائل لتحقيق رؤية وغاية وقصد، فإذا انتفت الرؤية والغاية والقصد والدافع

الإعماري، لم تعد للوسائل والأدوات والآليات، مهما تكدست جدوى ولا نفع، لأنه لن يستخدم الأداة إلا من كانت لـــه رؤية تجعل لـــه غاية أو قصداً، وعندها تكون الأداة وسيلة لتحقيق تلك الغاية والحصول عليها، وفي مثل هذه الحالة يكون فكـــر الأمة وهمها متمحوراً حول: كيف نفعل؟ وكيف نصنع؟ وكيـــف نحقـــق؟ وكيـــف نرقى؟ وكيف نبدع؟ وكيف نسبق إلى الخير والصلاح والإعمار؟ وعندها ســـوف تبدع الأمة أدواتها ووسائلها، وتنميها وتطورها وتستخدمها، ولا يعود حتى القليـــل منها مهملاً مهجوراً، على ما هو عليه حال الأمة اليوم، مقارناً بسواها من الأمـــم ذات الدافعية الهادفة.

ماوراء الرؤية: حتى لا نحرث في البحر

علمنا ما صنعت الرؤية الحضارية الكونية القرآنية بجيـــل الأصـــحاب، ومـــا حققوه من أمثلة وإنجاز حضاري كان لمنطلقاته القرآنية أعظم الأثر فـــي تجديـــد الحضارة الإنسانية، وارتقاء أداء العقل السنني والأخلاقـــي إلـــى آفـــاق علميـــة وإنسانية سامية واسعة، بدأ بها عهد جديد من التعامل مع الـــسنن الكونيـــة؛ فـــي التسخير والإبداع المادي، وفي الوعي بوجوب التزام القـــيم والغايـــات الروحيـــة والأخلاقية في تسخير تلك السنن الكونية، وفي ترشيد مسيرة الإنسان الحضارية.

كذلك علمنا أن العزوف عن العودة إلى القرآن الكريم لاستلهام الرؤية الكونية الإسلامية الحضارية يفسر أسباب ما أصاب رؤية الأمة الحضارية من غبش بفعل بدائية رؤية الأعراب، وما لحقهـــا مـــن موروثـــات الإســـرائيليات والخرافيـــات والأسطوريات والوثنيات والتوهُّـــمات الفلسفية وشعوبيات الأمم التـــي انـــضوت تحت لواء الأمة الإسلامية؛ ولم يكن لهذا بدٌّ من أن ينتهي إلى تراجع أداء الأمـــة الإسلامية، وجمود فكرها، واستبداد نظمها، وخواء مؤسساتها، وتفشي مظالمهـــا، وفساد نسيج علاقاتها وتكلُّـــسه، ولينهار بعـــدها الـــسلطان والعمـــران، ولتـــدك الحصون، وتذل الرقاب، وتهمش الأمة، وتنتهك الحرمات.

وإذا كان المطلوب هو استعادة عافية الأمـــة، واســـترداد رؤيتهـــا وغائيتهـــا وأخلاقيتها ودافعيتها، فإنه لا بد من البدء بمراجعة تراث الأمة ومسيرتها برؤيـــة

بصيرة ناقدة، تميز الصالح من الطالح، والجيد من الرديء، بـإخلاص وعلمية موضوعية، وبشجاعة لا ترهبها كوابح "ثقافية" و"كهانات" "نقابية"، ولا تنال من عزيمتها الجهالات والترهيبات والغوغائيات والعمالات، فإذا أخذت الرؤية العلمية الموضوعية موضعها في تخلية الساحة الفكرية والتربوية والاجتماعية من الأمراض والتشوهات، جاء دور البذر برؤية كونية علمية عالمية موضوعية اجتماعية حضارية تعتمد المرجعية القرآنية، وتستلهم حكمة السيرة والتنزيل النبوية؛ لإزالة الجمود الفكري والتكلُّس الاجتماعي، لاستعادة الدافعية، وإعادة بناء المناهج والمفاهيم العلمية والتعليمية والتربوية التي تغرس وتجذِّر الرؤية الحضارية الكونية القرآنية، في حبّ الله، وحب المعرفة، وحبّ الإتقان وإدراك مفهوم الاستخلاف وأخلاقيته وغائيته، في أساس كيان الطفولة المسلمة، وفي أعماق رؤيتهم الكونية، وضميرهم الإنساني، وغاياتهم الحياتية، ولتروِّيها بخطاب العلم والمعرفة والعقل، وكفاءة الأداء والعمل والإتقان، بالأساليب التربوية السليمة، بالحب والتشجيع والالتزام وتعود النظام ، وعلى أساسٍ من طاقة الإيمان والاقتناع، وأخلاقية المسؤولية الاستخلافية والكرامة الإنسانية.

كيف ينشَّأ الطفل برؤية حضارية كونية قرآنية؟ كيف يُبْنَى الخطاب الإيماني التربوي العلمي الإسلامي الذي يزهر الفطرة الإنسانية التوحيدية الأخلاقية الخيِّرة، المحبة لله، والتي تحقق الذات الفطرية الخيِّرة الإعمارية، ولا يلغيها ولا يدفعها بالترهيب والفوقية إلى أن تصبح ذاتاً سلبية أنانية فردية مركزية؟.

كيف نستلهم المثال النبوي ليستبطن الطفل خلقه ومثاله وحكمته؟ كيف نرى القرآن ورسالة الإسلام تسري في ثنايا نظام الأمة وسيرتها في الزمان والمكان حضارة خير وعدل وسلام تمشي على الأرض؟ وكيف نرى آثار هذه الحضارة في الزمان والمكان في واقع حياة بناء الأمة، وفي علاقاتها الإنسانية؟ وكيف لا نظل نرى "السيرة العطرة" مجرد غزوات وحملات عسكرية وتدابير سرايا قتالية، فتكون بذلك مناهج التربية والتعليم معبرة بصدق عن رؤية الأصحاب القرآنية النبوية؟ وكيف حقق الأصحاب بهذه الرؤية ذاتهم في سرائهم وضرائهم، وفي متعهم، وفي بذلهم وجهاداتهم، وفي استشهادهم وتضحياتهم، بناءً للحياة، ودفاعاً

عن الأمة والأهل والدين، ودفاعاً عن الحقوق والأعراض والكرامات، مــن دون شائبة من نزوات العدوان ومظالم الأطماع والشهوات الحيوانية؟.

"العلم والمعرفة" هما بالدرجة الأولى صناعة المفكرين والعلماء والأكــاديميين والمثقفين، وصناعة المدارس والمعلمين، أما التربية والتهذيب (الروح والــضمير والسلوك السوي) فهما بالدرجة الأولى مهمة الوالدين والتربويين، وإن كان هذا لا ينفي الأدوار المساعدة التربوية للمعلم والمدرس، ولا الأدوار التعليمية المــساعدة للأسرة والآباء، كما أن ذلك لا ينفي أثر الإعلام والبيئــة الاجتماعيــة فــي هــذا المجال، ولكن يجب ألا نخلــط الأدوار، ونهمــل أو نتجاهــل الأصــول ومنــاط المسؤوليات، بما يخل بأداء المنظومة العلمية والتعليمية، أو بالمنظومة التربوية.

ومع عظيم تقديرنا للدور التربوي للإعلام وتأثيره، إلا أن الإعلام يبقــى فــي أغلبه، في الوقت الحاضر، مؤسسات رسمية وتجارية تتأثر بمصالح وقوى لــيس للآباء كبير تأثير مباشر فيها، بل لعل الكثير منها يعمل على عكس ما يهدف إليــه الآباء من غايات تربوية، ولذلك فإننا نؤكد دائماً على أهمية دور الأسرة التربوي وقدرتها على مواجهة أثر الإعلام السلبي إذا أَحسنت أداء دورها التربوي، فكثيراً ما يكون رد فعل الطفل الذي أُحسنتْ تربيته مقاوماً لما قد يتعــرض لــــه مــن الإعلام السيِّئ؛ فيستهجن الوسائل السلبية السيئة، على عكس الطفل الذي لم تُحسَن تربيتُه.

فعلى سبيل المثال فإن الطفل سيِّئ التربية إذا شاهد أسلوباً مبتكراً للقيام بجريمة من الجرائم، كالسطو مثلاً، فقد يعده فرصةً سانحةً للقيام بمثل تلك الجريمة، لا لأن الأداة أو الأسلوب قد دفعه إلى ذلك، بل لأنه لسوء تربيته كان يتطلع إلى فعل مثل تلك الجريمة، فسهَّلت تلك الأداة أو ذلك الأسلوب مهمته، ولكنها بالتأكيد لم تخلــق الدافع في نفسه.

أما الطفل الذي أُحسِنَتْ تربيتُه فإنه عادةً لا يلقي للأمر بالاً؛ لأنه لم يكن أصلاً يتطلع إلى الجريمة أو العدوان، هذا إذا لم يدفعه الموقــف الــذي شــاهده إلــى استهجانه، ولكنه قد يفيد مما رأى في يوم ما بشكل إيجابي في موقف آخر تــدعو

الحاجة فيه إلى استخدام مثل تلك الأداة أو طريقة التصرف لأداء أفضل، أو للخروج من مأزقٍ من المآزق.

وبالطبع فإن كثرة تعرض الطفل أياً كان للبرامج والفضائيات والإعلام التجاري والمغرض والمفسد والمريض سيترك آثاره السلبية على عقلية الطفل ونفسيته ووجدانه؛ وذلك بسبب غياب دور الأسرة والآباء وتقصيرهم بالدرجة الأولى.

ولذلك؛ فإنه يجب ألا تقف الأسرة مكتوفة الأيدي، وتلقي عبء اللوم على الإعلام في تقصيرها عن أداء واجبها التربوي؛ لأن الأسرة، والأم قبل سواها، هي التي ترسي البنية الأساسية لعقلية الطفل، وتوجِّه وجدانه، وهما معاً يشكلان المنظار الذي يرى بهما الطفل في حياته ومستقبل أدائه أسلوبَه في رؤية الأحداث وفهمها وترجمتها إلى مفاهيم وقيمٍ تحكم مجمل تصرفاته وعلاقاته الإنسانية.

لذلك فإن من المهم أن نؤكد، وأن ندرك، أنه في مجال الطاقة والدافعية والرؤية الحضارية الإعمارية يأتي دور الأسرة التربوي أولاً؛ وذلك من خلال وعيها الحضاري، ومفاهيمها التربوية التي تغرس الطاقة الوجدانية الدافعية في أساس رؤية الطفل الكونية، وفي أساس تكوين وجدانه وضميره الإنساني الحضاري، وهذا يعني أن على المفكرين والتربويين والإصلاحيين العناية أشد العناية بالاتجاهات والأدبيات والمؤسسات التي تعنى بأبحاث التربية العلمية الحضارية الوالدية وأدبياتها، وإيصالها إليهم بالوسائل والطرق المتاحة كافة، خاصة في عهد الإلكترونيات التي يصعب منعها والتحكم فيها في عالم اليوم.

أما مؤسسة التعليم وأداء المدرسة في مفهوم متأخر تراث الأمة وممارسات فكرها المعرفي ورؤيتها الكونية المشوهة؛ فالعلم والمعرفة والحياة إنما هي عجز وسلبية وسلطوية وكلام ومكرورات لا تستدعي عملاً ولا فكراً ولا مبادرة، ولا نقداً ولا تحليلاً ولا إتقاناً ولا تطويراً أو إبداعاً يؤهل الناشئة لريادة دروب الحياة المتطورة في أحوالها وإمكاناتها وتحدياتها؛ تنظيماً وتسخيراً وإصلاحاً وإعماراً.

المؤسسة التعليمية ودور المدرسة في بلداننا – في جُلِّــه وجوهره - طفل يقبع على الأرض أو على كرسي يُملى عليه القول، يخاطبه به "السيد" المعلم، ويــردده "الجهال" من الطلاب والتلاميذ؛ " فهو علم ودرس كله "قول" من المعلم، و"قــول" يردده المتعلِّــم مستظهَراً إلى أذن المعلم، "هو يقول" و"أنا أقول" أي أنه "قول" في "قول" "وكلام في كلام" على شاكلة ساستنا وقادتنا، أو لعل ساستنا وقادتنــا علــى شاكلة معلمينا وتلامذتنا، أي أن التعليم والحياة عندنا "كلام" و "هذر" و "حكي فــي حكي" و "طق حنك" و "تسلية" مجالس" و "عنتريات منابر" فليس في واقعنا كما في مدارسنا ما يستدعي العمل والبحث ولا الممارسة ولا الحركة ولا السعي، وعلــى مدى ستة عشر عاماً هي مرحلة تأسيس البناء والنماء النفسي والوجداني والعلمي للناشئة من أبناء الأمة!!، "ومن شبَّ على شيءٍ شاب عليه".

أما التعليم عند الأمم العاملة المنتجة الناهضة المبدعة فهو فعل وعمل وحركة وممارسة في المعامل والمختبرات، وفي المكتبات، وفي الــساحات والمباريــات، وفي الــرحلات والاستكــشافات، وفــي النمــاذج والمعروضــات والوثائقيــات والمصورات والمناقشات.

فالتعليم اليوم عند الآخر، ومنذ أمد طويل، هو فكر وحركــة وعمــل، أي أن الحياة لديهم "عمل" و "إعمار" و "إبداع" والتعليم عندنا، ومنذ أمدٍ طويلٍ، هو كــلام وترديد وألفاظ هامدة جامدة، والكثير منها جعجعات لفظية إنشائية خطابية؛ يرددها "السادة القُوَّاد" على آذان "قطعان العامة"، والرؤساء الآمرون (صغارُ الفراعنــة) على آذان المرؤوسين المنافقين المروَّضين المسحوقين، وأشباه الجهلة علــى آذان المتعلمين "البائسين المضطهدين" "المجهّلين"، مع الاعتذار خاصة للمعلمين الــذين هم أنفسهم ضحايا نظام التعليم في بلدان الأمــة الإســلامية، إعــداداً وإهمــالاً، واضطهاداً مهنياً ومعيشياً واجتماعياً، فهي حال تغرس في أعماق أبنــاء الأمــة، والأمة من ورائهم، أن الحياة إنما هي ألفاظ ودعاوى وجعجعات، وهذا يؤصل في عقل الأمة عميقاً روح العجز والتخلف والسلبية؛ لذلك لا عجب أن يصبح مفهــوم الحياة عند أمتنا "كلاماً في كلام"، و"أحلاماً في أحلام"، و"أمنيــاتٍ فــي أمنيــات"، و"شجباً" و"احتجاجاتٍ"، و"ادعاءاتٍ" لا حاجة منها إلى فعل أو برهان، أما الحيــاة

لدى الآخر فهي عملٌ وبحثٌ وتنقيبٌ وتطويرٌ وتسخيرٌ وإتقانٌ وإبداعٌ. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} (الصف ٢-٣)، وهكذا يصبح الإنسان لديهم طاقةً وقوةً وثروةً، ويصبح لدينا بطالةً وفقراً وحاجةً وعبئاً.

وإذا كان إصلاح المناهج التعليمية، وإعادة بناء المعلمين علمياً وتربوياً، هو وظيفة المفكرين والتربويين، فإن تَحَقُّقَ الإصلاح التعليمي والتربوي هو وظيفة الإصلاحيين، ووظيفة الآباء ووظيفة الأمة؛ فهي تحركهم لدفع الدولة وإمكاناتها لتعيد تأهيل مؤسسة التعليم، وجعل ذلك أولوية مصيرية، إلى أن يتمّ إصلاح خلل هذه المؤسسة المهمة، ووضع حدٍّ لقصورها، وليصبح التعليم على وجه الحقيقة لأجيالنا القادمة علماً وعملاً وإبداعاً وإعماراً وإتقاناً، ولكن برؤية قرآنية كونية تتوخى العدل والإتقان والإعمار والأمن والسلام.

فإذا كان المفكرون والإصلاحيون والمثقفون جادين "للحرث في البر" لا "للحرث في البحر"، لإقالة الأمة من عثرتها واستعادة طاقتها ودافعيتها الاستخلافية الحضارية الإعمارية، فعليهم العمل في صبر ومثابرة، من أجل إصلاح الثقافة وتنقيتها وتجديدها، برغم كوابحها، وإصلاح "مناهج التربية" وإصلاح "مناهج التعليم"، واستعادة بناء رؤيتها الكونية الحضارية القرآنية التي تحقق الذات الفطرية الروحية السوية، وتبني الدافعية الأخلاقية، والاستخلافية العلمية السننية الخيرية الإعمارية؛ حتى ينشأ الجيل الحضاري الذي يعيد صياغة الفكر، ويعيد بناء العلاقات السياسية والاجتماعية؛ لتستعيد الأمة دافعيتها وحرية حركتها، على أساس القدرة والكفاءة والمسؤولية.

إذا صلح "الفكر" وصلحت "التربية" وصلح "التعليم" برؤية حضارية كونية قرآنية، صلحت الأمة المسلمة، وصلح أفرادها، وصلح نظامها الاجتماعي وصلحت مؤسساتها، وصلحت معها الحضارة الإنسانية.

يوم نُعنى بالفكر و"بالعلم" وبالجامعة، وبالمعمل وبالمدرسة، وبالأسرة و"التربية" الوالدية، ويوم نُغني أحياء مدننا وقرانا بالمكتبات، ونغني لغاتنا وثقافاتنا بالترجمات العلمية، ويوم نغني مؤسساتنا بالكفاءات، ومصانعنا بالقدرات، بعد أن نكون قد

أزلنا ما علق بفكرنا من جمود، وعلاقاتنا وحراك مجتمعنا من تكلُّسات أفقدت الأمة قدرات الأداء والإبداع، ويوم تكون الأسرة والمدرسة والمعمل والمصنع موضع العناية والاهتمام، أي يوم يكون الإنسان في أراضينا موضع العناية والبناء والتكريم، يومها فقط نعلم أننا تلبسنا الرؤية الاستخلافية القرآنية الإعمارية، ويومها فقط نعلم أن المفكرين والقادة الإصلاحيين والمربين والمثقفين والأكاديميين والمعلمين والآباء، قد أدوا أدوارهم، وأتقنوها، وأن عجلة حضارة الإسلام قد عادت إلى قلب الحياة النابض، ويومها يعز المسلم، وتعز الأمة، ويرشد الإنسان، وترشد الحضارة، وترتفع راية الشورى والعدل والإخاء والسلام، وتنقشع ظلمات التخلف ومظالم الاستبداد وتكلُّسات الفساد.

ويومها أيضاً إذا احتاجت الأمة – في أي صقع من أصقاعها - إلى مزيد من الأطباء والمهندسين فسوف يأتون إليها جماعات ووحداناً، أما اليوم وكلياتنا ومؤسساتنا الدينية والاجتماعية والتربوية والتعليمية لا يؤمها إلا كل من لم يحسن الأداء من أبنائنا، في حين ندخر كل مجد مجتهد، لما نظنه مجالات مربحة مرموقة وحضارية كالطب والهندسة، فإننا نجد أنفسنا في نهاية المطاف، بسبب سوء أداء نظامنا الاجتماعي، قد فقدنا المجيدين من أبناء الأمة من المهندسين والأطباء الذين صرفت الأمة في إعدادهم عشرات السنين وطائل الأموال، وهم يهجرون بلادهم وأمتهم، ويرحلون إلى آفاق الأرض طلباً لكريم العيش وعز الكرامة.

ولو أننا كرمنا المفكر والمربي والمعلم ورجل العلم والخدمة العامة، وأحسنا إعدادهم، وأحسنا بذلك إدارة مجتمعنا ومؤسساتنا، لما رحلَ الأطباء ولا المهندسون، ولما هجروا أرضهم وبلادهم، وإذا احتجنا إلى مزيد منهم حصلنا عليهم، وعلى أكثر مما نطلب ونحتاج .

ومع ذلك فإننا هنا نعود لنؤكد على أننا - على كل الأحوال - لا نقلل من أهمية الوسائل والأدوات، ماديةً ومعنويةً، وتعليماً وتدريباً وإعداداً، ولا نهملها، فهي جزء لا يتجزأ من الفطرة والطبيعة والسنن، ومن الرؤية الكونية الحياتية الحضارية القرآنية، ولكن المهم الذي نؤكده أيضاً أن تكون تلك الوسائل والأدوات

بأيدٍ فاعلةٍ عاملةٍ مؤهلةٍ عقلياً ونفسياً ووجدانياً وعقدياً لاختراع أدواتها ووسـائلها وإبداعها، وتكون مجتهدة في استخدامها وتنميتها.

آن الأوان لأن نأخذ جميعاً أنفسنا وحياتنا ووجودنا بالجدية اللائقة بها؛ لنبنـي مجتمع الأمة بمنظور الرؤية القرآنية الكونية الحضارية، وأن ننقي ثقافتنا، ونعيـد بناءها وبناء أبنائنا وجداناً وفكراً حضارياً إعمارياً خيِّـراً **بـإذن الله، وحتـى يستطيع كل إنسان مسلمٍ أن يحقق ذاته ومعنى وجوده، وأن يكون وجوده بـأي معنى من المعاني، وبأي قدرٍ، وبأي وجهٍ من وجوه الحياة، إضافةً خيـرةً مثمرةً لذاته، ولأهله، ولأمته.**

وكل هذا ممكن، وهو بيد المفكر والمثقف، وبيد الإصلاحي والتربوي، وبيـد الأسرة والوالدين، وفي متناول أيديهم إن اجتهدوا وجـدّوا، و"من جدَّ وجد" و"من سار على الدرب وصل".

<u>أخيراً: كيف نبني "العلوم الاجتماعية الإسلامية" ونحقق "الرؤية الإسلامية"</u>

قبل أن ننهي هذه الورقة فإن من المهم أن نستحضر بشكل مستقل قضية بنـاء العلوم الاجتماعية الإسلامية، والتي بها نولد الفكر الإسلامي؛ الذي يحقق الرؤيـة الإسلامية، ويتحقق بها، فنضع بذلك حداً للجدل والحيـرة التـي تتعلـق بماهيـة "إسلامية المعرفة"، وكيفية تحقيقها، فمن أهم الأسباب في ضبابية قضية إسـلامية المعرفة هو ضبابية طرح قضية بناء العلوم الاجتماعية الإسلامية، وعدم وضـوح طبيعة محتواها ومهمتها وعلاقتها بالفكر والتراث الإسلامي من ناحية، وعلاقتهـا بالعلوم الاجتماعية الغربية من ناحية أخرى.

ولذلك لابد من طرح هذه القضية في أساسياتها، وبشكل واضح مباشر لطلاب الدراسات التقليدية التراثية من جانب، وطلاب الدراسات الاجتماعية الغربية مـن جانب آخر؛ لأن "إسلامية المعرفة" و"إسلامية العلوم الاجتماعية" هما وجهان لعملة واحدة. وما لم تتضح العلاقة بينهما، والعلاقة بينهما وبين العلوم التراثية الإسلامية والعلوم الاجتماعية، فإن اللغط والحيرة وحوار "الطرشان" حول معنـى إسـلامية

المعرفة وماهيتها وخطة العمل المطلوبة لإنجازها لن ينتهي ولن يصل إلى نتيجة، وبالتالي تستمر الجهودُ المبذولة للتقدم في هذا المجال محدودةً، وتراكماتها مشتتة.

لإزالة هذا الغموض علينا أن نبدأ بتحديد ماهية العلوم الإسلامية التراثية المدرسية السائدة والمتداولة، في فكر الأمة الإسلامية واستخداماتها وبرامج دراساتها، ثم نحدد أيضاً طبيعة العلوم الاجتماعية المعاصرة في ماهيتها ودراساتها ومهمتها في الحياة المعاصرة؛ لننتهي بعد ذلك إلى تحديد طبيعة العلوم الاجتماعية الإسلامية المعاصرة في مهمتها وطبيعتها ودورها في حياة الأمة الإسلامية في هذا العصر، وفي علاقاتها المنهجية والفكرية مع الإسلام، ومع التراث، ومع العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة، في المصادر والمحتوى الفكري، وفي منهج البحث والدراسة.

ونبدأ بقضية الفكر والعلوم التراثية الإسلامية التقليدية في المحتوى، وفي المهمة، وفي طبيعة الحضور في واقع الأمة الإسلامية.

فمن الواضح أن الجانب الفقهي (القانوني) هو الصبغة الغالبة على هذا الفكر وهذا التناول في واقع الأمة، وعلى تعاملها مع الدين والفكر الإسلامي.

والفقه في جوهره يمثل قضية القانون، ودوره في حياة المجتمعات الإنسانية هو ترجمة عقائد الأمم وثوابتها وثمرة فكرها وتجاربها، في شكل قواعد وضوابط تحكم العلاقات الاجتماعية وتنظِّمها، وتولد منها ما تحتاج إليه الأمم من قوانين وفتاوى وأحكام تضبط وتنظم حركة المجتمع وعلاقات أعضائه ومؤسساته.

وإذا تابعنا في نظرة شمولية كلية مسيرة الفكر الإسلامي وعلاقته بالفقه والقانون الإسلامي، فإننا نجد أن الفقه الإسلامي منذ البداية استمد فكره ومحتواه من العهد النبوي والراشدي وترتيباته وممارساته وتطبيقاته، والتي تمثل في جوهرها السنة النبوية وممارسات عهد حكم الأصحاب بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم على عهد الخلافة الراشدة.

وبانهيار عهد الخلافة الراشدة، وعهد حكم الأصحاب الذي كان في جوهره امتداداً للعهد النبوي في فكره وممارساته وعلاقاته وترتيباته، مع اجتهادات مهمة أملتها الحاجة لمواجهة المتغيرات الكبرى التي أحدثتها وفاة الرسول صلى الله عليه

وسلم، وانتهاء فترة الوحي من جانب، وأحدثتها الفتوحات من جانب آخـــر، ومـــا تبعه من استيلاء القبلية العربية على الحكم وإدارة الدولة، وما مثلـــه ذلـــك مـــن انحرافات سياسية واقتصادية واجتماعية على العهد الأموي؛ وما صـــاحبها مـــن معارك طاحنة مع مدرسة "المدينة المنورة" بلغ الأمر من حـــدتها أن "اســـتبيحت" "المدينة المنورة" ذاتها؛ وكانت النتيجة الكارثية هي عزل رجال تلك المدرسة عن الشأن العام في الأمة، وليبدأ الفكر الإسلامي عهـــد "المدرســـية" المعزولـــة فـــي المساجد، وفي دائرة الأحوال والمعاملات والعلاقات الشخصية والفرديـــة، بكـــل آثاره الحضارية الكارثية وهو ما قد وضحنا صورته في مواضع أخرى[٦٩].

ولأن طبيعة العصر، ولأمد طويل، لم تتغير في جوهرها عما كانت عليه على العهد النبوي والعهد الراشد، فإن السنة النبوية والراشـــدة بقيـــت فـــي ترتيباتهـــا وتفاصيلها "الزمانية والمكانية" صالحة ومثالية، وكانت المصدر الأهم لذلك الفكـــر الإسلامي المدرسي، والذي كنا نلاحظ أنه مع مضى الوقـــت واســـتحكام العزلـــةِ المدرسيةِ على علماء الدين والتراث، غلب عليه الميل إلى المبالغـــةِ فـــي تـــدوين نصوص السنة صحيحها وضعيفها، بهدف استخدامها لحمايـــة العجـــز الفكـــري والسياسي باللجوء إلى "قهر القداسة" والمبالغة في خطاب "الترهيب".

ومع مضى الوقت وتفاقم العزلة والعجز الفكري والسياسي انتهي الأمر بطلبة العلوم الشرعية إلى الجمود، واجترار القواعـــد والـــضوابط والأحكـــام الحرفيـــة المستمدة من فكر وواقع وممارسات وترتيبات علاقاتٍ لم يعد لكثير منها وجود في واقع المجتمعات الإسلامية المتأخرة، وهو ما نراه اليوم في أوضح صـــورة فـــي واقع الأمة والمجتمعات الإسلامية المعاصرة؛ من حيث طبيعـــة العـــصر وســـقفه المعرفي وإمكاناته، وما يواجه من تحديات.

وهذا يعني أن كثيراً من القوانين والضوابط والقواعد والأحكام والفتاوى فـــي صورها التطبيقية تَمُتُّ إلى عصورٍ وأوضاعٍ وفكرٍ (وهو غير المبـــادئ والقـــيم) وواقع وإمكانات وتحديات غير واقع العصر وإمكاناته وتحدياتـــه. أي أن التـــراث برغم ما كان يمثله من مبادئ وقيم ومفاهيم سامية فـــي واقـــع زمـــان تطبيقاتهـــا وإمكاناته وتحدياته، فإن هذه القوانين والآراء الفقهية أصبح كثير منها اليوم يمثـــل

فكراً وواقعاً تاريخياً لا وجود له، وبالتالي فهي أيضاً قوانين وتطبيقات وأحكام وعلاقات تاريخية لا تنتمي إلى واقع الأمة ، ولا إلى إمكانات عصرها وتحدياته.

إن من المهم أن ندرك أهمية أن تظل ثوابت الرؤية الكونية، ومبادئها وقيمها سليمة؛ لأن الأمة اليوم أكثر من أي وقت مضى هي أشد حاجةً إليها لتولد فكرها وعلاقاتها، وترشد مسيرتها في واقع عصرها وعواصف تحدياته.

وتأتي حكمة تنزيل تلك الرؤية والتطبيقات "النبوية" و"الراشدة" في ضوء ظروفها الزمانية والمكانية كنزاً وخبرة ودروساً وعظةً وعبراً معرفية على أكبر قدر من النفع والأهمية العلمية؛ لترشيد الجهود العلمية المعاصرة، وتوليد الفكر والترتيبات المعاصرة، التي تستجيب لحاجات الأمة وبناء علاقاتها ومؤسساتها الضرورية الفعَّالة؛ لمواجهة تحديات عالمها وعصرها، في ضوء إمكاناته وسقوفه المعرفية.

أما العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة وعلاقتها بقضية إسلامية المعرفة، والتي هي قضية العلوم الاجتماعية الإسلامية، فهي قضية تتعلق بالمحتوى، كما هي قضية تتعلق بالمنهج، وإذا فصلنا القضيتين (المحتوى والمنهج)عن بعضهما بعضاً أصبحت الرؤية واضحة، والتعامل معها مثمراً وميسراً.

ولتوضيح الأمر، وقبل أن نتعرض لكل ذلك، فإن من المهم أن نوضح أولاً مهمة العلوم الاجتماعية في ميدان المعرفة والعلاقات الاجتماعية.

وحتى يتم معرفة مهمة العلوم الاجتماعية فإن علينا أن نقرر، وأن نعلم من حيث المبدأ، أن العلوم الاجتماعية تختلف مهمتها ودورها المعرفي والاجتماعي عن مهمة القانون والفقه والأحكام والفتاوى؛ لأن مهمة العلوم الاجتماعية أكبر وأوسع من ذلك، وذلك لأن مهمتها في جوهرها هو دراسة المجتمع على ضوء رؤيته الحضارية، روحيةً كانت أو مادية، وعلى ضوء واقع طبائع فطرته الإنسانية، وفي حدود إمكاناته البشرية والمادية وتحديات عصره الحضارية.

وهذا يعني أن مهمة العلوم الاجتماعية، في أي مجتمع، هي توليد الفكر الاجتماعي في مختلف مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الفردية والجماعية، والمؤسسية.

وهذا يعني أن مهمة العلوم الاجتماعية الإسلامية هي عملية توليد الفكر الاجتماعي في المجتمع، وهي بذلك توفر المادة الفكرية الإسلامية التي يقوم الفقه والقانون والدراسات والأبحاث القانونية الفقهية باستخلاص القواعد والضوابط التي تنظم العلاقات القانونية والبُنى المؤسسية في المجتمع منها، أي أن مهمة الفقه والقانون بالدرجة الأولى مهمة شكلية، ومهمة العلوم الاجتماعية بالدرجة الأولى مهمة فكرية ، وهما بذلك يتكاملان تكامل أجنحة الطائر في خدمة مسيرة الأمة، وبناء كيانها، وحضارتها.

والسؤال هنا أين تلتقي العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة مع قضية إسلامية المعرفة وبناء العلوم الاجتماعية الإسلامية؟ وكيف؟

وهنا يأتي دور الفصل بين الفكر الغربي المتولد من البحث والدرس الاجتماعي، وبين منهجية هذه العلوم الاجتماعية؛ لنرى أن بناء العلوم الاجتماعية ليس بدعاً من الأمر، وأن سبلَه ميسرةٌ، وأن قضيته قضية وقت وتراكم بحث علمي سيفيد من خبرة التراث، ومن كثير من إنجازاته، بقدر ما يفيد من منهجية العلوم الاجتماعية الغربية وإنجازاتها، وأن جهود بنائها أيسر وأسهل وأسرع مما نتصور إن أخذنا الأمر بالإيمان والثقة والجدية والمثابرة المطلوبة.

فنحن نعلم أن المحتوى الفكري الغربي للعلوم الاجتماعية الغربية يتأثر بجانبين: الأول منهما هو الجانب الذاتي الإيديولوجي المتمثل في الرؤية الكونية الغربية، والتي هي في جوهرها والسمة الغالبة المؤثرة عليها هي رؤية إيديولوجية مادية؛ بحيث أصحبت شعوبها لم تعد لأديانها تأثير ذو وزن على واقع رؤيتها وتعاملها وعلاقاتها الاجتماعية، فهم "لا أدريون" "Agnostic".

وأما الجانب الموضوعي في هذه العلوم الاجتماعية الغربية فيتمثل في منهجية دراسة الفطرة والطبائع البشرية، وبالتالي معرفة كيفية تفاعلها مع واقعها، وكيفية تطويع هذه الفطرة والطاقة النفسية؛ لتحقيق أهداف الرؤية، وما تعبر عنه قيم ومفاهيم ومبادئ، واستفادتها من الإمكانات لإبداع الوسائل والحلول والمؤسسات، ومواجهة التحديات.

ومن هنا فإن الاستفادة من الجانب الموضوعي والوضعي، ومن كثير من إبداعات الوسائل والأنظمة والمؤسسات، يمكن الاستفادة منه، ولا حاجة لإعادة اختراع الكهرباء في كثير من الأمور كما يقولون.

والسؤال: هل نحن في الاستفادة من مفهوم دراسة الفطرات والسنن والنواميس الاجتماعية، بل والمادية، عالة على الغرب، ونستورد شيئاً غريباً عن رؤيتنا الكونية الحضارية.

نحن الآن نعلم أن هذا غير صحيح، وأن الإسلام إنما جاء ليجدد الحضارات الإنسانية التي كانت على عهد ظهور الإسلام، إما حضارات قد أدت مهماتها وبلغت حد الضعف والشيخوخة والفساد وشح العطاء، كما كانت الحال مع الحضارة الفارسية، أو بالفعل قد أفلست وانتهت، كما كانت الحال مع الحضارة الإغريقية .

لقد جاء الإسلام بفجر عهد جديد يفتح آفاق العلمية والعالمية، ويحث على العلم والفكر والبحث والدرس والعظة والعبرة والنظر.

وبدأ بالحضارة الإسلامية فجرُ البحث العلمي ودراسة السنن والنواميس، ولم يعرف الغرب الهمجي في ذلك الوقت بعد، معنى العلمية والسننية إلا من الإسلام، ومن مدارس الإسلام، ومن احتكاكه مع أمة الإسلام، والدراسة في مدارسها وجامعاتها، وترجمة العلوم والمعارف عنها.

إن العلوم الاجتماعية الغربية لم تكن إلا امتداداً لعقلية دراسات السنن والنواميس الكونية في عالم المادة، ليمتد لاحقاً إلى دراسة الفطرة الإنسانية الاجتماعية، والتعرف على أسرارها، وتوليد الفكر الاجتماعي بواسطتها في مختلف مجالات علاقاتها، وبناء المؤسسات، وتوليد الفكر القانوني اللازم لإدارة شؤون مجتمعاتها وفق رؤية حضارتهم ومفاهيمهم المادية، التي مازال يعانى العالم بسببها حتى اليوم، بسبب ثنائية قيمها ومعاييرها التي أفرزت ويلات الاستعمار والظلم والعدوان والتفنن في إبداع وسائل الحرب والدمار.

لقد كان المسلمون أولى من سواهم في السبق في مجالات الدراسات العلمية للفطرات الإنسانية والسنن والنواميس الإلهية في إبداع الخلق، ولكن ما أصاب

مسيرة الأمة من عثرات مبكرة تنامت آثارها، الأمر الذي عرقل مسيرتها وحرم الإنسانية لقرون كثيرة من هداية الوحي والإسلام في علم وعالمية تحقق رؤية العدل والإخاء والتسامح والحرية والتكافل والأمن والسلام.

إن الرؤية الإسلامية الكونية والوحي الإسلامي هي رؤية تعبر عن الفطرة الإنسانية السوية، وترشِّدها، وبها تتحقق الذات والفطرة الإنسانية السوية، كما خلقها الله وأبدعها، ولا مجال فيها للتعارض بين الوحي والفطرة، ولا أحرص على فهم هذه الفطرة وتفعيلها وترشيدها من الإسلام.

وكل ما سبق يعني أن على الطالب والباحث والدارس المسلم ببساطه أن يقوم بأربعة أمور هي:

١- أن يخلِّص نفسه من داء التقليد والمتابعة ، وأن يسلِّح نفسه بالعقلية الشمولية التحليلية العلمية الناقدة المبدعة.

٢- أن يؤهل نفسه بمعرفة الرؤية القرآنية الكونية الحضارية وقيمها ومفاهيمها ومبادئها وثوابتها.

٣- أن يؤهل نفسه بمعرفة المنهج العلمي لدراسة الفطرات الإنسانية والكونية، ودراسة الواقع وطاقاته وإمكاناته في الزمان والمكان.

٤- أن يستفيد من التراث الإسلامي، وأن يفيد من الإنجازات العلمية المعاصرة الموضوعية؛ ليواصل بها ارتياد آفاق أسرار النفوس والكون وإبداع الوسائل والسبل لتمكين الإنسان من الرقى بعالمه، وتحقيق "الحياة الطيبة" في الدارين.

وهكذا نرى إن "إسلامية المعرفة" وبناء العلوم الاجتماعية الإسلامية، وتوليد الفكر الاجتماعي الإسلامي، وإبداع الأدوات والوسائل، وتوليد الفكر الاجتماعي الإسلامي المعاصر، وإبداع الأدوات والوسائل التي تبني الحياة والمجتمع وعلاقاته ومؤسساته، على أساس الرؤية الكونية القرآنية الحضارية، أمر لا يختلف عما يقوم به العلماء والدارسون كافة، في مختلف مجالات العلوم، وكل ما نحتاج إليه هو تجلية الرؤية الكونية القرآنية الحضارية، وإعادة النظر في مفاهيمنا وأساليبنا التربوية والتعليمية، وإعادة بناء مؤسساتنا التعليمية والاجتماعية ومفاهيمنا

التربوية، وتأهيل أنفسنا بمستلزمات البحث العلمي الإسلامي الاجتماعي والكوني؛ لنصبح أهلاً للعطاء والإبداع والمنافسة والريادة الحضارية.

ومن هذا المنطلق فإن كثيراً من الإنتاج العلمي ومن الخطوات العلمية قد قام بها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والتي يجب على الأكاديميين في مجال الدراسات الإسلامية والاجتماعية والمنهجية، وكذلك على مراكز البحث العلمي والجامعات، العمل على دراستها واحتذائها وتطويرها؛ لدفع عجلة العمل الجاد وتراكماته في مجال الفكر الإسلامي؛ حتى يمكن الانصراف إلى خدمة الجوهر؛ رؤيةً، وثوابت، وقيماً، ومفاهيم، وليس شكلاً ومزايداتٍ إنشائيةً.

مطلوب إصدار الكتب والمراجع في مجال المنهجية الإسلامية ومصادرها العلمية، والعناية بالبرامج التدريبية للأكاديميين والمثقفين في هذا المجال.

أن تبنى فكرة الاختصاص المزدوج بين الدراسات الإسلامية والعلوم الاجتماعية خطوةٌ مبدئيةٌ مهمة لتكوين العقل المسلم المعاصر، وتكوين الأكاديمي والمثقف المسلم المعاصر، وهي الخطوة التي تبناها المعهد العالمي للفكر الإسلامي في برنامج الدراسات الإسلامية والاجتماعية في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، والتي أثبتت نجاحاً مشهوداً جديراً بالتعميم والتطوير.

إن المعهد العالمي للفكر الإسلامي في برنامجه للسنوات القادمة يعتزم بذل جهود أكبر في مجال التأليف والتدريب الأكاديمي في مجال منهجية العلوم الاجتماعية الإسلامية، وتجلية قضايا الرؤية الإسلامية؛ بالجوهر المختصر المفيد المتفاعل مع واقع الحياة وتحدياتها، في الزمان والمكان، وهو يأمل أن يجد الدعم العلمي في هذه المجالات من المفكرين والأكاديميين والإصلاحيين، ومن مؤسسات التعليم الجامعي ومراكز البحث العلمي.

خطة المعهد العالمي لتطوير مناهج التعليم العالي:

ومن أهم ما أسهم به المعهد العالمي للفكر الإسلامي في إصلاح مناهج التعليم العالي في نموذج الجامعة الإسلامية بماليزيا، هو اعتماد نظام التخصص الرئيس، والتخصص الفرعي، في كلية معارف الوحي الإسلامي والعلوم الإنسانية، حيث

يكون مساق الدراسات الإسلامية هو أحد التخصصين، وبحيث يصبح للخريج إذا استكمل التخصص الفرعي؛ وذلك بمد الدراسة عاماً إضافياً، (٣٠-٤٠ ساعة) درجتا بكالوريوس: إحداهما في الدراسات الإسلامية، والأخرى في أحد العلوم الاجتماعية أو الإنسانية.

وقد حقق هذا النظام نجاحاً كبيراً، وأسهم في تخريج نوعية من الخريجين أكثر انتماءً، وأكثر نضجاً، وأكثر فهماً وإدراكاً للرؤية الإسلامية الحضارية، ولدور الأمة الحضاري في المسيرة الحضارية الإنسانية، كما أنهم أقدر علميا في مجالات تخصصهم.

واستكمالاً لهذه المهمة، وإنضاجاً لها فقد تمَّ رسم خطة إصلاح شمولي مستقبلية لمنهج الدراسة الجامعية، وتمَّ تكليف نخبة من خيرة أساتذة الدراسات الإسلامية المتخصصة لوضع تفاصيل هذه الخطة، وتوصيف مادتها العلمية.

والعمود الفقري لهذه الخطة هو نسق (منهج) عام في الدراسات الإسلامية تتكون من جزأين:

الجزء الأول: وهو حوالي ثلاثين ساعة أكاديمية، توفر ما يجب أن يعرفه المسلم عن دينه من عقائد ومبادئ وقيم ومفاهيم ومقاصد وشعائر تبني رؤية الدارس الكونية، وجوهر تكوينه القيمي والأخلاقي والمقاصدي.

وهذا الجزء؛ لابد أن يُدرس كتخصصٍ فرعي لكل دارسٍ جامعي في مجال الدراسات الدينية أو الاجتماعية أو الإنسانية.

والجزء الثاني من هذا المساق (المنهج) الذي هو أيضاً حوالي ثلاثين ساعة أكاديمية، ويُقصَد به معرفة عامة لتاريخ الأمة والسيرة والحضارة والعلوم الدينية التراثية.

وسيكون إلى جانب هذا المساق العام في الدراسات الإسلامية نوعان من المساقات هما مساقات العلوم الاجتماعية والإنسانية من ناحية، ومساقات أخرى متخصصة في العلوم الدينية، وهي: تخصص الفقه والقانون (شريعة)، وتخصص العقيدة والفلسفة (علم أصول الدين)، وتخصص علم الحديث، وتخصص علم التفسير، وتخصص علم السيرة، وتخصص علم النحو، وتخصص علم البلاغة.

ومن المهم هنا أن نشير إلى مقررٍ لدراسةٍ مفاهيميةٍ تحليليةٍ ناقدةٍ للفكر والرؤية الكونية والحضارة المادية الغربية المعاصرة وأبعاد علاقتها وتأثيرها على الأمة الإسلامية، والذي تقرر كمقرر جزئي في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا بمسمى "الدراسات الاستغرابية"، ويمكن تسميته "دراسات الفكر والحضارة الغربية"، ويهدف إلى توفير خبراء في فهم الحضارة الغربية، وبالتالي التواصل الفعَّال مع إيجابياتها وتلافي سلبياتها، كما توفر مساقاتٍ تدعم في هذا الجانب بقية التخصصات، ونرجو أن يُطور هذا المقرر من جزئي إلى تخصصٍ كاملٍ؛ حيث إن كوادرنا هي في أشد الحاجة إليه.

وبذلك فإنَّ برنامج الدراسة لكل طالبٍ يتكون من تخصصين؛ بحيث يكون القسم الأول منهما هو الجزء الأول من منهج الدراسات الإسلامية (العمود الفقري)؛ الذي يجب أن يكون جزءاً لا يتجزأ من برنامج كل طالب، أيّاً كان التخصص الآخر للطالب، في أي علمٍ من العلوم الاجتماعية، أو الإنسانية، أو القانونية، أو الاقتصادية، أو الدينية، رئيسياً أو فرعياً. وهذا يعني أن برنامج الطالب لدرجة البكالوريوس يكون كما يلي:

{٣٠ ساعة جزء أول دراسات إسلامية + ٦٠ ساعة تخصص رئيسي +٣٠ ساعة مواد داعمة = ١٢٠-١٣٠ ساعة درجة بكالوريوس في أحد العلوم الاجتماعية أو الإنسانية أو الدينية}.

{٦٠ ساعة مساق دراسات إسلامية + ٣٠ ساعة تخصص فرعي + ٣٠ ساعة مواد داعمة = ١٢٠- ١٣٠ درجة بكالوريوس دراسات إسلامية}.

{٦٠ ساعة دراسات إسلامية + ٣٠ ساعة تخصص تربية + ٣٠ ساعة مواد داعمة = ١٢٠-١٣٠ درجة بكالوريوس دراسات إسلامية "تدريس تعليم دين إسلامي عام ابتدائي وثانوي"}

وهكذا فإنه إذا أُستكمل الطالب التخصص الفرعي ليصبح تخصصاً رئيسياً، فإنَّ الخريج يكون حاملاً لدرجتي بكالوريوس، إحداهما: في الدراسات الإسلامية، والأخرى في التخصص الآخر.

كما يجب ملاحظة أن هناك حوالي (٣٠) ثلاثين ساعة هــي مــواد داعمــة للتخصص الرئيسي الذي عدد ساعاته (٦٠) ساعة، ليكون عدد ساعات التخــرج لدرجة البكالوريوس في أي تخــصص هــو (١٢٠ – ١٣٠) ســاعة أكاديميــة، ولدرجتي بكالوريوس أحدهما تخصص الدراسات الإســلامية **هــي ١٥٠ -١٧٠ ساعة.**

- ٦٠ (تخصص رئيسي) + ٣٠(تخصص فرعي) + ٣٠(مواد داعمة) = ١٢٠ – ١٣٠ ساعة(لدرجة البكالوريوس).
- ١٢٠(بكالــوريـــوس) + ٣٠(استكمال تخصص فرعـــــي) = **١٥٠ – ١٧٠ ساعة (لدرجتـــي بكالوريوس).**

ومن المهم ملاحظة أن الكثير من المقررات (المواد) الدراسية، يكفي فيها للفصل الدراسي الواحد (٢) ساعتان أكاديميتان، وليس (٣) ثلاث ساعاتٍ، حتى يمكــن تغطية جوهر بعض هذه المقررات، خاصةً في الجزء الثاني من مقرر الدراسات الإسلامية.

ومن المهم أن تغطي الموادُ الداعمة لتخصصات الدراسات الدينية الجوانبَ الاجتماعية الأوسع التي تساعد على توسع أفق الدارس، وتفهّم الجوانب النفسية والاجتماعية الفطرية المتعلقة بمجال دراسته، وبنظرة واقعية عملية، ومن المهم أن يكون من بين المواد الدراسية الداعمة ثلاثة مداخل شمولية لثلاثة مجــالات دراسية اجتماعية نفسية، وأن تكون بالإضافة إلى ذلك مقررات "الأسرة والأبوة" "والتفكير الإبداعي وحلِّ المشاكل" من المتطلبات الجامعية للطــلاب والطالبــات كافة. وإذا أمكن أن يكون مقرر "قيام الحضارات وانهيارها" ضمن المتطلبــات الجامعية لدارسي العلوم الدينية والعلوم الاجتماعية والإنسانية؛ فذلك أمــر جيــد لأن الإسلام دينُ منطقةٍ هي مهد حضارات عديدة توارثتها، وهي تميزها بكــل أسبابها وآثارها الإيجابية والسلبية التي كانت وما تزال تلقــي بظلالهــا علــى الشخصية الحضارية لشعوب الأمة، ولذلك يجب أن يكون هذا التــاريخ والإرث الحضاري بشكل علمي شمولي في وعي الكوادر الفكرية والقيادية لأبناء الأمــة الإسلامية.

إنَّ المأمول أن يتمَّ إنجاز تفاصيل خطة هذه المساقات (المناهج) والمواد الدراسية المكونة لها خلال هذا العام (٢٠٠٨م) ، وأنَّ تفيد منها برامج التعليم العالي الجامعي في البلاد الإسلامية، للإسهام في إنضاج برامجها الحالية بإذن الله.

أمّا كيف تفكك العلوم الاجتماعية والإنسانية المعاصرة وكيف توظف الحقائق العلمية، والإمكانات الواقعية لخدمة الرؤية القرآنية الكونية الحضارية في مجالات العلوم الاجتماعية، والإنسانية والفيزيائية والتقنية، من منظور إسلامي، ولخدمة الرؤية الروحية الإسلامية الحضارية؟ فهذا هو ثمرة تراكمات البحوث العلمية، وأساتذتها، ومراكزها، والتي بدأت تؤتي ثمارها في العديد من هذه المجالات، والتي بدأت أيضاً تأخذ طريقها في إنجاز أعمال منهجية أكاديمية من قِبَلِ فرق علمية ضمن برامج المعهد العالمي للفكر الإسلامي لتحقيق وحدة المعرفة وإسلامية المعرفة.

أما العلوم الفيزيائية والتقنية فإن من المستحسن لطول متطلباتها وثقلها، كالطب مثلاً، أن يكون لها برنامج يحتوي على جُل القسم الأول من منهج الدراسات الإسلامية، مع إطلالة على الجوانب الحضارية للأمة ورسالتها، إلى جانب فلسفة الإسلام في هذه العلوم ومقاصد توظيفها الحياتية، ولاسيما ما يتعلق منها بمجال دراسة كل دارس، بشكل مواد داعمة، ويُترك للطالب الراغب في المعرفة الإسلامية ديناً وحضارةً طلب المزيد، ومن ذلك ما هو معمول به في الجامعة العالمية الإسلامية بماليزيا، وهو درجات الدبلوم والماجستير والدكتوراه، في الدراسات الإسلامية، لأي خريج، من أي تخصص علمي، في أي فرع من فروع المعرفة، بعد تأهيله بما يلزم له من مواد دراسية بوصفها متطلبات سابقة حسبَ حاجته العلمية المنهجية، وعلى أي حال يمكن لدارس العلوم الفيزيائية والتقنية أن يدرس مساق الدراسات الإسلامية تخصصاً ثانياً لو شاء.

خطة مرنة

أخيراً من المهم هنا ملاحظة أن هذه الخطة تحمل في طياتها مرونة واسعة للاستجابة لخطط الجامعات المختلفة، ولحاجات التخصصات المختلفة، وذلك أن

الــ (٦٠) ساعة هي الحد الأدنى لأي تخصص رئيس، وبذلك يتوفر (٣٠-٤٠) ساعة لدعم البرنامج الدراسي، وبذلك يمكن في حدود (٢٠) ساعة من الساعات الداعمة أن تضاف لزيادة ساعات أي تخصص رئيس لتصبح عدد ساعاته (٦٠-٨٠) ساعة، وهو الحد الأعلى لأي تخصص، وما يتبقى (١٠-٣٠) ساعة فتُخصص للمتطلبات الجامعية والداعمة الأخرى.

وهكذا فإن هذه الخطة يمكن تكييفها والتعامل معها بمرونة كافية للاستجابة لحاجات البرامج الدراسية المختلفة لتنتج خريجاً وكادراً جامعياً متكامل التكوين العلمي والوجداني الحضاري الضروري للارتقاء بنوعية الأداء الحياتي لأبناء الأمة وكوادرها العلمية والقيادية حتى تتمكن الأمة من تحقيق رسالة الإسلام الحضارية الإصلاحية الإعمارية بإذن الله.

وكما نرى فإن المهمة بهذا القدر واضحة وسهلة، ولا مجــال فيهــا للحيــرة والغموض، وإذا صحت نية النهضة والإصلاح تحققت الآمال بإذن الله.

المناهج التعليمية والبرامج التربوية :

سبق أن تحدثنا في موضوع التربية بتوسع وبكثير من التفصيل في كتاب "أزمة الإدارة والوجدان المسلم" ووضحنا فيه أن بناء الإنسان ليس عقلاً ومعرفة فحسب، ولكنه قبل ذلك تربية ووجدان، وإن التربية هي مسئولية الأسرة بالدرجة الأولى، ولذلك كانت الأدبيات الوالدية من أهم اهتماماتي الفكرية، ومن أهم أولويات اهتمامات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومع ذلك فإن للمدرسة والجامعة دوراً تربوياً، ليس فقط من ناحية انضباط الأداء والتعامل والسلوك، ولكن من الناحية العلمية التعليمية قبل ذلك، وبه يبصَّر الطلاب والخريجون بهذا الدور في سلوكهم ومستقبل حياتهم، وفي علاقاتهم، بشكل علمي وعملي.

ولذلك كان من ضمن مقررات الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا مقرر دراسي عن الأسرة والتربية، ومقرر دراسي عن "التفكير الإبداعي وحل المشاكل"، وهي مقررات دراسية يُقصَد بها تعليم الخريجين وتوعيتهم بهذه الجوانب المهمة في أنفسهم، وفي مستقبلهم حياتهم، وفي إعدادهم العلمي والعملي، ولا سيما شأن بناء

أسرهم وتربية أبنائهم على غير شاكلة ما ينشّأ عليه اليوم جمهورُ أبناء الأمة من علاقات سلطوية تولد لدى الأبناء وأجيال المستقبل "نفسية العبد"خضوعاً ومتابعة عمياء، وبذلك يُقضى عند الناشئة على كل إمكانية شجاعة أدبية نقدية تطويرية، وعلى كل إمكانات المبادرات الإبداعية الحضارية.

ولهذا السبب، ولذات الغاية، كان من البرامج التي تضمنتها خطة مناهج الجامعة، والتي أولتها - في خطتها - اهتماماً كبيراً، ثقافة المناظرة والحوار، وتعميمها على جميع فئات الطلاب، وكان القصد من ذلك تنمية تربية الطلاب والخريجين والكوادر القيادية والمثقفة في المجتمع على قدرة إدراك وجهة نظر الآخر ونفسيته ودوافعه وغاياته، وينمي لدى هذه الكوادر قدرات المرونة والتواصل وروح التسامح والتوافق؛ الأمر الذي لا يدع مجالاً نفسياً لأحادية النظرة والموقف الأيديولوجي المتغطرس الذي يُعَدُّ التربة الخصبة لروح الاستبداد والقسوة والفساد، وبذلك فقد حققت فِرَقُ الجامعة تفوقاً على مختلف المستويات المحلية والعالمية؛ الأمر الذي أهَّل خريجي الجامعة وزوَّدهم بمهارات قيادية واجتماعية هي من أهم مؤهلات القيادات الاجتماعية الناجحة، وهو الأثر الملموس في أداء هؤلاء الخريجين.

لذلك فإن من المهم أن ندرك أن التعليم الفعال الناجح ليس مجرد عملية استظهار وتلقين، بل هو بالدرجة الأولى عملية تنمية قدرات ومهارات، وتهيئة بيئة علمية اجتماعية توفر مختلف الأبعاد والمهارات العلمية والمعرفية والتربوية للطالب، وهو ما يعمل المعهد العالمي للفكر الإسلامي على إنتاجه في مجال الفكر الإسلامي والتعليم الجامعي ومناهجه وأدبياته الأكاديمية والتربوية، وتطويرها لكي تقدم نماذج عملية تمكّن مؤسسات التربية والتعليم من تحقيق أداء أفضل، ويكون لها دور فعال في إصلاح أحوال الأمة من خلال أهم مؤسساتها، وهي مؤسسات التربية والتعليم التي تنشّئ وتربي أبناء الأمة وكوادر قيادتها المستقبلية الرائدة.

كلمة أخيرة:

من المهم في ختام هذا الكتاب أن ألفت نظر الإخوة والأخوات من الأساتذة الجامعيين وكوادر البحث العلمي والأكاديمي المتخصص ومراكزه الجامعية وغير

الجامعية، إلى أن الكثير من الكتّاب والمفكرين تحوى كتاباتهم الكثير من المفـاهيم والمصطلحات التي تتناول الكثير من القضايا الجوهرية، والتي ترسـم الطريـق وتقدم المفاتيح لحلول كثير من القضايا، وإذا لم تأخذ عقول أصحاب الاختـصاص وأقلامهم هذه المفاهيم وهذه المصطلحات وتُصنِّع أدواتها وسبل تنفيذها وتنزيلهـا على الممارسات الحياتية المتعلقة بها؛ لتصبح منـاهج وأنظمـة وآليـات علميـة واجتماعية وثقافة حياتية لأبناء الأمة على مختلف فئاتهم، فإن هذه المفاهيم وهـذه المصطلحات ستبقى فذلكاتٍ أدبيةً وقطعاً إنشائيةً، وحبراً على ورق، ليس لها فـي واقع حياة المجتمع وأنظمته وممارساته من أثر ولا ثمر.

لذلك أرجو أن تتكامل جهود المفكرين والإصلاحيين والأكاديميين وأصـحاب الاختصاص لتقدم للأمة رؤى ومناهج ودليل عمل وممارسات حياتية تجـدد بهـا الأمة فكرها ومناهجها ومؤسساتها، وتولِّـد طاقاتها، وتفعِّـل قـدراتها، وتطلـق إبداعاتها، وإلا سيظل حال الأمة متدهوراً في دوامة الكسل الفكري والتبعية والتقليد على ما هو الحال المشاهد للأمة في عصورها المتأخرة.

لقد بذلتُ الجهد ما أمكن لتنزيل بعض القضايا المفاهيمية كنماذج علـى واقـع بعض أحوال الأمة وتقديم البدائل الفكرية والعملية، إلا أن ذلك لا يعنـي إلا أنهـا مجرد نماذج لما يجب القيام به والتوسع في بحثه وتصنيعه علمياً وأكاديمياً من قِبَلِ الأكاديميين، كلٌّ في تخصصه، لبناء التخصصات العلميـة فـي خدمـة الرؤيـة الإسلامية الروحية الحضارية، في صورها وتفاصيلها العلمية العمليـة الواقعيـة، ويمكن أبناء الأمة ومؤسساتها من إصلاح واقع حال الأمة.

و"عند الصباح يحمد القوم السرى"

وبالله العون وعليه الاتكال

وهو نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

معادلات الإصلاح:

وإذا لم يكن بدٌّ من عناوين أساسية للتذكير بالقضايا الكبرى التي تم بحثها، من دون أن يغني ذلك عن قراءة البحث قراءة متأنية؛ لمعرفة فحوى ما يتطلبه الجهد الإصلاحي المعاصر لتحقيق الذات، وتفعيل الإرادة الإنسانية الخيِّرة، وتكوين الإنسان الاستخلافي الحضاري المسلم الذي يحقق ذاته، ويستعيد دافعيته، ويحسن خياره، يمكن وضع هذه العناوين على هيئة ست معادلات، وذلك على النحو الآتي:

١. منهج فكري سليم، يتطلب الآتي:

وحي + سنن وفطرة + عقل (منطق علمي) + زمان ومكان = معرفة إسلامية علمية مهتدية ومنهج فكري سليم.

٢. تربية وجدانية إيجابية، تتطلب الآتي:

حب + تشجيع + حرية + انضباط = صفات إنسانية وحدانية إيجابية قوية فعالة إعمارية.

٣. إرادة خيرية إعمارية استخلافية، تتطلب الآتي:

رؤية كلية كونية حضارية + اقتناعات إيمانية توحيدية = إنسان استخلافي أخلاقي حضاري إبداعي مسلم

٤. رؤية كونية قرآنية حضارية إعمارية (رؤية أصحاب) تتطلب الآتي:

منهج فكري سليم + وجدان إيجابي + إرادة إعمارية خيِّرة = تحقيق الذات السوية الروحانية.

٥. أداة التغيير، تتطلب الآتي:

مفكر + تربوي + إصلاحي + رؤية كونية فعالة = تغيير حقيقي حضاري سلمي.

٦. بناء اجتماعي سليم، يتطلب الآتي:

رؤية إيجابية إعمارية خيِّرة + منهج وفكر سليم + منهج تربوي سليم + نظام ومؤسسات اجتماعية فعِّالة + عدالة اجتماعية واقتصادية = مجتمع حضاري إعماري قادر فعِّال حركي إبداعي روحاني غير عنصري ولا متكلِّس.

العمود الأساس لبنية حضارة الإسلام

رؤية كونية توحيدية استخلافية إعمارية روحيــة خيِّــرة

↓

منهج فكري سببي علمي إيجابي خيِّــر (مدرسة وإعلام)

↓

تربية وجدانية إيجابية خيِّــرة (أسرة)

↓

بناء اجتماعي إنساني مؤسساتي فعَّــال خيِّــر (دولـــة)

↓

مجتمع إخاء ووئام وعدل وحرية وسلام (أمـــة)

↓

حضارة إنسان العلم والعالمية وعلاقات العدل والتراحم والحرية والسلام

من هنا نبدأ لنعلم ونعمـــل: متطلبات البناء الحضاري

حضارة إنسان العلم والعالمية وعلاقات العدل والتراحم والحرية والسلام

↑

مجتمع إخاء ووئام إنساني وعدل وحرية وسلام (أمـــة)

↑

بناء اجتماعي إنساني مؤسساتي فعَّــال خيِّــر (دولـــة)

↑

تربية وجدانية إيجابية خيِّــرة (أســرة)

↑

منهج فكري سببي (سنني) علمي إيجابي أخلاقي خيِّــر (مدرسة وإعلام)

↑

رؤية كونية توحيدية استخلافية إعمارية روحية خيِّــرة (عقيدة دافعة محركة)

↑

من هنا نبدأ لنعلم ونعمـــل

الهوامش:

[1] - رواه أحمد في مسنده، حديث رقم (١٨٠٣٠).

[2] - من المهم هنا أن نتنبه إلى أنه وإن كانت الحقيقة الكونية ونواميسها مطلقة في ذاتهـا، إلا أن إدراك الإنسان لها أمر نسبيٌّ زمانيٌّ مكانيٌّ؛ أي أن الإنسان يعتمد في إدراكه المعرفي على سقف المعرفة الإنسانية المتاح لـه في الزمان والمكان، وهو سقفٌ يرتفع ويعلو مع مرور الزمان، كما أن موقع الإنسان وتفاوت قدراته ومعارفه تؤثر على مدى إدراكه لحقائق نواميس الفطرة الكونية، وهنا يأتي دور كليات هداية الوحي ومقاصده التي يجب أن يهتدي بها الإنسان في التعامل مع جوهر فطرته الإنسانية، بغض النظر عن مـدى إحاطته بكافة الحقائق والنواميس التي لا يمكن للإنسان الجزم المطلق بشأنها، وصدق رسول الله r حينما قال لوابصة بن معبد الأسدي رضي الله عنه: "ياوابصة استفت نفسك، البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنـت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك" رواه الإمام أحمـد فـي مسنده، حديث رقم (١٨٠٣٠)، وصدق الله العظيم في توجيهه للفطرة الإنسانية بمنطلق الكليات والمقاصد " {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَـرِ وَالْبَغْـيِ يَعِظُكُـمْ لَعَلَّكُـمْ تَذَكَّرُونَ}النحل٩٠.

فجماع الأمر – كما تنصّ الآية الكريمة – هو وجوب التزام العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والبعد عن كل ما يوصف بأنه فحش ومنكر أو بغي من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن توافق هداية الـوحي مـع الفطرة السليمة توجب أن يستهدي الباحث بكليات العلم والنواميس الكونية، وما تنتجه من نظريات تعـين على إدراكٍ كلي علمي عملي، وإن لم يكن دقيقاً شاملاً في جزئياته، وفي تقرير كافـة الحقـائق المتعلقـة ببعض ما يعرض للإنسان من الأمور، في الزمان والمكان، إلا أنه عليه أن يحقق بذلك رؤية علمية كليـة تحقق مقاصد الفطرة، إلى أن تتضح لـه الرؤية العلمية الدقيقة في الأمر، والتي تطابق مقاصـد الـوحي ومقاصد الفطرة، وهو بصورة عامة ما اتجه إليه الإمام أبو حنيفة النعمان إمام مدرسة الرأي فـي التـزام روح الشريعة ومقاصدها، حين لا تحقق "القياسات" الأصولية الغاية المرجوة منها، وتأتي نتائج "القياسات" الأصولية غير معبرة عن "روح الشريعة" أو "مقاصدها" فيتم عند ذلك اللجوء العملي لحل هذه الإشكالات إلى "الاستحسان"، وذلك باختيار "الرأي" الذي يعبر عن "روح الشريعة ومقاصدها" في إدارة الحياة إلى أن يتحقق العلم السليم في الأمر، بما يحقق "المناط" ويتوافق مع روح الـشريعة ومقاصـدها، ونـواميس الفطـرة ومقاصدها، ويتحقق بهذا المنهج وضع التوازن العلمي الموضوعي بين الفطرة والـشريعة فـي الزمـان والمكان.

وهذا الفهم المنهجي في علاقة الشريعة والوحي بالفطرة السوية وبالنواميس الكونية هو المفهوم الذي يقف خلف نظرية "مقاصد الشريعة" شريطة أن يتوافر للدارس معرفة صحيحة لأصول "العقيـدة" وأصـول "قانون الشريعة" وأصول "علوم فطرة الاجتماع الإنساني".

ومن الواضح أن هذا الفهم المنهجي لا يلغي العقل ميزاناً، ولا يسمح بقبـول الحرفيـات الاعتـسافية الجزئية أو التزام التطبيقات والتنزيلات التي تنتمي إلى زمانٍ أو مكانٍ أو سقفٍ معرفـيٍّ مغـاير للزمـان والمكان المتحقق لأهل العلم والمعرفة والخبرة في زمان أو مكان آخر، كما أن هذا الفهم المنهجي لا يسمح قطعاً بالخرافيات والشعوذات والخزعبلات، ولا يسمح بالغنوصيات والتهويمات، بل هو فهم يلتزم الـشريعة مبدأً، والعقلَ ميزاناً ومنهجاً، والفطرة السوية الراشدة غايةً، وذلك بالمقاربة الشرعية أو المقاربة العلمية عند حالة الإشكالية النصية أو الإشكالية العلمية، وذلك لتحقيق روح الشريعة ومقاصـدها، وتحقيـق روح العلمية في إدراك طبائع الفطرة الإنسانية والكونية ومقاصدهما.

إن منهج هذا الفهم عملياً - إذا واجه الإشكالية في الجزئيات النصية أو الجزئيات العلمية – هو التزام الكليات الشرعية العلمية ومقاصدها، والتزام كليات السنن الفطرية والنواميس الكونية ومقاصدها؛ لأن ذلك هو أفضل مقاربة منهجية علمية عملية للتعامل مع القصور الإنساني، ولتحقيق المقاصد الشرعية والفطرية السوية.

وهكذا، فالنظر الشرعي والعلمي في الزمان والمكان يوجب في حالة الإشكالية الالتزام بروح الـشريعة، وبروح علم الفطرة، وعدم التخلي عنهما أبداً، ووسيلته في ذلك هو أسـلوب الاستحـسان الـشرعي، أو الاستحسان العلمي لتحقيق المقاصد الشرعية الفطرية السوية.

وأهم قضايا الإشكالية النصية هي التي تتعلق ببعض نصوص السنة النبوية وبعض أقوال السلف، والتي تنشأ بسبب الرواية ومدى صحتها أو ضبط عبارتها، أو بسبب الاحتمالات الكثيرة التي تجعلها تحتمل الخطأ أو التحريف أو الكذب، ما كان من ذلك مقصوداً أو غير مقصود، وبحسن نية بسبب الأخطاء الإنـسانية أو بادعاء أصحاب الغفلة لإضفاء القداسة على ما يرون من رأي أو نصح، أو بسوء نية أصحاب الأغـراض الظاهرة أو الباطنة.

كما أن الغيمومة النصية قد تنشأ لعدم الانتباه إلى عامل الزمان والمكان وأثرهما على منطوق النص، أو لعدم القدرة على تحديد هذا العامل، خاصة أن كثيراً من هذه النصوص لا يتوافر فيها العلـم بالأسـباب أو بعامل الزمان والمكان المتعلق بها.

ولعل الأمثلة الشائعة لهذه الغيمومة النصية ما دار، وما يزال يدور، من مساجلات النصوص المتعلقـة بالسم وسبع التمرات، وبإرضاع البالغ، وبجناحي الذبابة، وببعض النصوص المتعلقة بأمور علم الغيـب، وحقيقة السحر والحسد والعين، وعلاقات عالم الجان بعالم الإنسان.

أما الإشكالية العلمية فتتعلق بالنظريات التي تنشأ الحاجة إليها للتعامل العملي مع بعـض القـضايا أو الإشكالات، حين لا يرقى السقف المعرفي لتوفير الحقائق العلمية المفسِّرة ، فتأتي النظريات للتفسير استناداً في بعض الجوانب إلى فرضيات علمية، لا إلى حقائق علمية، غير أنها توفر تفسيراً يعين على التعامل مع الظاهرة أو الإشكالية دون الجزم بصحة النظرية أو فرضياتها.

ولعل من أبرز هذه النظريات نظرية النشوء والتطور التي تعطي تصوراً وتفسيراً عملياً لما بين الكائنات الحية الحيوانية من تشابه وعوامل مشتركة، برغم الاختلافات والتنوع، دون القدرة على الجزم بصحة هذه النظريات وفرضياتها.

غيمومة هذه النظرية بقدر ما قدمت وتقدم من فوائد بقدر ما سمحت وتسمح باستنتاجات فلسفية اعتباطية في القول بصدفة الخلق وعشوائيته، وما يترتب على ذلك من فلسفات ومفاهيم مادية حيوانية لمجتمع قانون الغاب الإنساني؛ حيث الحق للقوة، والبقاء للأقوى.

ومن النظريات المشهورة على هذه الشاكلة نظريات فرويد التي أسهمت في نشأة علم النفس الحديث، والتي تخطاها سقف المعرفة في الوقت الحاضر.

ومن هذه النظريات العلمية نظرية أن المادة "لا تفنى ولا تُستحدث" والتي أثبتت المعرفة العلمية الفيزيائية أن تلك النظرية صحيحة ومفيدة في تفسير ظاهرة الوجود الفيزيائي فيما دون المنطق النووي؛ حيث تنقص المادة ويتحول جزءٌ منها إلى طاقة في حالة الانفجار النووي، وحيث يزيد الوزن المادي بتحول شيء من الطاقة إلى مادة في حالة الالتحام النووي الهيدروجيني.

ومن حالات الإشكالية العلمية التي يواجهها الفكر الإسلامي والوجود الإنساني آفاق البحث في موروثات الإنسان (جينومات) والخلايا الجذعية وما يتبعها من قدرات على الاستنساخ والتغيير، وما قد تقود إليه مثل هذه الاكتشافات العلمية من فرص وإشكالات إنسانية، فما الذي يُسْمَحُ بـه؟ وما الذي لا يُسْمَحُ بـه؟ وكيف يتم ضبط هذه المسارات؟ وما الضوابط التي تحقق الفوائد وتحمي من السلبيات والكوارث؟.

من المهم في حالة هذه الإشكاليات معرفة الكليات والمقاصد والاتفاق عليها والاهتداء بها، فلا تترك الساحة مرتعاً للرؤى الجاهلة التي تحرم كل شيء أو العشوائية أو الحرفية أو المنحرفة؛ وهذا ما يجعل الفوضى سيدةَ الساحة ويفتح الباب على مصراعيه لكوارث إنسانية واجتماعية، لن تسهل السيطرة عليها من دون ضابط الكليات.

وهكذا فإن حالتي الإشكالية النصية والإشكالية العلمية يجب التعامل معهما في ضوء الكليات والاستحسان، فيما يتعلق بالتعامل معهما، أو مع أي واحد منهما، بما يحقق المقاصد والمصالح المتيقنة أو الراجحة.

[3] - لم يرد حديث عن الرسول عليه السلام بهذا اللفظ، ولكن ورد عن علي رضي الله عنه موقوفاً "حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟" صحيح البخاري، الحديث ١٢٧. وروى أبو الحسن التميمي في العقل عن ابن عباس: بُعثنا معاشر الأنبياء نخاطب الناس على قدر عقولهم، ص ٢٢٥، وقال: سنده ضعيف جداً.

[4] - إن من المهم أن نشير إلى عدم الاستهانة بأي تزييف أو تحريف في أي نـصٍّ مقدس أو تأويلـه، ولاسيما نصوص الحديث النبوي الشريف؛ لأن أي نص (متن) إذا لم تحكمه كليات القرآن الكريم ومقاصد الشريعة فإنه قادر على أن يدمر ما لا يستهان به من كليات القرآن الكريم والشريعة الإسلامية وقيمها ومفاهيمها ومقاصدها، مثلها في ذلك مثل حبة السمِّ الزعاف تُدَسُّ في وجبة طعام صحي جيد، فبغض النظر عن سلامة الوجبة الغذائية، أو أصل سلامة الجسد، فإنها تكفي للقتل والدمار، فنصٌّ واحدٌ يسمح بالخرافة والدجل يقضي على فاعلية مئات النصوص في التزام السنن والسعي والإتقان والعمل والتوكل، ولذلك فإن نقد المتن والتزام القرآن الكريم وكلية مفاهيمه كونها ميزاناً لنقد متون الآحاد منهجٌ ضروريٌّ لحماية الدين والأمة من كثير مما تعانيه من تزييفٍ أو توظيفٍ لبعض النصوص وبعض التأويلات التي ألحقت بفكر الأمة ورؤيتها الكونية وسلامة عقائدها كثيراً من الضرر والتشويش .

يقول الله سبحانه وتعالى: "الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" هود الآية (١)، (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)

الأنعام الآية (٣٨) (هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ) (٧) آل عمران.

والمقصود بالمحكم العقائد والمبادئ والقيم والمفاهيم والأحكام، والمقصود بالمتشابه هو قصص العبر والأحداث المتعلقة بأهل الكتاب وغابر الأمم، وهو ما عرف بالإسرائيليات، حيث يؤكد القرآن الكريم أن يَكتفي المرء المسلم بما ورد فيه والمقصود منه، وليس ما قد يتعلق بذلك عند أهل الكتاب من خرافات وشعوذات وشركيات وانحرافات.

[5] - رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، الحديث رقم ٩١.

[6] - مسند الإمام أحمد، الحديث رقم ١٣٩٩١

[7] - رواه الإمام أحمد في مسنده – الحديث رقم ٢٢٥٥٦

[8] - رواه الإمام أحمد في مسنده، الحديث رقم ٢٥٣٤١

[9] - سنن أبي داود، كتاب الأدب، حديث رقم ٤٩٨٥

[10] - صحيح مسلم حديث رقم ٢٧٤٧ كتاب التوبة.

[11] - سنن ابن ماجة، كتاب الصيام ، حديث رقم ١٦٩٠

[12] - صحيح البخاري - كتاب النكاح – حديث رقم ٤٧٧٦

[13] - رواه البخاري في صحيحه – كتاب الصوم – الحديث رقم ١٨٧٤، ومن المفيد أن نشير هنا إلى قضية مربكة ومحيرة لكثير من الشباب، وهي متعلقة بالصلاة - وقد لا يعلمها كثير من الناس، وقليلاً ما تذكر كقضية من بين القضايا التي تعرض للصغار والشباب دون أن يجاب عنها في القليل الذي يتعلمونه من أمور الدين؛ الأمر الذي يجعل كثيراً من هؤلاء الشباب يجدون أنفسهم في زحمة الحياة ومطالبها وسرعتها المتزايدة في هذا العصر، في حرج بشأنها – وهذه القضية هي ضرورة أداء الصلوات اليومية الخمس في أوقاتها.

وهذا الأمر، وإن كان صحيحاً من ناحية المبدأ والأصل في أداء الصلوات (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) النساء ١٠٣، إلا أن هناك فسحاً وتسهيلات يجب أن يعلمها الشباب المسلم؛ تيسيراً عليهم في كثير من الظروف والملابسات وصعوبة الترتيبات التي يواجهونها في كثير من البلاد والظروف.

ونود هنا، ونحن نتحدث عن الرؤية الكونية، أن نتعرض لها؛ عوناً للشباب، وتيسيراً عليهم؛ فقد ورد في صحيح البخاري، في كتاب العلم، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)، وإذا تمعنا في هذه القضية فإنه ليس من الصدفة أن يكون الجمع بين صلاة الظهر وصلاة العصر، وأن يكون الجمع بين صلاة المغرب وصلاة العشاء.

ومن دروس التيسير العملية، أنه صلى الله عليه وسلم، جمع الصلوات في غير عذر ولا سفر، فقد ورد في صحيح مسلم وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، في المدينة، من غير خوفٍ ولا مطر، قلتُ لابن عباس: لمَ فعل ذلك؟ قال: كي لا يحرج أمته)، كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس (أنه صلى بالمدينة سبعاً وثمانياً: الظهر والعصر، والمغرب والعشاء) ولذلك أفتى شيخ الإسلام المجتهد الإمام أحمد بن

تيمية، بأنه يجوز الجمع في غير سفر ولا عذر، على ألا يكون ذلك عادة، فما بالك إن كان هناك معاناة أو حاجة أو ضرورة.

إنه يجب أن نعلِّم صغارنا حب الصلاة والحرص عليها؛ لأنها حبٌّ وتواصلٌ مع الله، نؤديها ونحن نستحضر محبة الله وأن نحرص على الوقوف بين يديه بقلوبٍ وأيدٍ نظيفة، وأنه لا معنى للصلاة والذكر بكل صوره، إذا لم يكن ذلك وازعاً للضمير ودافعاً للعمل الصالح وإتقانه،(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) العنكبوت ٤٥، (إِنَّ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّــرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) الأعراف ٢٠١

إن دعوى الإيمان لمن لا يعمل الخير ويسعى به هي دعوى كاذبة، ومثل ذلك من يصلي لكنه لا يسعى بالخير ولا يعين عليه، فإن صلاته وإن واظب عليها وأداها في أوقاتها فهو في الحقيقة غير مدرك لمعناها ولا للغاية منها في السعي في الحياة بالعمل الصالح والعون عليه وبذله لأصحاب الحاجة، فصلاته في الحقيقة ليست ذكراً ولكنها من أعمال الرياء، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون) سورة الماعون.

[14] - رواه مسلم في صحيحه – كتاب العلم – الحديث رقم ٢٦٧٠

[15] - رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان، الحديث رقم ٩١

[16] - من العجيب إطلاق حضارة شرقية وحضارة غربية كأن الأمر قضية جغرافية، ولأن الإسلام له وجود في أقطار الأرض كافة، فقد زاد ذلك الأمر اضطراباً فأصبح لدينا حــضارة غربيــة وحــضارة إســلامية، والصواب هو حضارية روحية جوهرها العدل والقوة للحق، وحضارة مادية جوهرها التظالم وشريعة الغاب والحق للقوة.

[17] - يقول ابن عبد البر في "التمهيد" ج٨/ ٣٦٨: ألا ترى إلى قول أبي عبيدة لعمر رحمهما الله تعالى: تفر من قدر الله؟ فقال: نعم، أفر من قدر الله إلى قدر الله.

[18] - فتح الباري ج١٣/ ص٣٤.

[19] - رواه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم ٢٥٧٧

[20] - رواه أبو يعلى الموصلي – مسند عبدالله بن مسعود - حديث رقم٥٥٨٦

[21] - سنن الترمذي ، حديث رقم ٢٠٠٧، كتاب البر والصلة عن رسول الله

[22] - أخرجه البخاري، حديث رقم ١٨٧٤، كتاب الصوم.

[23] - رواه البخاري، كتاب النكاح، حديث رقم ٤٧٧٦

[24] - رواه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، حديث رقم ٢٦٧٠

[25] - رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم ٢٥٩٣، كتاب البر والصلة والآداب.

[26] - صحيح البخاري، الحديث رقم ٢٣١٠

[27] - رواه البخاري ، الحديث رقم ٦١١٩

[28] - رواه مسلم حديث رقم ٢٥٨٥ باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم

[29] - رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم ٢٥٨٦

[30] - سنن البيهقي ، حديث رقم ١٩٠١٨

[31] - مسند الإمام أحمد ، حديث رقم ١٦٧٤٥

[32] - انظر مستدرك الحاكم ، كتاب البيوع، حديث رقم ٢١٦٦

[33] - رواه مسلم، الحديث رقم ٢٦٩٩

[34] - مسند الشهاب، الحديث رقم ١٧٦

[35] - رواه الطبراني في المعجم الأوسط، الحديث رقم ٤٧٤٩.

[36] - صحيح البخاري ، حديث رقم ٦٥٥٢

[37] - رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، حديث رقم ٥٧٤٣

[38] - رواه ابن ماجه في سننه، حديث رقم ٤٦

[39] - رواه البخاري في صحيحه- باب الأدب – حديث رقم ٥٧٤٥

[40] - رواه البخاري في صحيحه – كتاب الإيمان وعلامة النفاق – حديث رقم ٣٣

[41] - رواه البخاري في صحيحه – كتاب الرقاق – حديث رقم ٦١١٩

[42] - قول عمر: متى استعبدتم الناس، في ثلاثة كتب منها المستطرف للأبشيهي: أقبل على عمرو بن العاص وقال: ياعمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. وكذلك في كتاب ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، للزمخشري.

[43] - للإحاطة بقضايا الموضوع انظر للمؤلف "العنف وإدارة الصراع السياسي بين المبدأ والخيار" الناشر دار السلام – القاهرة ٢٠٠٢م.

ومن المهم أن ندرك هنا أن رؤية العدل الإسلامية، ومن قبل ألف وأربعمائة عام، قسّمت عالم علاقات الإنسان الاجتماعية السياسية إلى ثلاثة عوالم: هي "دار السلام"، و"دار العهد"، و"دار الحرب".

و"دار السلام" التي هي بالنسبة للأمة الإسلامية "دار الإسلام"، أي المجتمع الذي يخضع مواطنوه لحكم "قانون الدولة"، وبالتالي فعلاقات أفراده المواطنين في هذه الدار هي علاقات سلمٍ لا مجال للعنف فيها، ولا يصحُّ لأي فرد من الأفراد، أو جماعة من جماعاته أن يأخذ القانون في يده، وإلا اعتبر ذلك عملاً إجرامياً يردعه المجتمع، وأما مقاومة الانحرافات ودفع المظالم فيجب أن تتم في إطار القانون، وبالوسائل القانونية، فإن فشلت فيمكن اللجوء إلى المقاومة السلمية؛ لأنه لا تتوجب طاعة المواطنين للسلطة إلا على أساس العدل وحكم القانون، وإلا كان للمواطنين حقّ الاعتراض والمقاومة السلمية.

أما علاقة دار السلام، أو الدولة المستقلة في المفهوم السياسي المعاصر، بالعالم الخارجي ووحداته السياسية الأخرى فهي إما "دار عهد" أو "دار حرب".

"فدار العهد" هي الدار التي تقوم العلاقة بينها وبين "دار السلم" على أساس الاتفاق الذي يحفظ فيه كل طرف من الأطراف حقوقَه، ويتبادل فيه الأطراف المصالح على أساس الرضى والتوافق والعدل، وهذا يحقق الاستقرار ويوجب السلام والوفاء بين أطراف العهد، وإلا فإن كل طرفٍ يتربص بالآخر، وهو ما يوازي في هذا العصر دور الاتفاقات والمعاهدات الدولية ونظام الأمم المتحدة.

أما الوحدات السياسية، أو الدول التي تعتدي على الدول الأخرى، أي على "دار السلام" أو "دار العهد"، ولا تقبل بالتراجع عن عدوانها ومظالمها بالوسائل السلمية والدبلوماسية، فإنها تصبح "دار حربٍ"، أي دولة معتدية، ولدار السلم ودار العهد التي يُعتدى عليها أن تستخدم الوسائل الضرورية المناسبة كافة، بما في ذلك العنف والحرب إن اقتضى الأمر ذلك، ولكن ما يوجبه الإسلام رد الفعل من دون إسراف، ولا تستهدف

في عنفه أو حربه إلا سلطة الحكم، والسلطانَ في "دار الحرب"؛ وذلك بهدف إرغامها على الرجوع عن المظالم والاعتداءات، ولو استدعى ذلك في حالة عدم تعاونها الإطاحة لوضع حدٍّ لسياستها العدوانية، ولكن من دون تعرض للمدنيين ولعامة الناس بالضرر، إلا ما تمليه الضرورة القصوى، وبالحد الأدنى الممكن المناسب للحال ورد العدوان.

هكذا كانت الرؤية الإسلامية الحضارية، والتي هي تعبير عن الفطرة الإنسانية، مرشدة بقيم إقامة العدل والسلام، وعدم الإسراف، وهكذا ستبقى علاقات السلام والأمن الرشيدة بين الأمم والدول والجماعات الإنسانية إلى أن تعم الهداية، ويعم حكم العدل، ويتحول العالم كله إلى "دار سلام"، أو ما يمكن أن يسمى "الحكومة العالمية"، التي تخضع فيه البشرية لحكم قانون العدل والإعمار في "دار سلامٍ" واحدة، تنطلق من وحدة البشر، وتزدهر باختلافاتهم وتنوعهم وتكاملهم.

وللأسف فإن عالم اليوم برؤيته المادية أقام على أساس مفهوم "قانون الغاب" "الدولةَ القومية" الأنانية، محل المفهوم الإسلامي لدار السلام، وأقام "النظام العالمي على أساس القهر والتسلط بالمعاهدات غير المتكافئة، والضغوط الظالمة، وبواسطة نظام منظمة الأمم المتحدة (مجلس الأمن - سياسات القوة) وسيلة لسيطرة القوي على الضعيف، لتحلّ محل "دار العهد الإسلامي"، أما "دار الحرب" التي هي أمر واقع في عالم اليوم، فيما نشاهد في بقاع كثيرة من حروب مدمرة ظالمة تحقق بها القوى الكبرى في العالم مطامعها وتسلطها على الشعوب الضعيفة برغم ما ينص عليه نظام مؤسسة الأمم المتحدة من عدم مشروعية الحرب، بل وبالاستعانة بها لتبرير عدوان "الدول الكبرى" على دول "العالم الثالث" وشعوبها المستضعفة.

إن التواصل الإنساني المتنامي منذ فجر عهد الرسالة المحمدية العالمية إلى ما نراه اليوم من تحقق القرية العالمية، أدخل الإنسان في مرحلة العالمية، وكانت رسالة الإسلام هي بحق رؤية السلام العالمي الكونية الحضارية للإنسان في عصر العالمية.

الرؤية الكونية الحضارية الإسلامية وفلسفته هي رؤية العالمية والسلام؛ لأنها رؤية وحدة الإنسان وتنوعه في دوائر إيجابية متداخلة متكاملة للفطرة الإنسانية، فهي رؤية سلام لإنسانيةٍ تنبثق من نفسٍ واحدةٍ، في تنوع شعوب وقبائل لتتعارف في جمال تعدد الألسنة والألوان الإنسانية وروعتها، وفي صلة رحم وأسرة وجوار أخلاقي متراحم، يحكم مختلف علاقات الإنسانية بالعدل والعطاء والشورى والغائية والأخلاقية الخيِّرة {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ}النحل٩٠، فلا ظلم ولا عدوان {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ}الممتحنة٨، {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}المائدة٨، {كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ}النساء١٣٥، {وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ } البقرة١٩٠، وهذا يعني أنه نظام عالمي أو نظام حكومة عالمية تقوم على مبادئ العدل والشورى والإحسان والتنوع المتكامل، وعلى التراحم والأخلاقية، وهو نظام سلامٍ عالمي، وليس نظام عولمة أحادية وعولمة قهر وتظالم وسياسات قوة ومصالح تسلطية قومية.

[44] - العبادة هنا، على غير ما وقر في نفوس كثير من الناس بسبب خلط الخطابات، مشتقة من خيار التعبيد، وهو خيار الإرادة الإنسانية في تعبيد النفس وطلب الحق والخير (تحقيق الذات)، وليست مشتقة من الاستعباد والقهر والتحقير، كالذل للوالدين من التذليل، وليس من المذلة والمهانة (إلغاء الذات) { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}المنافقون٨.

[45] - سنن أبي داود الحديث ٥١١٩.

[46] - سنن النسائي الكبرى الحديث ٧٨٣٠.

[47] - رواه مسلم، الحديث مسلم ٢٥٧٨ .

[48] - حديث حسن رواه البزار والبيهقي وغيرهما.

[49] - صحيح البخاري الحديث رقم ١٧٦.

[50] - رواه الترمذي وقال حديث صحيح .

[51] - صحيح البخاري الحديث رقم ٢٣١٠.

[52] - مسند أحمد الحديث رقم ١٦٧٤٥.

[53] - رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٥٧٤٣.

[54] - صحيح مسلم الحديث ٢٥٧٧

[55] - صحيح البخاري الحديث ٢٣١٥

[56] - انظر مستدرك الحاكم، كتاب الرقاق، الحديث رقم ٧٩٠٢

[57] - من المظاهر الشائعة التي تعبر عن ظاهرة مخزية في ممارسات شعوب الأمة، وأحوالها وأنظمتها السياسية، وعلاقاتها المرضية الاجتماعية في انتشار الفقر والأمراض والجهل والتخلف والأمية، والمعبرة عن مدى اهتراء النظام الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية التي انعدم فيها معنى الكرامة والحقوق الإنسانية في المجتمع، لا بيد السلطات المستبدة وزبانيتها في عدوانها على حقوق المواطنين وكرامتهم بأيدي الزبانية وسراديب السجون والمعتقلات، ولكن بيد الفرد العادي تجاه الآخرين ممن هم أضعف منه بوجه من الوجوه في العرقية أو اللون أو الثروة أو المكانة الاجتماعية، والذي يظهر في انتهاك الكرامة بالاستخفاف أو الشتم، والاحتقار والاعتداء الجسدي بالضرب، فيما نرى ونشاهد في الواقع، والذي تمتلئ به مشاهد الأفلام والعروض الترويحية وكأنه مدعاة للضحك والتسلية؛ وذلك حين نرى القوي يضرب الضعيف، ويشتمه، ويهزأ به أو بضعفه أو بعاهته، ولعل من أدلِّ هذه المظاهر تبلُّد شعورنا، بَل ضحكنا حين نرى رب العمل "المعلم" وهو يضرب أو يشتم أو يهزأ بالعامل "صبي" المعلم أو نرى "سيدة" الدار تعتدي بالضرب أو الشتم "للخادمة" أو "الشغالة"، وسوى ذلك من مظاهر المهانة والاستخفاف بكرامة الضعفاء وهضم حقوقهم؛ مما هو مشاهد في سلوك كثير من موظفي الدولة "حمار الحكومة حكومة"، وفي سلوك كثير من الأزواج والآباء والمعلمين تجاه الزوجات والأبناء والتلاميذ، وفي سلوك كثير ممن لهم سلطة على ضعيف أو "وضيع" ومن لا ظهر له ولا واسطة أو رشوة، وصدق الله تعالى {خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}النساء١، {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}الأنبياء٩٢، {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}المائدة٤٨، {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}الحجرات١٣.

إن استهجان مثل هذه الممارسات الاجتماعية، وعدم تقبلها في الواقع، أو في الهزل، ومنع عروض مثل هذه الممارسات البشعة؛ حتى لا ينشأ الصغار على تقبل مثل هذه الممارسات الرديئة وممارستها، سيكون من المؤشرات الملموسة على نشوء وعيٍ ورؤيةٍ كونيةٍ حضاريةٍ جديدةٍ .

وقد يكون من المناسب هنا المقارنة بالقدوة النبوية للمعلم وبممارسات تلاميذ المعلم الرؤية الكونية القرآنية الحضارية.

فقد جاء في الحديث (وحدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي مسعود الأنصاري قال: (كنت أضرب غلاماً لي فسمعت من خلفي صوتاً: اعلم أبا مسعود لَلَّهُ أقدر عليك منك عليه، فالتفت فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: يا رسول الله؛ هو حرٌّ لوجه الله. فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار، أو لمستك النار) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده – الحديث رقم ١٦٥٩، وهذا يدل على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على كرامة كل إنسان على ما رأيناه من تأنيب الصحابي وتأديبه وإرشاده.

وهذا الصحابي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين أتاه الفتى القبطي شاكياً ابن والي مصر عمرو بن العاص حين ضربه لأن فرس الفتى القبطي تفوق على فرس ابن أمير مصر القرشي الفاتح، فأعطاه الخليفة عمر العصا ليضرب بها ابن أمير مصر، بل أراده أن يضرب أمير مصر نفسه لأنه بجاهه تجرأ الابن على ضرب الفتى العامي القبطي، ثم قال مخاطباً عَمْراً وابنَ عمروٍ والإنسانية كلها على مر العصور من بعدهم برؤية قرآنية كونية حضارية: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً"، وهي قصة وكلمات مضيئة مشهورة في كتب التاريخ (انظر الحاشية رقم ٤٣).

تلك هي رؤية الأصحاب الكونية الحضارية، أما رؤيتنا في هذا الزمان المضطرب فحدث ولا حرج.

ما كتب عن صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وصدق الرسالة الإسلامية كثير، ويمكن الرجوع إلى ما كتبه المؤلف عن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وصدق الرسالة، بعنوان (استدراك على ظاهرية ابن حزم) في مجلة (التجديد) - الصادرة عن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا – العدد الثالث - عام ١٩٩٨م- وكذلك ما كتبته في مقدمة كتاب (ظاهرية ابن حزم) تأليف د. أنور خالد الزعبي - الطبعة الثانية، الناشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والذي رأيت إلحاقه في نهاية هذا الكتاب لتعلقه المباشر بصدقية الرؤية الكونية القرآنية.

ومن المفاهيم القرآنية التي كثيراً ما يساء فهمها ويساء استخدامها، والتي يجب أن تستنقذ من السفسطات الفلسفية والتعقيدات الكلامية والأغراض والمصالح السياسية، ومن أهم هذه المفاهيم التي تتعلق بحياة الناس وفهمهم وتعاملهم مع أحداثها، مفهومُ "القضاء" و"القدر"، وهذه المفاهيم بطبيعة تناولها القرآني يسيرة مباشرة، وبذلك فإن أفضل وسيلة لحسن فهم معناها ومغزاها هو الرجوع المباشر إلى القرآن الكريم، واستحضار الآيات الكريمة التي تعاملت وعبَّرت عن هذين المفهومين اللذين لا علاقة لهما فيما يتعلق بالإرادة الإنسانية الاستخلافية المسؤولة بما عرف بإشكالية "الجبر" و"الاختيار".

فالقضاء الإلهي في السياق القرآني يتعلق بالتقرير الإلهي بما هو مناسب وخير ومطلوب للإنسان، سلباً أو إيجاباً، ويبقى التصرف الإنساني منوطاً بالإرادة الإنسانية، وما يستتبعها من مسؤوليات.

كذلك يتعلق القضاء بالقرار الإلهي بما يصرف به شؤون الكون، ويتعلق كذلك بالقرار الإلهي بحكمه في صواب أو خطأ التصرف الإنساني، كذلك يتعلق بالإخبار بما يعلم من أمر الكون والكائنات، وما يعلمه من أمرهم وأمر تصرفاتهم ومصيرهم.

أما القدر فيتعلق بالخلق وما أودعه الله فيه من فطرة ونواميس لا تتخلف ولا تتبدل، والتي تكوِّن عالم الإنسان الذي يتحرك فيه، ويعمل من خلاله، والذي يحدد مجال قدراته وتصرفاته.

وليس لكل ذلك علاقة بقهر إرادة الإنسان، بل إن الإنسان هو الذي يقرر مصيره، وإراداته هي التي توجه عمله في أي السبل وأي مقدرات الكون ونواميسه وسننه يسخِّر، فالمعاند الجاحد المنكر المصرُّ على الظلم والعدوان والفساد لن يصغي للنصح، ولن ينصاع للإرشاد، وهو الظالم لنفسه {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}

فصلت٤٦، {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً }الكهف٤٩، {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}الزخرف٧٦ ويقول الله سبحانه وتعالى:

{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً}الإسراء٢٣، {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}الأحزاب٣٦، {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ}الحجر٦٦، {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ}الإسراء٤، {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ}القصص٤٤، {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}طه١١٤، {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}البقرة١١٧، ويقول الله سبحانه وتعالى: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}الأعلى٢-٣ ، {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً}الفرقان٢، {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}القمر٤٩، {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ*مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ}عبس١٨-١٩، {وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً}الفرقان٢،{فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}البقرة٢٥٩، {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}يس٣٩، {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}الشورى٢٧، {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }الروم٣٠.

[60] - لا يمكن فهم الإرادة الإنسانية وخياراتها على أساس المعطيات العلمية المعرفية والوجدانية وحدها من دون فرضية وجود بُعْدٍ ما ورائي غيبي لا يدركه سقف المنطق الإنساني، والذي قد يكمن سره في أمر ما نُفِخَ في الإنسان من روح الله {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}الحجر٢٩، والله سبحانه وتعالى وحده الذي له الإرادة المستقلة المطلقة {إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}آل عمران٤٧، {وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ}الرعد٤١، وبذلك يكون القدر الذي وهب الله الإنسان من حرية الإرادة واستقلاليتها من مؤهلات الإنسان للاستخلاف وحرية التصرف والقرار، ومسؤوليته عن قرارات إرادته الحرة في القيام بمتطلبات الاستخلاف في غائيته وأخلاقيته وإصلاحه وإعماره الأرض، وقد يفسر ذلك أيضاً ويلقي مزيداً من الضوء عليه ما وهب الله نبيه عيسى عليه السلام من الخوارق والقدرات الخاصة التي هي من أمر الله {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا}التحريم١٢، {وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}آل عمران٤٩.

ومن الواضح مما سبق أن قضية حرية الإرادة لدى الإنسان تتعلق ببعد فيما وراء السقف المعرفي للإنسان، وبأمر ما نُفِخَ فيه من الروح، وهي أمر غيبي من أمر الله، {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} يس٣٦، {لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}ق٢٢، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً}الإسراء٨٥ فكيف، ومما سبق يمكن أن نتصور أنه يمكن للإرادة الإنسانية التي هي ذاتها مخلوقة، وتتصرف في كونٍ هو أيضاً مخلوقٌ، أن يكون لها مع ذلك حرية الخيار، وأن يترتب على خيارها وتصرفها مسؤولية وكأنها حرةٌ مستقلة في قرارها، وحرةٌ في تصرفها، على الرغم من أنها مخلوقة والكون الذي تتصرف فيه أيضاً مخلوق، وأنها سوف تُسأل وتُعاقب وتُجزى على تصرفاتها؟!.

من الواضح أنه لا يمكن إدراك أمر هذه الحرية، وأمر هذه المسؤولية، ووجه العدل في الأمر، بمنطق الإنسان وسقفه المعرفي، إلا بثقة الإنسان بأن الله رحيمٌ وعادلٌ، وأن الإنسان يدرك في قرارة نفسه أنه - في حدود النواميس الكونية (القدر) - يملك حرية القرار، وأن لديه القدرة على الخيار، وبالتالي يحسّ بمسؤوليته الشخصية عما يتخذ من قرارات في حياته، وفي الكون من حوله.

إن تصور قدرة الإرادة الإنسانية المخلوقة في الكون المخلوق، لا يمكن أن تتم بشكل عادل إلا على أساس منطق آخر أعلى يتصل بعالم الروح الذي هو عالم ما وراء منطق الإنسان وسقفه المعرفي، وليس هذا الأمر مستغرباً عن التجربة الإنسانية؛ حيث إن أمراً ما، في ضوء منطقٍ معينٍ، يتغير وضعه إلى النقيض في ضوء منطق آخر، ومثل ذلك منطق الإنسان الراشد، ومنطق الطفل الساذج، ومن الناحية العلمية مثل ذلك مثل المنطق الذري؛ حيث إن المادة في هذا المنطق تفنى وتُستحدَث مقارناً بمنطق الفيزياء دون البعد الذري؛ حيث المادة لا تفنى ولا تُستحدَث، يقول الله سبحانه وتعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لَا تُبْصِرُونَ}الحاقة٣٨-٣٩، {لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}ق٢٢، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}الشورى١١، {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} الملك ١-٢، {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}فصلت٤٦، {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}يونس٤٤، {وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً }النساء١٢٢، {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}ق٢٩، أما ما على الأسرة والمجتمع فهو واجبُ تسهيل مهمة الإرادة وتمكينها وترشيدها؛ وذلك بإحسان التربية والتعليم، وما وراء ذلك فهو مسؤولية الفرد وقراره.

واستطراداً لمفهوم ما وراء الحياة والوجود الإنساني على هذه الأرض والمنطق الأعلى الذي يحكم كلية الوجود مما لا يلحق به المنطق والإدراك الإنساني في هذه الحياة (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) الشورى الآية(١١) (لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) ق الآية (٢٢) (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) الإسراء الآية(85) (إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) آل عمران الآية (٤٧)، (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) الحاقة الآية (٣٨-٣٩)، (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) يس الآية (٣٦).

إن هناك سؤالاً يدور في الأذهان، وكثيراً ما يسأله حتى الصغار، وقد يكون من المفيد محاولة الإجابة عنه ضمن الرؤية الكونية القرآنية ودون خوض في الكلاميات والفلسفيات، وهو لماذا خلق الله الشيطان ؟ وبمفهوم أشمل لماذا خلق الله الشر؟

والجواب في ضوء إدراك محدودية منطق الإنسان وإدراكه وعجز منطقه أن يلم بكليات الكون ووجود أصل وجوده؛ الأمر الذي يترتب عليه ضرورة الإيمان والتسليم بأن خلق الشيطان وخلق الشر لا بد أن يكون له معنى وغاية عليا تتعلق بتركيب الوجود وأبعاده التي لا يحيط بها عقل الإنسان ومنطقه؛ ذلك لأن عقل الإنسان أصلاً ومنطقه لا يتصور وجوداً من عدم، وهو يعلم أنه موجود وأن الكون موجود، وكان وفق منطقه يجب ألا يكون هو ذاته موجوداً وألا يكون الكون موجوداً، وإلا أمكن تصور وجود من عدم وجود، وهو أمر غير متصور في إدراك الإنسان ومنطقه، ولما نراه ونعلمه من وجود هذا الكون، ومن عظمته وإبداع صنعه؛ ولذلك فلا بد أن نقبل أن لوجود الشيطان والشر معنى وغاية عليا، وأن علينا أن نُعْنَى بفهم ما يعنينا فهمه من هذا الوجود، وأن نكتفي بذلك؛ لأننا ندرك ونعلم أن أمر ذلك هو فوق سقف إدراكنا وعلمنا ومنطقنا.

ومما يمكن أن ندركه من معاني خلق الشيطان والشر، وهو ما يعنينا هنا، أن من فطرة الإنسان إدراك الشيء بضده "وبضدها تتميز الأشياء" فبالأبيض يتضح الأسود، وبالصغير يتضح الكبير، وبالبارد يتضح الساخن، وبالضعيف يتضح القوي، وبالجنون يتضح العقل، وبالظلم يتضح العدل، وبالشر يتضح الخير.

هذا أمر نحسه ونلمسه، ولولا التضاد في فطرة الإنسان لما كان للإنسان ما هو عليه من إدراك.

ومما ندركه أيضاً بشأن الشيطان والشر، أن الإنسان الخيّر، يتمتع بحس الأمن والطمأنينة وراحة النفس والضمير، حتى وإن قلّ نصيبه من المتع المادية، وحتى إن لقي بعض القلة والعناء فإنه – بعد بذل الجهد - يظل راضياً بالمقسوم، مطمئن النفس، مرتاح الضمير، واثق المصير.

بينما الإنسان المؤذي والإنسان الظالم الشرير فإنه - برغم ما قد يحققه من المكاسب والمتع المادية- لا يعرف على وجه الحقيقة - معنى طمأنينة النفس وراحة الضمير وأمن المصير، وهو بذلك يعيش حياة قلقة مظلمة يصارعها ويهرب من مواجهتها بلهاث الجمع، وغيبوبة الملذات والمسكرات والمخدرات المادية والمعنوية، ولا يأنس إلى نفسه، ولا يخلو إليها، وهو في حالة هرب لا ينقطع منها ومن مواجهتها، ومواجهة الأحاسيس السلبية التي تتقد فيها؛ لأنه (كالنار تأكل بعضها أن لم تجد ما تأكله).

يقول الله سبحانه وتعالى: (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) طه الآية (١٢٣، ١٢٤)، (إِنَّ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّـرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُوْن) الأعراف ٢٠١.

وهكذا فإن الشر وسيلة من وسائل الإنسان لمعرفة معنى الخير، وأهميته ولذة طلبه لتحقيق ذات الإنسان الخيرة المطمئنة.

يقول الله سبحانه وتعالى: (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً * وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ * يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَـادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي) الفجر الآية (٢١ ـــ ٣٠).

وإذا استعدنا ما سبق أن ذكرناه بشأن الإرادة المخلوقة المستقلة، وأنها من أمور الغيب ومنطق الوجود الأعلى، والإرادة الإلهية التي تعلو سقف المنطق الإنساني، في إدراك كيفية وجود إرادة مخلوق مستقلة، في كون مخلوق، بحيث يمكن أن يكون من العدل مساءلتها على خياراتها، فتصور العدل من جانب ومسؤولية الإرادة المخلوقة، هي صنو قضية حقيقة الوجود من العدم في منطق الإنسان، وهكذا نحن البشر نرى هذه الأحوال وندركها ونلمس آثارها، ولكن منطقنا بالطبع لا يستطيع فهمها؛ لأنها تتعلق بمنطق أعلى يتعلق بعالم الغيب والروح.

والقرآن الكريم يضع أمامنا ويرسم لنا المشاهد التي نرى فيها؛ كيف أن إبليس، هو الذي قرر بإرادته، أن يصبح شريراً، حسداً وكبراً لما منح الله "آدم" من قدرة العلم والإبداع والتصرف، في عالم المادة والطين، وهو عكس خيار الملائكة الذين تقبلوا القرار الإلهي وأدركوا حكمته وأطاعوا أمره، أي إن إبليس هو الذي اختار بإرادته أن يستكبر، وأن يعصى، وأن يكون مفسداً شريراً، على غير خيار الملائكة بالطاعة، وإدراك محدودية علمهم إلى جانب علم الخالق سبحانه.

يقول الله سبحانه وتعالى :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ) البقرة ٣٠-٣٣

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) الحجر ١٧-٣٣
(قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ)الأعراف ١٥-١٨

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً) الكهف ٥٠، (وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً) الإسراء ٥٣، (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) فاطر٦، (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) طه ١٢٣، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ) النور (٢١)، (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيم) البقرة (٢٦٨)، (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) المائدة ٩١، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِين* إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) البقرة ١٦٩، (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِين) الزخرف ٣٦، (يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُون) الأعراف ٢٧، (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ) النحل (٩٨ – ١٠٠)، (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِـي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيد) الحج (٥٢-٥٣)، (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) الحجر٤٢.

وهكذا ترى أن إبليس لم يخلق شيطاناً وإنما هو الذي اختار وقرر كبراً وغرورا وحسداً لما أنعم الله به على الإنسان " آدم" من علم وقدرة واستخلاف وبإرادته الذاتية، أن يعصى وأن يستكبر وأن يكون شيطاناً شريراً مدمراً ومنتقما من هذا الإنسان الذي يقرر بإرادته الذاتية أن يكون غاوياً ومفسداً وظالماً ومعتدياً فيصغى لوسوسة الشيطان، وغوايته ويخضع لسلطان تدبيراته وفتنه وإملاءاته الشريرة.

وهكذا فإن الإنسان أيضاً بإرادته هو الذي يقرر بدوره أن يغلب على حياته الخير والإصلاح والعدل والرحمة والإعمار والسلام، أو يقرر أن يتسرب إلى حياته الشر والفساد والظلم والقسوة والعدوان (إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ

مثقالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً) النساء ٤٠، (إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) يونس ٤٤، (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) العنكبوت ٤٠، (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) البقرة ٥٧، (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُون) آل عمران 117، (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} القصص ٧٦-٧٧، {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} القصص ٨٣

أما حين يسأل الصغار: لماذا خلق الله الشيطان؟ وكثيراً ما يسألون مثل هذا السؤال. فيكفى للإجابة عليهم أن الله لم يجعل "إبليس" شيطاناً، ولكنه قرر هو أن يعصى الله، وأن يستكبر، عند ذلك قرر هو أن يكون شيطاناً مفسداً شريراً، يكره الإنسان ويسعى في الأرض لغوايته، وكذلك الإنسان يصبح مفسداً شريراً حين يقرر أن يعصي ربه، ويسعى مثل "إبليس" في أذى الناس وضرهم.

هناك قضية أخرى تتعلق بما سبق من علاقة الإنسان بالغيب، وهي قضية الابتلاء بالنعمة أو بالضُّـرِّ في حياة الإنسان.

مما سبق علمنا أن الإنسان المخلوق له إرادة مستقلة وخيارات في الحدود المقدرة (القدر) (لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) البقرة ٢٨٦، وأن كل ذلك له حكَمٌ يعلم الإنسان شيئاً منها، وإن كان علمه ومنطقه لا يدرك ولا يحيط بكليات عالم الغيب والروح وما وراء المادة.

والقرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام والرجل الصالح يضرب للإنسان أمثلةً على محدودية علمه الكليّ وما وراء ما يرى من صروف الحياة من حكَمٍ وعللٍ وغاياتٍ لا يدركها الإنسان (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) الإسراء ٨٥، (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لَا تُبْصِرُونَ*) الحاقة ٣٨، (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً) يونس ٣٦، فقصة الرجل الصالح هذه تدعونا إلى التأمل في أمر أي ابتلاء يُبتلى به الإنسان حتى يواجه هذا الابتلاء بقوة الإيمان والصبر.

يقول الله سبحانه وتعالى:(فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً* قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ ممَّا عُلِّمْتَ رُشْداً* قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً* وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً* قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً* قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً* فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)الكهف ٦٥-٧٢، {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}البقرة ٢١٦

ولو تدبرنا القرآن وقصة الخلق لأدركنا أن العناء والابتلاء في حياة الإنسان في الأرض قدرٌ من أقداره، حين عصى وأصفى بإرادته وجهالته لإبليس؛ فأكل من مادة "الشجرة" فأهبطه الله من الجنة وعالم الروح إلى الأرض وعالم المادة، لتلتقي فيه الروح بسموها والمادة بسوءاتها وقذاراتها وعللها؛ لتُمتَحَن إرادتُه بالابتلاء بالخير مؤمناً محسناً شاكراً، أو جاحداً كافراً بطراً شحيحاً في الخير، وفي الضُرِّ والعناء إما مؤمناً صابراً أو كافراً ناقماً جزعاً هلوعاً (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ

الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ* فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا)الأعراف١٩-٢٠ (إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) طه١١٧، (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ) البقرة ٣٨٦، (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)الملك٢، (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ{٦})الانشقاق٦، (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)الكهف٧، (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)الأنبياء٣٥، (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ{٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) الحديد ٢٢-٢٣

ويقول سبحانه وتعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) محمد٣١، (فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى) طه من الآية ٧١-٧٦، (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) إبراهيم الآية ٦، (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ) الأنبياء ٨٥، (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) الأنبياء٨٣، (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) لقمان الآية ١٧، (وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ{٢٢} جَنَّاتُ عَدْنٍ) الرعد الآية ٢٢-٢٣، (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)الشورى الآية ٤٣، (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) آل عمران الآية ١٨٦، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) آل عمران الآية ٢٠٠، (إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَـئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) هود الآية ١١، (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ) المؤمنون الآية ١١١، (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) البلد الآية١٧، (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) العصرالآية ٣، (فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً) المعارج الآية ٥.

مما تقدم من آيات القرآن الكريم يتضح لنا أن الإرادة الإنسانية في هذه الحياة هي ابتلاء بالخير والشر، وبالمتع والمعاناة، وفي اختبار وامتحان، وفي كـدٍّ وكدح، (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) الإنسان الآية ٣.

ولهذا فإن خُلُقَ الإنسان المسلم ورؤيته الكونية في الحياة الدنيا هي الكـدُّ والكـدح، وهي الرضا والقناعة والاطمئنان إلى المصير، وهو شاكر للنعم، صابر على الضـر، محسنٌ ومأجور على الحالين، وبالشكر تزيد النعم، وبالصبر تهون البلايا والنوازل، فهو بإيمانه في خير حال، ومأجور ومرضي على الحالين.

ويمكن تلخيص الأمر في المعادلة التالية:

الروح←―――― المعصية←――――الهبوط←―――― المادة (الطين) ←―――― روح + مادة ←――――
قدر(سنن) + قضاء (هدي وإرشاد إلهي) ←―――― إرادة إنسانية (خيار) ←―――― ابتلاء نعمة (حمد وإحسان وشكر) أو (بطر وكبر وشح وكفر [نعمة]) + ابتلاء ضر (رضا وقناعة وحمد وصبر) أو (نقمة وهلع وجزع وكفر)←―――― إيمان أو كفر ←―――― سعادة أو شقاء.

[61] - لمزيد من التفصيل بشأن النظام السياسي الإسلامي الإسلامي انظر للمؤلف بحث "إشكالية الاستبداد والفساد في الفكر والتاريخ الإسلامي" مجلة "المسلم المعاصر" الصادرة بالقاهرة – العدد ١٢٢ - ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م ، ويمكن الاطلاع عليها على موقع (إسلام أون لاين www.islamonlaine.net) وتسجيل كلمة (استبداد) في الخانة المخصصة للبحث.

[62] - رواه البخاري – حديث رقم ١٩٦٦ كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده.

[63] - رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم ٦٠٩٧

[64] - رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده - الحديث رقم ٣٣٧٠

[65] - المعجم الصغير – الحديث رقم ٨٦١

[66] - رواه الإمام أحمد في مسنده - الحديث رقم ١٣٠٠٤

[67] - مصنف عبد الرزاق الحديث ٥١٠٤

[68] - سنن النسائي الكبرى الحديث ٩٣٥٢

[69] - للإحاطة بقضايا أزمات الفكر والإرادة في مسيرة الأمة الإسلامية انظر للمؤلف "أزمة العقل المسلم" الناشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي – هرندن – فرجينيا – الطبعة الثالثة ١٩٩٤م . وكذلك كتاب "أزمة الإرادة والوجدان المسلم" للمؤلف، الناشر دار الفكر – دمشق – الإعادة الثالثة ٢٠٠٧م .

ملحق

(الإيمان بين العقل والخوارق)

مقدمة:

السبب في إدراج هذه المقالة كونها جزءاً من قراءات قضية الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، أن هذه المقالة تمثل طرحاً للبنية التحتية المسبقة لهذه الرؤية، بوصفها رؤية روحية كلية تتعلق بكليات الوجود وبكليات الحياة الإنسانية وعلاقاتها وتفاعلاتها على هذه الأرض؛ ذلك لأنه لا حجية لأية رؤية كلية يقينية للحياة، وما وراء الحياة، إلا أن تكون صادرة عن خالق الكون؛ لأن إدراك كليات الوجود ابتداءً، هي فيما وراء سقف المنطق الإنساني.

إن هذه المقالة تهدف إلى توضيح الأساس العقلي والنظري للإيمان، وما يستتبعه من كليات الوجود، وهو ما يكوِّن الأساس الذي تقوم عليه الرؤية الكونية الإسلامية، **والذي** كان الأساس والنور الهادي للكاتب، **الواعي وغير الواعي**، منذ عهد طفولته، وعلى امتداد رحلة حياته، لإيمانه ورؤيته الكونية الكلية الإسلامية، ولمعنى حياته في عالم المادة والروح.

وكل ما يرجوه الكاتب، أن تكون هذه المقالة عوناً في إرساء الأساس اليقيني المتين لدى القارئ، كما كانت لدى الكاتب، لتجلية معنى حياته ورؤيته الكونية على أساس توحيدي استخلافي إصلاحي خيِّر بإذن الله.

وما دفعني إلى كتابة هذه المقالة، واستعادة قضيتها من ذكريات الطفولة والشباب، حين كنت على مقاعد الدراسة الثانوية، هو ما لفت نظري في دراستي لقضية المنهجية العلمية الإسلامية، أنه على الرغم من علمية فكر الإمام ابن حزم الأندلسي، وانضباط فكره العلمي ، إلا أنه حاد عن منهجه العلمي العقلي، حين واجه قضية الإيمان، وحجية الوحي ليلوذ بقبوله الخوارقَ.

ولما كنت؛ قد واجهت ذات قضية الإيمان وصدق الوحي في عهد الصبا، شأني شأن بقية البشر في تلك المرحلة من العمر، وجدت فكري قد التزم المنهج العقلي العلمي بشأن الإيمان والرؤية الكونية، ولم يكن للخوارق فيما يتعلق بها شأنٌ ذو بالٍ، مما دعاني قبل عدة سنوات إلى كتابة هذه المقالة (تأملات في ظاهرية ابن حزم وإعجاز الرسالة المحمدية، مجلة التجديد، الجامعة

الإسلامية بماليزيا، السنة الثانية، العدد الثالث ص ١٦٧ــ١٧٢)، استدراكاً على منهج الإمام ابــن حزم، واستكمالاً لرؤيته العلمية المنهجية.

الدليل العقلي أولى بحجية الوحي:

فمن المعلوم أنَّ الإمام ابن حزم الأندلسي يُعّدُّ من أبرز الشخصيات العلمية التي لا يمكــن أن يخطئها طلاب الفكر الإسلامي وتاريخه، فقد تميَّــز فكره بأنه فكر علمي منهجي منضبط، يلتزم العقل والواقع والتجربة والحواس، في غايةٍ من الجــرأة والوضــوح، ويــرفض قبــول الخزعبلات والتوهُّمات والتهويمات، مهما تلبست من الثياب والأحوال الفكرية والدينية، ومــن الواضح أن عقلية ابن حزم العلمية المنهجية هي ذاتها من أهم الأســباب فــي تــاريخ الأمــة الفكري في العصور المتأخرة؛ التي أسهمت في التقليل من شأن ابن حــزم، وإنكــار منهجــه العلمي؛ بسبب الخلل الذي آل إليه فكر الأمة، وبسبب طول عزلة مفكريها وعلمائها عن الواقع والحياة.

ومما يلفت النظر أن التزام ابن حزم "ظاهر نص الوحي الإسلامي وحــده" فــي أحكــام الشريعة دون زيادة أو نقص، يمثل امتداداً طبيعياً لمنهجيته العلمية التي التزمت العقلَ والحسَّ والتجربةَ؛ ولذلك فإن ما يصدر عن الغيب ويُوحى به من الله، ليس في منهجه أن يزيد البــشر عليه أو ينقصوا منه، فليس للعقل عند ابن حزم إلا أن يدركه كما هو دون زيادة أو نقص؛ لأن العكس من ذلك يؤدي إلى تأليه العقل أو إلى إلغائه عندما تخلط الشهادة بالغيب دون حجــةٍ أو سندٍ عقلي معتبر، وقد أعمل ابن حزم عقله وعلمه ودرايته ومنهجه العلمي في فهــم الــوحي ونصوصه دون تزيد أو انتقاص؛ الأمر الذي جعله قادراً على فهم الشريعة وأحكامهــا بنحــوٍ أرغم منكري منهجه، قبل مريديه، على احترام فقهه وفكره، واعتباره حجة علمية شــرعية لا يزال ينهل منها طلاب العلم والمعرفة حتى اليوم.

ويعدّ تجاهلُ أصحاب العقلية العلمية المنهجية من جمهور علماء الأمة في قرون التخلــف أهَمَّ ظاهرة من الظواهر التي عانى منها فكر الأمة في تاريخه المتأخر، فقد أصــابه الجمــود، وأذبله تمزق المعرفة الإسلامية، واستحكام عزلة العلماء والمثقفــين المــسلمين فــي أروقــة المساجد والمدارس، وهذا التجاهل والتقليل من شأن أصحاب العقلية العلمية المنهجية، وضعف الحفاوة بهم، لم يقتصر على ابن حزم وحده، بل نجد ذلك الموقف الــسلبي يمتــد إلــى جُــلِّ أصحاب العقلية المنهجية العلمية، وجُلِّ أصحاب الفكر الإبداعي، مثل الإمام ابن تيميــة الــذي ناصبه العداءَ جمهورٌ كبيرٌ من العلماء والمثقفين، ووصموه بالمروق عن الدين، ومثــل ابــن خلدون الذي تجاهل فكرَه جمهورُ العلماء والمثقفين، وبقي مغموراً مهملاً إلى أن كشف علمــاء

الغرب من أصحاب المنهجية العلمية عن مدرسته، وأعطوها حقها من التقدير والعنايــة، وإن مثل هؤلاء كثيرون ممن أُهمل فكرهم وأُنكر منهجهم.

ومن يتأمل في حياة هؤلاء النوابغ النوادر في تاريخ الأمة الفكري المتأخر، منــذ إغــلاق باب الاجتهاد فيما بعد القرن الرابع الهجري، يجد أن هذه الفلتات الفكرية كانت نتيجــة حيــاة علمية تختلف في طبيعتها ومسارها عن الأنماط الفكرية المدرسية السائدة؛ التي اتسمت بتمزق المعرفة، وعزلة العلماء عن الحياة، وعن الواقع. فابن تيمية، وابــن حــزم، وابــن خلــدون، وأمثالهم، لم يكونوا علماء وفقهاء بين جدران المدارس فحسب، بــل كــانوا أصــحاب خبــرة ودراية وممارسة اجتماعية حياتية وسياسية كوَّنت لديهم معرفة عقلية علمية متكاملة، وجعلــت علمهم يتفاعل مع عملهم وممارستهم ودرايتهم؛ بحيث يتعاملون بأصــالة مــع واقــع الحيــاة ومتغيراته المعاصرة لهم، ولذلك كانت جُــلُّ آرائهم واجتهاداتهم – فــي ضــوء عــصورهم الزمانية والمكانية - أصيلةً نيرةً.

وعلى الرغم من اطِّراد منهج ابن حزم العلمي المنضبط في تعامله مع الغيب والــشهادة، إلا أنه واجه مشكلة عويصة في بحثه عن ماهية الدليل العقلي في قبول مبدأ الــوحي مــصدراً للمعرفة، وتمحيص حقيقته وحقيقة الشريعة وتقبلها والتزامها.

ولما كان منهج ابن حزم يلتزم العقلَ والشهادةَ، ولا يقبل دعاوى التوهُّمــات والتهويمــات الباطنية والغنوصية؛ كان لا بد له أن يجد دليلاً عقليا علمياً منهجياً كأساس وقاعدة يستند إليهــا في تقبله للوحي (الغيب) والتزامه عقلاً.

وقبول حجية الغيب لا يمكن أن تتأتى عقلاً إلا بقبول صدقية الرســول صــلى الله عليــه وسلم، وصدقية الرسالة، وهنا نجد ابن حزم موزعاً بين منهجه العقلي العلمي الذي لا يلتزم إلا العقل والحس والتجربة مصدراً حقيقياً مشروعاً للمعرفة، وبين حسه النفسي الإيماني، ومعرفته العقلية بعظمة رسالة الإسلام، وضرورتها في اتــساق الحيــاة البــشرية واســتقامة أمرهــا، وضرورة تكامل الغيب والشهادة في معنى وجودها.

ولذلك؛ كان لا بد لابن حزم أن يجد هذا الدليل العقلي الذي يتــسق مــع طبيعــة فكــره ومنهجه، ويمثل حلقة الوصل العقلية المنضبطة بين الغيب والشهادة، دون الوقوع فــي شــرك التوهُّمات والتهويمات الغنوصية.

وحتى يجد ابن حزم دليله ويمسك به، حيث لا يمكــن لمثلــه قبــول دعــاوى الاتــصال الغنوصي بعالم الغيب، كان لا بد له من أن يلتفت إلى حياة الرسول صلى الله عله وسلم ليجــد فيها دليله وسند صدقه العقلي والعلمي المنهجي؛ الذي التزمه في فكره وأدائه، فصدقُ الرسول صلى الله عليه وسلم لا بد أن يتأتى من دليل حيٍّ يلزم العقل بالقبول والتسليم؛ لذلك كان بحــث

ابن حزم عن الإعجاز في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم هو الأساس العقلي العلمي المنهجي لقبول الرسالة والتسليم بها في عالم الشهادة، ويتكامل بقبولها الربط العقلي بين عالم الغيب والشهادة، وهذا المنطلق العقلي المنهجي هو المنطلق الوحيد السليم بالضرورة عند ابن حزم ومنهجه العلمي العقلي في قبول قضايا الغيب والتسليم بها.

ولكن ما وجه الإعجاز في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يستطيع ابن حزم أن يقدمه، وأن يلزم به العقلَ، ولا يدع معه مجالاً للجدل والشك والمنازعة؟

فعلى الرغم من سلامة منهج ابن حزم وسلاسة وجهته المنجية، إلا أنَّ من المؤسف أن ابن حزم أخطأ ضالته ولم يوفق في استخراج النتائج الصحيحة من المقدمات التي وضعها **والتزمها**؛ فالإعجاز الذي اهتدى إليه ابن حزم انتهى إلى القول بإعجاز الخوارق المادية وما يتعلق بها من قصص المعجزات التي نسبت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن هذه الخوارق، وإن صدّقها المؤمنون وسلَّموا بها في يسر، إلا أنها يمكن أن تثير كثيراً من الجدل العقلي والعلمي في سلامة السند والرواية ومبالغات الرواة وخداع الحواس وكثير غيره مما يمكن أن يمتد إليه الجدل والمماحكات سنداً ومتناً؛ بحيث ينتهي الأمر عند الكثير من هؤلاء إلى القول بأن لزوم الإيمان بهذه الخوارق إنما يقتصر على من حضر هذه الخوارق فقط، وشاهدها، دون سواه من الناس، فإن قبل بها بعض الناس فهو من باب القابلية للتسليم بمثل هذه الدعاوى، ومن باب الحب والاحترام والإعجاب بصاحب الرسالة، أو من باب الحب والاحترام لأصحاب العلم والمعرفة الذين يسلمون بهذه الخوارق أو يتقبلونها خوفاً ورهبةً وطلباً للنفع أو السلام، وهذا مما لا يوافق منهج ابن حزم العقلي العلمي.

وأحسب أنني على شاكلة ابن حزم في التوجه نحو التزام المنهج العقلي العلمي المنضبط؛ حيث واجهت السؤالَ نفسَه منذ نعومة الأظفار، وأنا على مقاعد الدراسة الثانوية في ربوع مكة المكرمة وجوار بيت الله الحرام، حين يتفتح وعي اليافع في مثل تلك السنّ على معنى الوجود، وعلاقة الغيب بالشهود، وما يتبع ذلك من مواجهة حيرة نفس اليافع في اختيار السبيل الذي يجب عليه أن يسلكه، والعقيدة التي يجب أن يؤمن بها ويلتزمها في هذا الشأن المصيري الخطير.

ولما حُبِيْتُ به من مكتبة أسرية زاخرة، وبيئة أسرية وديعة حميمة نمَّت التوجه العلمي عندي منذ تلك السنِّ المبكرة، فقد توجَّه تفكُّري العلمي بصورة تلقائية بشأن هذه الإشكالية إلى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، أتلمس فيها الحلقة المفقودة التي توجب صدقه في النقل عن عالم الغيب، وتوجب تقبل قدسية الرسالة والتزامها، ومن دون هذا الدليل

والإمساك به فلا مجال عقلاً لهذا الالتزام، وإن كان ذلك لا يمنع من الإعجاب والتقدير لما قد يقوله "أدعياء" الرسالات إن كان في فكرهم ما يستحق الإعجاب والتقدير.

وعلى غير شاكلة ابن حزم فإنني لم أتوجه إلى البحث عن الدليل وعن الحلقة المفقودة في الخوارق المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم دون إنكار إمكانها، ولكن فكري اتجه إلى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وذلك أنني أعلم أن إدراك حقيقة الوجود وما وراء الوجود لا يمكن لعقلي أن يدركه، كما أنني أعلم أنه ليس بإمكاني الحديث إلى ما وراء عالم الشهادة: (الله)، والسؤال عن حقيقة الرسول والرسالة؛ ولذلك كان لا بد لي عقلاً من التوجه إلى البحث عن الإعجاز والدليل والحلقة المفقودة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ذاتها، على أساس من دواعي العقل والفطرة، ودون حاجةٍ إلى تجاوزهما أو الخروج عليهما أو إلغائهما باللجوء إلى الخوارق المادية، وتجاوزٍ للسنن الكونية، ولقد وُفِّقتُ في تلك السن المبكرة إلى الدليل العقلي العلمي على صدق الرسول والرسالة من دون الحاجة إلى ضرورة قبول الخوارق للتسليم بصدق الرسول والرسالة، وهو ما دعاني إلى كتابة هذه المقالة الاستدراكية لاستكمال الإضاءة المنهجية العقلية العلمية، ولسدِّ ثغرة هامة في هذا العصر العلمي؛ لاستعادة الرؤية الكونية الروحية الإنسانية في مواجهة الرؤية المادية الحيوانية؛ حتى تكون "القوة للحق" وليس "الحق للقوة".

فمنذ تلك السن المبكرة حتَّم المنهج العلمي في تصوري أن يتمّ إثبات صدق الرسالة الخاتمة بأسلوب عقلي علمي يلزم الأجيال على تعاقبها، بصدقها؛ بحيث تترك لدى المتأخر منهم يقيناً لا يختلف في جوهره عن يقين مَنْ عاصر الرسالة وصاحَبَ الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك كان لا بد لإعجاز الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتم على أساسٍ من قواعد العقل والسنن التي جاءت رسالته باحترامها وطلب التزامها؛ فتأييد رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم على الحقيقة ما كان له، على ضوء هذا المفهوم والمنهج، أن يتعلّق بحادثة أو حوادث خارقة، متفرقة، تتجاوز العقل والحس، ولا تلزم الباحث العلمي بالنواميس والسنن.

ولما كان مربط صدق الرسالة، على ضوء هذا المنهج، لا بد أن يتعلق بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم، كان من المهم النظر بدءاً في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي حياته، أجزاءً متفرقةً، وكلياتٍ مجتمعةً، وقياسها على حياة البشر وفطرتهم؛ ليُرى كيف تأتَّى لهذا الإنسان عقلاً أن يحمل رسالة الغيب إلى الناس، ويحملهم على تصديقها.

لقد جاءت رسالة الإسلام، في ضوء التاريخ، كما يقول المؤرخون، على غير ما سبقها من أديان ورسالات؛ **فقد** حفظ التاريخ لنا نص رسالة الإسلام وسيرة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأوضح لنا التاريخُ، ونصُّ القرآن الكريم، أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان

بشراً، وعاش حياة البشر، وكانت مفردات حياته بشرية مستقيمة؛ لذلك فـإن إعجـاز رسـالته ودليل صدقها لا يصحُّ أن يخرج عن الطبيعة البشرية التي توجَّـه الخطاب إليها، وهو الـذي سيضع البشرية على جادة مرحلة العلمية والعالمية. ولكن أين الإعجاز في حياة هذا "البـشر"؟ وأين الدليل القاطع عقلاً على صدقه رسولاً يبلغ رسالة خيِّـرة ملزمة عقلاً صادرة عن عـالم الغيب؟

لقد توافر للرسالة المحمدية (القرآن) الشرطان الأساسيان لإمكان اعتبارها رسالة ربانية، وأول هذين الشرطين شرط التوثيق، فقد توافر للرسالة المحمدية (القـرآن) – دون سـواها- التوثيق التام، وهو ما لم يتوافر للوثائق الأساسية التي بين أيدينا للأديان الأخـرى؛ حيـث إن القرآن الكريم كتب على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يزال يروى من قبل المقـرئين المتخصصين شفوياً بأسانيد متصلة متواترة حتى اليوم، إلى الرسول صلى الله عليـه وسـلم، كما أن القرآن الكريم مطلوب قراءة شيء منه في خمس صلواتٍ يومية في حيـاة كل مسلم، كما أن جُلَّ المسلمين يتطوعون بقراءته وحفظه والتعلم منـه والتعبـد والتبرك به طيلة حياتهم؛ وهذا يجعل توثيقه لا يضاهيه أي توثيـق لأيـة وثيقـة تاريخية، ومن العجب أن يتم الإعجاز التوثيقي الفريد في أمة أمية ليس لهـا فـي العلوم والمعارف والفلسفات والثقافات مقام أو باع.

كما أن الرسالة (القرآن) توافر لـه الشرط الثاني وهو شرط الخيـرية؛ فالقرآن الكـريم يحضُّ أيضاً دون شكٍ على الخير والعمل الصالح في الحياة الدنيا، وإلا فلا مجال لاعتبارهـا أصلاً رسالةً مقدسةً من مبدع الكون والحياة، ولعل قول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللّـهَ يَـأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} النحل ٩٠، هو من الآيات الجامعة التي توضح طبيعة الرسالة القرآنية والقصد منها في حيـاة الإنسان المسلم.

وإذا كان التوثيقُ وقصدُ الخير شرطين ضرورين لكي تكون الرسالة إلهية، فإن ذلك فـي حدِّ ذاته غير كاف لمنع الجدل في أمر صدور سفر موثق، يحض على الخير، أن يصدر عـن بشر يريد "بادعاء" الرسالة تعظيم عمله وإضفاء القدسية عليه؛ لذلك لا بد من توافر شرط ثالث يقيم على وجه من وجوه الإعجاز العلمي العقلي الدليلَ القاطع على أن محمداً صلى الله عليـه وسلم رسول صادق يبلغ رسالةً صادرة عن الله (عالم الغيب)؛حتى تكون بذلك رسـالة إلهيـة صادقة ملزمة للبشر.

ومن هنا جاءت أهمية الالتفات إلى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم عقلاً، والنظـر في حياته ومفرداتها؛ لتلمس الدليل القاطع منها ذاتها على صدقه وصدق رسالته، ولاسيما أننـا

لن نستطيع التواصل مع الله سبحانه وتعالى مباشرة، لطلب العلم بحقيقة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم والرسالة، وكيف لنا غير ذلك والرسالة ذاتها عقلية علمية، بدأت بـ (اقرأ)، وجاءت بكتاب، وحضَّت على العلم والفكر وطلب الدليل والبرهان، وقامت على فهم السنن والأسباب؛ الأمر الذي يؤكد مرة أخرى ضرورة النظر في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي مسيرة حياته، وصفات شخصيته، ومفردات تكوينه؛ لمعرفة مؤهلات حمله الرسالة، ودليل صدقه العقلي في حمل هذه الرسالة.

ولو أعملنا العقل والعلم، وتمعنا في مفردات حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي مفردات قدراته وصفاته، فلن يعوزنا الدليل؛ لأننا سنجد أن هذه المفردات - مهما كانت عظمةُ كلِّ واحدةٍ منها منفردةً - لن تمنع الجدل في إمكان أن يتصف بالصفة الواحدة منها إنسان آخر، إلا أننا لو تمعنا في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في جوانبها المختلفة كافة؛ لتبين لنا أن الإعجاز في حقيقته لا يكمن في عظمة كل صفة من صفاته الفردية فحسب، ولكن الأهم أنه يكمن في اجتماع كل هذه الصفات الفائقة، وما ارتبط بها من ممارسات وإنجازات، في شخصية رجل واحد، وعلى الوجه الذي تمَّ؛ فوجه الإعجاز إذن ليس بالضرورة في بشرية أية صفة من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن في اجتماع كل هذه الصفات، ونظام تفتحها في حياة رجل واحد من البشر، ولاسيما في ظروف حياته الخاصة، وظروف صفات مجتمعه الحضارية على ذلك العهد.

وجمال هذا الإعجاز، وجمال روعته العقلية والعلمية، أنه لم يُخْرِج الرسول صلى الله عليه وسلم عن طبيعته البشرية، ولم يؤدِّ قبولها إلى إلغاء العقل والمنطق الإنساني، ولم يحل ذلك أو يمنع أن توجه الرسالة إلى البشر، وأن تخاطبهم من خلال فطرتهم وطبائعهم، ومن خلال اطِّراد السنن لديهم، فكان هذا الإعجاز العقلي العلمي البشري هو حلقة الوصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وهو الدليل العقلي العلمي القاطع على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحجية الرسالة.

وحتى نتبين ما عنيناه من الإعجاز الكلي العقلي العلمي الإنساني في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه لا بد لنا من رحلة سريعة في سيرة حياته صلى الله عليه وسلم؛ لنتتبع أمهات صفاته وأحداث حياته، ونجمع بعضها إلى بعض، ونستطيع بذلك أن نرى كيف يمثل اجتماعها وجه الإعجاز العقلي العلمي البشري في حياة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته، من دون حاجةٍ إلى الخوارق التي قد لا تتسق مع منطلقات "الرسالة"، ولا مع طبيعة المرحلة العلمية العالمية الحضارية البشرية التي تبدؤها وترشِّدها تلك الرسالة.

لقد ولد محمد صلى الله عليه وسلم ونشأ يتيماً يسيراً في حضن جده عبد المطلب، ثم من بعده في حضن عمه أبي طالب، في وادي إبراهيم الجدب من كل شيء، وفي صحراء بلاد العرب، فقد توفي أبوه قبل أن يولد، وتوفيت أمه وهو ابن ست سنين، ومع أنه نشأ يتيماً بفقد الأم والأب إلا أنه لم يحرم بفضل الله حبَّ الأمومة وعطفها وحنانها في مرحلة الطفولة الأولى التي هو في أشد الحاجة الإنسانية إليها، ولا يمكن لغير فطرة الأمومة توفيرها للصغير، رحمة من الله به. ومرَّ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمختلف مراحل الحياة التي لو كان له فيها دعاوى أو تطلعات أو مطامع وطموحات بشرية لما أمكن لبشر أن يخفيها، أو أن يخبِّئ أمرها، على مدى أربعين عاماً من عمره؛ بحيث لا يبدو منها شيء في لاحق مسيرته وما تفتحت عنه حياته، من العلم والحكمة وقدرات القيادة والريادة الفائقة في كل أمر تصدى له، وبنجاح بالغ، بعد أن حمل الرسالة وقد تجاوز سنُّه الأربعين عاماً.

كانت حياة محمد صلى الله عليه وسلم صبياً ويافعاً وشاباً ورجلاً مكتمل الرجولة، وكهلاً وأباً وزوجاً حتى سن الأربعين، حين أنزل إليه الوحي والرسالة، تتسم بالصدق والأمانة والوداعة وحسن الخلق؛ الأمر الذي دعا امرأة من كرام قومها وعقلائهم، هي السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، أن تأتمنه على مالها، وأن تخطبه لنفسها؛ تقديراً منها لصفاته الكريمة.

وأول ما يلفت النظر أن هذا الرجل حين يبلغ سنَّ النضج في سن الأربعين، وهي السن التي تهدأ فيها عواصف الرعونة عند البشر، ويخمد الكثير من أوارها، عند من كانت عاطفته وطموحاته ملتهبة؛ لأنها هي السن التي تبدأ تكبح جماح التطلعات الجامحة، وتلجمها، ولكننا نجده في هذه السنِّ على غير المألوف، البشري، يقدِّم نفسه على أنه صاحب رسالةٍ إلهية، خطيرة خيِّرة، يحملها إلى قومه من عالم الغيب إلى الإنسان، يدعو فيها قومه والبشر من ورائهم إلى التوحيد والإخاء والعدل والتفكر ومكارم الأخلاق وطلب العلم والإصلاح والتسامح وحرية العقيدة، ونبذ البغي والطغيان والظلم والفساد والبطر.

وقابله قومه، وهم سدنة البيت وعبدة الأوثان، بالدهشة والإنكار لهول القول وخطورة الأمر وجليل العواقب، على مألوف عقائدهم ونمط حياتهم ومنكر ممارساتهم وعلاقاتهم، ومن العجيب أن يُلزِم هذا الرجل قومه الحجة، عن صدق دعواه، بتذكيرهم بصدقه على مدى حياته بينهم، فكيف له - مع كل هذا، على هذا المدى، منذ ولد - أن يكذب عليهم بعد كل هذا، أو في هذا الأمر الجليل؟ هل كان بإمكان محمد صلى الله عليه وسلم، أو أي بشر آخر، أن يلزم نفسه الصمت وكبت القدرات وكبح التطلعات والطموحات، على مدى حياته كلها، وفي كل أطوارها؟ وهل كان يستطيع، أو أي أحدٍ غيره، أن يلزم نفسه صفة الصدق، منذ مولده

حتى سن الأربعين من عمره، وهو يدبر الأمر، ويخفي الكذب؛ لكي يلزمهم، في هذه السن، تصديق أكاذيبه وتلفيقاته؟ ما كان لبشر بما كان يلتزمه من الصدق والأمانة أن ينطوي سره على ما تفتقت عنه الأيام من قدرات وإنجازات، فلا يعلمها أحدٌ حتى سن الأربعين، لولا أنه نشأ وأُعِدّ حقاً، على عين الله؛ حيث لايتصف طوال هذه السنين بشيء من القدرات والطموحات، ولم يتمتع بشيءٍ من الخبرات والممارسات التي يمكن أن تُعِدَّه لما ستتفتق عنه الأيام من قدرات وإنجازات مذهلة ، وحينئذٍ – وقد تجرد من كل ذلك - تصبح صفات الأمانة والصدق والاستقامة وحدها الصفات الأساسية المطلوبة لكل رسول مبلغ.

وهكذا نجد أن هذا النوع من القدرات التي انبثقت في حياته بعد سنِّ الأربعين، وإن كانت مفرداتها في جوهرها بشرية، إلا أن اجتماعها كلها، وعلى النسق الذي تفتقت عنه، وبالقدر الذي برهنته، وخاصة في تلك البيئة البسيطة، في حياة رجل واحد بسيط، هو الإعجاز الذي يلزم العقل، ولا يخرج به عن فطرته وطبعه.

إن العجيب المعجز المدهش عقلاً أن ينتصب هذا الوديع الصادق الأمين عوداً صلباً داعياً إلى الإصلاح، وهو رجل أمي في أقصى الأرض، من أمة بدوية أمية؛ حيث لا فلسفات ولا أروقة، ولا مكتبات، ومن دون سابق خبرات عامة أو قيادية؛ ليبدع القول الفصيح الرائق الخيِّر، على غير ما عرفته فصاحة العرب، ويصر في عزم الشباب على دعوته، على الرغم مما يناله وأصحابه من الأذى والعذاب، على مرِّ السنين، بل إنَّ الأذى، ومقاومة قومه قريش وتمسكهم بأوثانهم ومنكراتهم، كان يزيدُه، كما كان يزيدُ أتباعَه، الإصرارَ على الدعوة، والصبر على الأذى، في وقتٍ لا تبدو لاستجابة أصحابه وأتباعه بارقة أمل، ولا يبدو لحلكة ليل الأذى انقشاعاً. وتزداد الدهشة أنه بعد ثلاثة عشر عاماً من الدعوة إلى الخير دون ملل، ومع الصبر على الأذى دون كلل، أن تأتي ساعة الانطلاق وقد استجمعت الدعوة طاقتها؛ لتؤمن قبائل الأوس والخزرج من سكَّان يثرب فجأةً ودون سابق حسبان، وأن يتعاهدوا على الانقياد للرسول صلى الله عليه وسلم، ونصرة الرسالة التي يحملها.

من العجيب أن محمد رسول صلى الله عليه وسلم - وهو من نعلم سيرته ونشأته، وبقدرة فائقة، ونجاح منقطع النظير - أقام بالفعل، وفي مدى عشر سنوات فقط، دولةَ أمةِ عدلٍ وتسامحٍ وإخاءٍ وإحسانٍ وحريةِ عقيدةٍ، يسوس فيها ببراعة، ويحكم فيها بعدل، ويقضي ويدبِّر الأمر بحكمة، ويبني النظام، ويقود الجيوش المنتصرة، ويجري على لسانه القولُ الخيرُ الفصيحُ المعجزُ حكمةً وهدايةً ويسراً ورشداً.

أليس من العجب العجاب، أن يخطر على عقل بشر، أنه يمكن أن يكون لبشر واحد كل هذه الإمكانات والقدرات والطموحات، وفي تلك البيئة، من دون أن يبدي منها شيئاً على مدى

صباه وشبابه ورجولته، وفي كل أحوال حياته؛ زوجاً وأباً وحتى سن الأربعين من العمر؟ ومن دون أن يكون في حياته وبيئته وخبراته الحياتية ما ينشئها ويرعاها وينميها. هل كان ذلك حقاً في طاقة بشر أن يخطط لمثل هذا الأمر، وبهذا القدر المحكم، على مدى الأربعين عاماً منذ أن ولدته أمه، فلا يبدو منه، ولا من قدراته، ولا من طموحاته، شيءٌ؟ ثم كيف لهذا الأخضر العود، قليل الخبرة والتجربة، إن لم يكن عديم الخبرة والتجربة، أن يتصدى للقادة والسادة والكهانات والقبائل والصناديد مجتمعة؛ ليهزمهم في الحكمة والتدبير والسياسة والحروب والمعارك والمنازلة، لتنتهي دعوته ودولة رجاله وأصحابه إلى هدم إمبراطوريات الظلم والجور في بلاد حضارات عتيدة مترامية الأطراف في دولة حضارة فارس وبلاد دولة حضارة الروم، وأن ينتشر ضوء رسالته على مدى القرون في أرجاء الأرض كافةً، على الرغم من اختلافها شعوباً وألسنة وألواناً؟

إن النهج الذي تفتح فيه عود محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته وقدراته منفردة ومجتمعة على مدى ثلاثة وستين عاماً، هو المعجزة الحقيقية لتأييد صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وحجيتها؛ والتي آمن بها رجال أفذاذ من قومه برهنوا على تميزهم وقدرتهم على صفحات التاريخ، عرفوه وخبروه، وهم من خيرة بني قومه وأنداده سناً وبيئةً، منذ عهد الصبا، وتابعوه وآمنوا به على حال لا يرجى- على مدى ثلاثة عشر عاماً من الأذى والمعاناة - من ورائها طمع ولا نفع، فكيف لأحد أن يأتي بعد أحقاب طويلة، يضاف إليها ما نعلم من وجوه إعجاز القرآن الكريم؛ ليدَّعي أنه أقدر من هؤلاء الأصحاب بصراً أو بصيرةً، وليعرف من أمر محمد صلى لله عليه وسلم ما لا يعرفون، ويحكم في أمره بما كانوا عنها غافلين!

إن حياة محمد صلى الله عليه وسلم، ونهج نموه، وتفتح طاقاته وقدراته، على النهج الذي تمَّ، أمر يرى وجْهَ الإعجاز فيه كلُّ إنسانٍ علمي منصفٍ عاقلٍ، وإن أي إنسان منا قد لا يجد غرابةً في أي مفردةٍ من مفردات حياة محمد صلى الله عليه وسلم، برغم أنها حتى في كثير من وجوه مفرداتها فريدةٌ معجزة متميزةٌ، ولكن المعجز المستحيل هو انتظام كل هذه المفردات في حياة رجل واحد على تلك الحال، وعلى مدى ثلاثة وستين عاماً.

بناء حياة البشر أشبه ما يكون ببناء الهرم؛ فهو ينطلق من قاعدة واسعة من التربية والتعليم والتلقين والمهارات والتجارب والممارسات، لينتهي إلى قمة القدرة والمهارة في أمر أو آخر من شؤون الحياة؛ قائداً منتصراً، أو رجلَ دولة وسياسة ماهراً، أو رجلَ أدبٍ وشعر وفصاحة وقلم مؤثراً، أو رجلَ علمٍ وبحث مبدعاً دؤوباً، أما حياة محمد صلى الله عليه وسلم فهي عكس ذلك؛ مثلها مثل هرم مقلوب يبدأ من قاعدة محدودة ضيقة؛ لينتهي إلى قمة واسعة رحبة، في كل وجه وجوه الحياة، قيادةً وحكمةً وسياسةً، وبياناً يبزُّ به القادة والحكماء

والعلماء والفصحاء، ولعل الأولى مثلاً في وصفه ليس الهرم المقلوب، ولكن وصفه بأكمام الزهر المثمر الذي يتفتح بجماله وعطره وثمره، من عود أخضر غضّ رهيف، فيكون آية من أبدع آيات الله سبحانه.

الرسالة التي – إن أُحسِنَ تلقيها وفهمها – تبعث السلام في النفس، وتشيع الإخاء والتراحم بين البشر، وتدعو إلى العدل والحق والخير والعلم والسلام، إنها رسالة معجزة خيِّرة، متواترة النص، صادرة عن صادق أمين زكي في خلقه، معجز في تكوينه وقدراته، ومعجز في الكتاب المعجز الذي نُزِّلَ عليه، لا بد أنها رسالة صدق منزَّلة، لا يمكن للإنسان العاقل إلا أن يقطع بصدقها، فليس لهذه الرسالة إلا أن تكون رسالةً من الله الخالق البارئ الواحد الأحد المصور، يحملها رسوله الصادق الأمين إلى البشر، رسالةً ملزمةً، يتكامل فيها عالم الغيب وعالم الشهادة، ويتجلى بها معنى الوجود وغاية الفطرة السوية.

إن إدراك هذا الوجه في إعجاز رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، الذي يتفق وأحوال الفطرة وطباع البشر، كان أولى بمنهج عقل علميٍّ نيِّر كابن حزمٍ، وهذا الإدراك هو أولى اليوم بالعقل المسلم في مسيرته نحو المنهج العلمي والتخلص من قيود التهويمات والغنوصيات والضلالات والخزعبلات.

لقد مكَّنت هذه التأملات العلمية العملية منذ نعومة الأظفار إيماني بهذا الدين رسالةً قدسيةً، وجعلتني مسلِماً بالخيار لا بالمولد والهوية الأبوية، أو المكانية، كما أرست فكري على سبيل العلم ومنهج السنن والعقل، وحَمَتْه – بفضل الله - من أوضار الخرافة والأوهام والخزعبلات؛ ولهذا فما واجهتني – بصدد رسالة الإسلام – شبهةٌ إلا كانت عندي مجرد إشكال يحتاج إلى نظر علمي منهجي؛ لمعرفة وجه الإسلام والحق في الأمر، وليس شكاً يدعو إلى الريبة والإحجام والتردد.

على ضوء ذلك كان منهجي في النظر في أي أمر أو شبهة يتكون من شقين: الأول منهما هو معرفة طبيعة المشكلة، والثاني منهما هو أخذ جزئيات نصِّ الوحي في ضوء كلياته ومقاصده، ومن دون ذلك المنهج في رأيي لا يكون إلا التخريف والتهريف الذي يجب أن نتلافاه، ونضع له حداً في بناء مناهج علمنا وتعليمنا وتكوين كوادرنا العلمية والقيادية؛ فبذلك تجمع مناهج علمنا وتعليمنا، في جميع أوجهها، معرفةَ جوهر الدين ورؤيته ومقاصده ومبادئه وقيمه ومفاهيمه، إلى جانب المعرفة العلمية بالسنن الفطرية والكونية في مختلف المجالات الإنسانية والفيزيائية؛ لتولِّدَ علماً ومعرفةً وممارسةً حقيقية فعَّالة عمرانية، تحقق رؤية الإسلام ومقاصده، وتفعِّل مبادئه ومفاهيمه وقيمه في واقع الحياة على مدى الزمان والمكان.

جزى الله ابن حزم خيراً؛ أن دعاني التمعن في منهجه إلى الاستدراك عليه دون انتقاص من قدره العلمي الجليل؛ لأشارك وأطرح رؤية وتجربة مررت بها في ريعان الصبا، والتي لابد أن يمرَّ بها – بشكلٍ واعٍ أو غيرِ واعٍ – كل يافع في حيرته وبحثه الفطري عن علاقة الشهادة بالغيب في مصدر حياة الإنسان على وجه هذه الأرض، وعلى مصيره ومصير حياته ووجوده، بعد أن يُدفَنَ في باطن هذه الأرض التي نما جسده من طينها، وترعرع عوده من ثراها، لقد كانت هذه الرؤية وهذا المنهج خير عونٍ لي فيما مضى لي من حياتي؛ لأنها مثلت في حياتي رؤيةً وتجربةً حية أرجو أن يكون فيها شيءٌ من النفع ودعوة للتفكر والتدبر وأخذ الحياة بالجدية المطلوبة؛ الأمر الذي يثري حياة شبابنا الذين هم ذخيرة أمتنا وذخيرة الإنسانية، لهداية البشرية إلى طريق الحق وحضارة العدل والإخاء والإعمار والتسخير الإنساني القويم، وإلى الفهم والسلوك السليم؛ الذي يحقق معنى الحياة والذات؛ بكل مسؤولياتها وإيجابياتها ومتعها الطيبة، من دون إفراط ولا تفريط.

إنني أرجو أن يجد الشباب والقراء في سيرة هذا الرجل العظيم، وكل من كان على شاكلته من نوابغ أسلافنا، زاداً يضع فكرهم على جادة المنهج العلمي العقلي الإيماني القويم: ليحققوا غاية الاستخلاف وتكامل الوحي والفطرة، وليكون ذلك دليلاً لحياتهم، وهدايةً لإعمارهم، وتوخياً للخير والبذل والعطاء في مسيرة حياتهم، بإذن الله.

ولله الحمد والمنة، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د.عبد الحميد أحمد أبو سليمان

الرياض في ١٤٢٩/٨/٨ هـ

الموافق لـ ٢٠٠٨/٨/٩ م

قراءات

استكمالاً للفائدة، ولمزيد من توضيح القضايا التي تطرق إليها هذا البحث يمكن الرجوع إلى الكتب والأبحاث التالية للمؤلف:

١- أزمة العقل المسلم، سلسلة المنهجية الإسلامية، الناشر: الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، وغيرها من الطبعات.

٢- أزمة الإرادة والوجدان المسلم: البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة، الناشر: دار الفكر بدمشق ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٤م

٣- العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي بين المبدأ والخيار، الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن ودار السلام بالقاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م

٤- الإنسان بين شريعتين: الناشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن ودار السلام بالقاهرة، ٢٠٠٥م

٥- الإصلاح الإسلامي المعاصر: الناشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن ودار السلام بالقاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

٦- إشكالية الاستبداد والفساد في الفكر والتاريخ الإسلامي، مجلة المسلم المعاصر، العدد ١٢٢، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص١١٣-١٥٠

هذا الكتاب

لاشك أن قضية الرؤية الكونية تمثل بشكل واع أو غير واع لأي أمة ولأي إنسان قضية مصيرية محورية لأن قضيتها هي قضية ذات الإنسان، ووجوده، ومعنى هذا الوجود، وغايته، ودافعيته .

وبقدر سلامة هذه الرؤية، وبقدر إيجابيتها الروحانية، والوعي الموضوعي المؤمن الواثق بها، بقدر ما يتوافر لهذا الإنسان من الهوية، ومن الوعي، ومن الدافعية والإبداعية الإيجابية الحضارية الإعمارية التي هي السبيل إلى بناء الحضارة الإنسانية الخيرة، وتحقيق معنى الحياة والغاية الفطرية السامية منها.

ما من أمة في التاريخ حققت وأبدعت وارتفعت إلا بفاعلية رؤيتها الحضارية الإعمارية وإيجابيتها، وما من أمة انهارت، وجمدت، وتخلفت، واندثرت إلا بسلبية رؤيتها الحضارية الإعمارية وتشوّهها؛ لأن في ذلك قتل مصدر روح الإبداع والإنجاز والعطاء الحضاري الإعماري.

يمثل هذا الكتاب مراجعة فكرية عميقة شاملة "لقضية "رؤية الأمة الإسلامية الكونية" وتتبع مسارها في التاريخ؛ بما يفسر سبباً من أهم أسباب سالف رقي الأمة الإسلامية، كما يكشف عن وجوه التشوه التي أصابت رؤيتها الكونية الحضارية، والمخاطر التي تواجهها اليوم بسببها، وهو بذلك كتاب يسهم في تجلية وجه "الرؤية

الكونية الحضارية القرآنية"، وكيفية إدراكها واستعادتها في عالم اليوم؛ بما يمكـن الإنسان المسلم، والأمة المسلمة، من استعادة سالف دافعيتها الإيجابيـة، وسـالف قدراتها الحضارية الإعمارية الخيرة، استنقاذاً للأمة الإسلامية، واستنقاذاً لمستقبل الحضارة والإنسانية، بإذن الله .